حدائق كافكا المعلقة
رواية
عبد النبي فرج

الكتاب: حدائق كافكا المعلقة
المؤلف: عبد النبي فرج
التصنيف: رواية
تصميم الغلاف: بدر السيوطي
التنسيق الداخلي للكتاب: علي هادي
ISBN : 978-9922-9503-6-5

الطبعة الاولى
٢٠٢١

مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
العراق – محافظة بابل – الحلة – شارع اربعين
جوال : 009647831010190
info@ebjed.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميا وإتاحته عبر شبكة الانترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

حدائق كافكا المعلقة

رواية

عبد النبي فرج

أبجد للترجمة والنشر والتوزيع

حشرة كافكا الهائلة

لا يمر يوم بدون هجوم الكوابيس عليَّ أثناء النوم، تتبعني بإصرار، وعندما أفيق تتجسد أمام وجهي، وتتراوح ما بين السقوط من مكانٍ مرتفع، أو هجوم كائنات مفترسة، أو تعرضي للاختناق، ولكن هناك كوابيس طارئة، مثل الشهب، تندفع نحوي وتهاجمني ثم لا تتكرر؛ اليوم رأيت جسمي تجري عليه ذئاب مختلفٌ ألوانُها، أنظر إليها مندهشا وأكاد أكون سعيدا، هيئتها الخلابة بفرائها ووجهها وصلابتها، وقوتها، حتى تجاوزتني، فوجدتني ممزقاً والدماء تسيل. هالني ما رأيت هممت أن أفتح فمي بالصراخ ولكن دق أحد عليَّ الباب بقوة أيقظتني، خرجت إليه مشوشاً، مكتئباً وأن أشعر أنني مزنوق في الحياة.

فتحت الباب وجدت صاحبي "عبدالوهاب"، فهب في وجهي: وراك حاجة قلت: لا، قال: كويس بكرة عندنا شغلانه طرية في جنينة الحاج بكر الصعيدي. فركت عيني: شغل إيه؟ بالفاس يا جدع خبر إيه؟ قلت: لا شغل الفاس بالنسبة لي مستحيل، قال: ليه يا عم.. اشتغل بقرش وحاسب البطال، مش القصد، بس. ما تبسبش، أنت عارف الأجرة كام عشرين جنيه في اليوم، وكلها خمس ساعات وترفع فاسك على كتفك وتروح يا عم الحاج، قلت أنا ما معيش فاس أصلا، قال: فاسك عندي لحد ما تدق فاس عند الريس علواني، قلت ماشي اِعمل حسابي معاك من بكره.

لم أكن أتصور أن مصيري سينتهي الى هذه الحال "المنيلة بستين نيلة" ولكن ما الذي يمكن أن أفعله؟ هل سأستمر عاطلا، دون أن تكون في جيبي نقود مثل أقراني، هل كلما ذهبنا للمقهى، أكون دائما صاحب اليد السفلى، يدفع سين، أو صاد، أوعين، في النهاية لي كرامتي، ولا يصح أن أظل هكذا عوالة على الآخرين، لذلك قبلت العمل وأنا مغموم وشايل الطين فوق دماغي، وفي اليوم التالي صحوت مبكرا وأنا أرفس مثل الجحش الشموسي حانقا فالصحو مبكرا نوعا من العقوبة ولكن ما باليد حيلة.

انخرطت في العمل البدني من خلال العمل باليومية في حدائق البهوات غرب الريَّاح، في بداية الأمر تسلخت يداي حتى تبلطتا، وأصبحتا لا يؤثر فيها أي عمل شاق، بل كنت أتنافس مع العمال أمام أصحاب الحدائق لإدهاشهم وتسليتهم ومحاولة التقرب منهم بالمراهنة على من يضع جمرة نار لأطول مدة على يديه، أو إطفاء سيجارة على كف اليد ببطء، أو رهان تحدٍ على وضع اليد في زيت مغلي، تعب وشقاء ومهانة وقلة قيمة، في مقابل أجر يتم توزيعه آخر النهار، ولو تعطلنا عن العمل لا نجد قوت يوم ولا تجد بابا سوى البقال ؛ليعطينا بالآجل حتي يفرجها ربنا عز وجل، لذلك نخاف من غضبة البقال أكثر من الله، فالله غفور رحيم، ولكن ماذا نفعل لو علبة الدخان نفدت؟ ماذا نفعل برب الكعبة؟ هل نسرق؟ ما كانت هذه حالنا، نلف شعر الذرة ونشربه، يعكنن مزاجنا، ويخرب المخ وإذا تصرفنا مع الدخان ماذا نفعل بالأفواه المفتوحة، هل نسدها بطينة، لذلك مهما توترت علاقتنا بالبقال فمرجوعنا له، غلط في حساب، طلبات زيادة، أخذنا طلبات ونسينا، ربنا يكفيكم شر الدين.

كل طائفة، أو جماعة تخلق أفراحها، تخلق فنها الخاص، تخلق سندات وعكاكيز للروح، لها أغانٍ شعبية، تسري في حواسها، في الشرايين، محمد طه وعدوية ورشدي وأغان رومانسية لعبد الحليم وأم كلثوم وصباح وشادية، ومنشدون ورواة قصص شعبية، خيبتها وأحلامها وطموحها في الخروج من بوتقة المحنة الى طمأنينة النعيم، بضربة حظ خارقة، من هبة إلهية، وما قيمة الحياة بلا حلم، بلا تخيلات، ما حال الفواعلي من دون أغان وقصص ومواويل هنيات شعبان، وطلعت محمد طلعت، وفتحي سليمان، والشيخ محيي الموزي، وبحر أبو جريشة، والسيرة الهلالية، ومسلسلات الإذاعة، ومحطة أم كلثوم، ومحطة القرآن الكريم ،وصوت رفعت وعبد الباسط، والحصري، غير التخبط، والعماء، والارتداد لحالة بدائية وحشية مريعة، كما لدينا شغفنا الخاص بالحكي شفاهة، والعمال الفقراء يمتلكون بئراً من النكات والطرائف والحكايات المدهشة، وأنا أعتبرها كنزاً، فهم فنانون بالفطرة، كل مجموعة،

أو" مقية" يوجد على رأسها حكاء متفرد، وفي الغالب لا يمتلك قوة عضلية ولذلك الكل يتسامح معه وتسند له الأعمال الخفيفة، مثل لم الحطب وعمل الشاي وملء القلل، له ذاكرة قوية، له لسان ذرب يلسع به أي نفر لا يرضي عنه، أو يكون ثقيل الظل، أو متبلدا أو بخيلا، ولا يتورع عن السخرية المرة، من صاحب العمل، أو مريض، أو ذى عاهة، يستبيح الكل، والكل يضحك ولا يتم محاسبته، يأتي دوره في أوقات الراحة، حيث يقوم واحد من الفواعلية بنكشه، بسرد واقعة كاذبة عن عامل، كان أبوه يعيش في بحبوحة، وهو في الأصل "مش لاقي الدقة"، فيقوم راكز على ركبته: "عليّ الطلاق ما حصل، عليّ رأي المَثَلُ يا اللي أبوك مات من الحامض، عليّ الطلاق ما كان لاقي السريس وكان عايش على ورق السجر يا جدع، وحّدوه، وينتقل من عامل يسيطر على الجميع بطريقة أدائه وسرده، فنان حقيقي لا يقل عن نجوم السينما يخطف الحضور، ولكن لم تأتِ له الفرصة، ودائما الحكاء يسخر من نفسه وأسرته وجيرانه، ويقلدهم بطريقة كاريكاتورية؛ فمجرد أن يستلم حبل الحكي، لا يتوقف ولا يمكن أن تغفل أو تمل منه بالعكس، نطلب المزيد، أنا نفسي جربت التقليد، والسخرية والحكي الشفاهي ولكن صعب أن أنافس الأسطوات الكبار فأنا في النهاية مجرد مقلد المقلدين ،ارتحت في هذا العمل الذي يكسب الجسم صلابة وقوة، كما يريحني نفسياً، ويعطيني مساحة كبيرة للقراءة ومشاهدة السينما، واقتناص يوم كل عدة أسابيع للسقوط على وسط البلد حيث تجمع المثقفين، أشارك في المناقشات، وأنصت للكبار وقد تعرفت على كثير منهم، ولكن كنت أخشي أن أعطي قصصي لأحد، أو أقرأ نصا رغم أن الفرصة كانت متاحة، لم أكن أجرؤ على إعطاء نص لكاتب للقراءة، إلاّ دائرة صغيرة جدا.

كانت لدي هواجس وشكوك تجاه المثقفين، لذلك لم أعطِ الأمان، فكل نقطة ضعف تتحول لسكين حاد في جنبك، ويغزك دون مبالاة، لذلك أخفيت عملي الحقيقي باعتباري عامل يومية، وعندما يسألني كاتبٌ عن عملي أقول: موظف في الوحدة المحلية، أو عملية المياه،

مستحيل أن أكشف عن عملي الحقيقي، فمجرد الإفصاح سيتم التعامل معي إما باحتقار وتعالٍ، أو بشفقة تعادل القتل الرحيم، لم أكن على استعداد نفسي لتحمل كلا الخيارين، لست واهما بالمرة، بل عن تجربة، حيث كل مرة أذهب لـ "زهرة البستان"، حيث التجمع الكبير، تجد كما من السخرية والتهكم على أصحاب المهن العاملة كسائق الشاحنة، أو التمريض، أو البقال، الخ. المثقفون أشد الفئات الاجتماعية عنفاً، وكراهية، لأنهم يعون جيد أنهم أداة من أدوات التزييف لصالح الدولة البوليسية، ورغم ذلك كان هناك أقلية ضئيلة مهمشة، تهتم بما أكتب وكانوا في حقيقة الأمر طاقة روحية دفعتني للاستمرار في الكتابة، رغم عدم جدواها.

في يوم وجدت أمي تنادي عليّ، فتجاهلت الأمر باعتبار أن الأم لا تنادي على ابنها إلا لمصلحة، حتى وجدتها تصعد السلم الخشب، وتطل عليّ، "عامل مش سامع يا بارد"، نزلت من على السطح حيث مكاني المفضل للقراءة، فأشارت على الباب حيث وجدت رجلاً غريباً لا أعرفه، سلمت عليه باضطراب، ولأنى دائماً لدي ريبة من كل غريب، قلت:

مباحث، رد أبداً، قلت مطلوب للتجنيد، ضحك الرجل، مفيش كلام من ده، أنا من البلد من عيلة البحراوي يا أستاذ، عندما قال يا أستاذ ابتهجت، طيب حضرتك عايز إيه؟ قال: عمي الدكتور إبراهيم عايز يشوفك، الدكتور إبراهيم البحراوي عايزني؟ أيوه! عاد من ألمانيا، قال:

من كام شهر وأول ما جاء وشاب من العيلة أخرج كتابا لك وقال: "جسد في ظل" لكاتب من بلدنا، وكل يوم يقول عايز أشوف عبده، لكن زحمة الزوار أهلكته، البيت لا ينقطع من الداخل والخارج، يا هووو على البلد لما تقصد واحد ما تسيبوش إلا لما تجيبه لمس أكتاف، قلت أهالينا نعمل إيه؟ عموما مش هطول عليك، يا ريت تمر عليه وقت ما تكون فاضي، هو صحته مش ولابد وما بيقدرش يمشي لمسافة بعيدة، قلت: حاضر، من عينيّ، وتركني، وسعادة تغمرني، فمجرد اصطفاء الدكتور لشخصي يعتبر تشريفا، فالدكتور من الرموز المميزة في البلدة، حيث

عاش فترة طويلة تقارب أربعين عاما في ألمانيا موظفاً نابها بالشئون القانونية، مستشاراً، قاضياً، لا أعرف، المهم أنه شخصية قانونية كبيرة، وله أبحاثٌ وكتبٌ بالألمانية، وسيرته في البلدة مرتبطة بالنجاح والتفوق حتى تحول لأسطورة، وهناك شائعات كثيرة عن سبب عودته، وقد سمعت من ابنة أخته مباشرة، أنه جمع الأُسْرَةُ وكان ذلك في عيد الأضحى حيث تأثر أشد التأثر من الدعاء الجماعي للحجيج وهم يهتفون، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك:"

وقال: أريد أن أعود لبلدي، وعندما ردت "ماري" ولكنك في بلدك يا عزيزي، أنت مواطن ألماني، رد بحنق، ماري أرجوك يا ماري، أنا مجرد مواطن مهاجر لا أكثر، وأخذ يحاول أن يعبر عن مشاعره، كان رومانتيكياً ،وكلامه غير مقنع تماما وهو يعلم ذلك، لذلك جلس ووضع كف يديه على وجهه، ثم قال: أرجوكم حاولوا أن تتفهموا مشاعري، ولكنه لم يجد استجابة من أحد من أولاده فهاج– وهو الصبور– وأخذ يكسر في الأطباق والصيني والتحف المتناثرة، وعندما تمت السيطرة عليه، من قبل أولاده كان صوته قد بح، وهو يلهث وصدره يعلو ويهبط، قال: أنا أختنق في هذا المكان يا ماري، أريد أن أقضي الباقي من عمري، على تراب بلدي، لنترك الأولاد يا ماري، الخيار لهم، لكن أريدك معي، أنتِ حبي الوحيد يا ماري، كانت دموعه تترقرق، ويتدفق بمشاعر عاطفية مسرفة لم تستطع ماري معها إلا أن تحزم حقائبها وتعود معه في مارس ٢٠٠٣م لقرية "أبو غالب" بريف محافظة الجيزة، عاد يحاول بشتى الطرق تجميع صورة مبهجة عن الماضي السعيد، عن أصدقائه القدامى وأهله أظرف خلق الله، يستعيد نكت وطرائف وحكايات وأغاني ريفية جميلة وألعاب، وضرب بقبضته القوية في الهواء، يجب أن أقضي باقي عمري في سعادة وطمأنينة.

عاد في ضيافة أخيه الذي استعمر بيت العائلة، وتملكه بقوة الواقع، حيث هدم البيت القديم وبني بيتاً جديدا على أنقاض القديم وسجل البيت في الشهر العقاري، وعداد النور

والمياه باسمه ؛وكتب "يافطة" مزخرفة على لوح " منزل الحاج فاضل وأولاده" في البداية كان الاستقبال رائعاً، والكل في خدمة الباشا خاصة أنه أحضر هدايا لكل الأسرة وكان كريماً يصرف على البيت، وكلما طلب أحد شيء من الحاج أو أولاده يقول له رح لعمك إبراهيم، روح لجدك إبراهيم، حتى كاد أن ينفجر من الكمد، ولذلك أول شيء فكر فيه هو شراء قطعة أرض قريبة من الزراعة، وقد بنى عليها فيلا تعتبر تحفة معمارية، تذهل كل من يمر عليها، وبنى سورا حولها وزرع نباتات غريبة وزهور جميلة تفوح بعطور مختلفة، وأشجار نادرة، وقد استقطع وقتا طويلا في الاهتمام بالحديقة ولأن أخاه وجد نفسه سيفقد الدجاجة التي تبيض له بكرم بدأت معاملته تتغير حتى وصلت للذروة ،عندما قرر أن ينتقل من البيت لبيته الجديد، وكان قد اتفق مع سيارات نقل لتنقل متعلقاته، وفي الصباح قام على صوت كلاكس العربية نظر من الشباك وقال للسائق اطلع، حاول السائق فتح الباب، ولكن وجده مغلقا. استغرب الدكتور ونزل درج السلم بسرعة لم يجد أحد لا أخاه ولا أولاده حاول فتح الباب ولكن وجد الباب الحديد مغلقا، ضرب كفاً بكفٍ وصعد للدور العلوي وقال لماري ما حدث، وعندما اقترحت عليه كسر الباب رفض: يقف عليّ بكتير، ثم نظر الى السائق مرة ثانية وطلب منه أن يذهب بالسيارة للمعلم عبد الباري المقاول الذي قام بتنفيذ خرسانة الفيلا ،أخذ يدور كثور هائج ويقسم بالله، ثم بالطلاق، ثم برب العزة دون أن يعرف ماذا سيفعل لأخيه ولا وسيلة الانتقام المتاحة له، وعندما جاء المقاول طلب منه أن يبني سلماً خشبياً، حتى ينزل من عليه وقد كان، فقد بنى المقاول سلماً خشبياً والناس تستغرب وتضحك من جنون العائلة المتوارث ومن خلاله قام بتنزيل متعلقاته وفي المساء ذهب للمحامي وطلب منه رفع قضية على أخيه يتهمه بالاستيلاء على الميراث الشرعي، وفي نفس الوقت تقدم أخوه ببلاغ في نقطة وردان يتهم أخاه بسرقة مشغولات ذهبية تخص السيدة زوجته وزوجة ابنه، عندما علم الدكتور تقدم ببلاغ لمأمور المركز يتهم أخاه بسرقة مبالغ مالية، وظلت القضايا مفتوحة حتى تم الحكم فيها بحبس الدكتور ثلاث سنوات في قضية سرقة

،وحبس أخيه خمس سنوات في قضية الميراث، صدم الدكتور من الحكم، وأصيب بهلع كما أن أخاه أيضا كاد يجن من الحكم ثم انتزاع الميراث المستقر له أصابه بالجنون لذلك عندما تدخل رجل من العائلة وجد استجابة لم يكن يتوقعها من ناس يعرف عنها التعنت وتم الصلح بسرعة فائقة.

أهل البلدة، اختلقوا أساطير حول ثروته، من قال: مليار، ومن قال: أن رئيس ألمانيا وضع في يده شيكا على بياض يسحب به أي مبالغ مالية، ومن قال: أنه رأى صندوقا محزما فلوسا. فلاح اختصر الأمر وقال: والله الدنيا عطيته ابن البحراوي من وسع.

ذهبت إليه عصرا وجدته يمسك خرطوم الماء ويروي الحديقة المحيطة بالبيت، وقد ارتدي جلباباً أبيض، وبدا هرِما ،ورغم ذلك كان جلد وجهه أحمر مشدودا، وأسنانه بيضاء، مستوية، وأعتقد أنها صناعية، قلت أستظرف، مساء الخير يا مستر، قال سلام ورحمة الله. أخذني بالحضن، كأنه يعرفني معرفة حميمة، وترك الخرطوم يتدفق بالماء داخل الأحواض واِصطَحَبَني للفراندا المكان المفضل له في الصيف حيث يفترشها بسجادة غالية الثمن يضع عليها عدة شلت، ومساند، حيث جلست، وعرفت بعد ذلك أن له عادة غريبة حيث يتعمد أن ينام على فخذ ماري في الفراندا المكشوفة للعامة مما أثار استياء أهل القرية، بل أن شيخ الجامع عندما التفت ليلقي السلام وراءه يضع رأسه على فخذها وسيقانها عارية اضطرب وتعثر وكاد يسقط على وجهه. في صلاة الجمعة كان صوت الخطيب يجلجل بالحديث عن حكم الديوث في الإسلام الذي لا يغار على أهل بيته، ومن يفشى الفاحشة، ويصف بدقة ممارسات د .إبراهيم في القرية، لذلك أحس بالحرج وقد خرج من المسجد قبل انتهاء الخطبة ودون أن يصلى، فخرج في أثره الموجودون من عائلته، ومن أول خروجهم حتى انتهاء الصلاة لم تكن تسمع سوى سب الدين، وأقذر الشتائم، لدرجة أنه أفسد الصلاة لأن الناس لم تكن تركز،ولا تعرف هل تضحك أم تخشع وتسمع الخطبة وتصلي، ولولا تدخل العقلاء ما خرج الخطيب من المسجد، ثم بدأت

الإشاعات تتناثر حوله حتى كف عن الصلاة في المسجد، والخروج في أضيق الأحوال في المناسبات الاجتماعية، وكان يصله من أقربائه كل كلمة، لأن بيته عبارة عن سامر لكل من هب ودب، يقعدون ليشربوا الشاي والأكل والتسالي .. كوتشينة ودومينو، لذلك كان يزداد عنادا ،ويحطم كل تقليد، مثلاً أقام حفلة لعيد ميلاد ماري في حديقة المنزل وأخذ يطلق الألعاب النارية، ويرقص معها وهي ترتدي فستاناً فاضحاً، وهو بجلباب فلاحي ويرقص بالعصا وكأجدعها فلاح قراري، وكان يشرب الويسكي علناً دون أن يبالي بسخط عائلته حتى لم يعد أحد يذهب لزيارته، وكان يتعمد أن يضع رأسه على فخذ ماري وهو يرتدي الشورت ويضع قدما على قدم عندما يرى من بعيد واحدا من منتقديه. كان أنيقا وراقياً، متقلب المشاعر، عندما يغضب يصبح كالعاصفة، يظل يزعق، ويقوم ويقعد، ولا يهدأ له بال حتى يتصالح مع غريمه، ولا يهم بعد ذلك من المخطئ، بداخله طفل صغير ولا أعرف كيف عاش هذا الرجل في بلاد العقل والمنطق، والدقة، والعنف المباشر، كيف استطاع أن يقمع روحه النزقة، وإسرافه العاطفي، كانت روحه روح فنان أكثر من كونه محاسباً وتجلى ذلك في آدائه المسرحي ومبالغاته الهستيرية، في يوم كنا على حافة البحر، نستمتع بجو الخريف المنعش، وقال: لما غامرت وقدمت طلب للسفارة للهجرة وكنت قد تعلمت الألمانية كتابة وقراءة، وثقافة، ولحسن الحظ تم قبول طلبي، في البداية كنت محملاً بالخوف والقلق، والخجل وكل مؤهلاتي مركزة في الورق، مع الوقت بدأت أثق في النظام القانوني، أثق في أنني سأحصل على حقوقي كاملة لذلك أبدعت وتألقت، كنت لا أنام وأنجز أعمالا تصعب حتى على الألمان أنفسهم لذلك كنت أرتقي بسرعة، محدش يقول لي الغرب عنصري والكلام ده هو عنصري تجاهك أنت، لأنه ليس مسئول عنك ولا عن تحديثك وانتشالك من الخراء، تريد أن تتقدم، أتفضل لن يقف في طريقك أحد، أعرف القانون جيدا ومر، ولكن عندما عدت للبلدة بدأ يتسرب لي الخوف، الخوف من جلافة الناس وعصف السلطة، وعبث الصدفة والقلق، والحسد، والثرثرة والنميمة، والنفاق، مرة "جلنف"

متبطل طلب مني مبلغا كبيرا من المال، خفت منه ولذلك تحايلت حتى أمر، فوعدته بجلب المال له في المساء، وقلت له: أنتظرك لا تتأخر عندما عدت للبيت حكيت ما جرى لماري، وقلت لها يا ماري، أنا خائف يؤذيني، ده بغل، قالت حفظ لي الكلمات التي تريد قولها له وأنا أقابله، أخذت أحفظ فيها طوال اليوم ما أريد وتفننت في اختيار الكلمات القاسية، وعندما خرجت إليه كنت أقف وأسمع ماري وهي تكلمه بتعالٍ وقسوة وهو منكس الرأس، يتهته في الكلام ويحاول أن يمشي ولكن لا يعرف كيف وعندما دخلت وأغلقت الباب ظل فترة ساهماً وتذكر أنه يجب أن يمشي، ثم لم أره بعد ذلك أبدا.

جلست على شلتة فغاصت بي ،فحدث مثلما يحدث لي كل مرة عندما أجلس على بساط ناعم أو كرسي جلدي، أو سرير بمرتبة قطن، حيث يتسلل لي تعب لا أعرف من أين جاء، يتسلل إلي ويغمرني، وجع قاهر في كل قطعة من جسمي، ألم وحزن وتستبد بى رغبة عارمة في الاستغراق في النوم، أخذ يرحب بي، وأنا أبذل جهدا خارقا لكي أنتبه، عيني تكاد تغلق وذهني مشوش حتى استأذنت وخرجت وضعت خرطوم الماء على رأسي ثم نفضت الماء بقوة وعدت أعتذر له عن قلة ذوقي، لكنه كان بسيطاً وطلب مني أن أمدد قدمي حتى لا أقيد نفسي، ثم جاءت ماري، وقال بعربية مكسرة تثير الضحك: تشرب عصير برتقال، أم تشرب قهوة مثل الدكتور، قلت مثل الدكتور، ابتسمت ابتسامة مرحبة وتركتنا، كانت ماري ذات تكوين بدني قوي، وجلد وجهها مشدود وشعرها الأبيض قصير، ولها نظرات مقتحمة، كانت تلبس بلوزة بيضاء وسوتيانا أسود، ويبدو ثديها ممسوحاً استغربت كيف توافق هذه الجرمة أن تتزوج هذا الضئيل الحجم؟ وكيف استطاع السيطرة عليها.

لدي مشكلة لا أعرف حلا لها، أنني أعيش في الداخل، أمسح المحيط الذي أكون فيه بعيني وأحلل، أصدر أحكاما وأرسم صورا متخيلة، بعيدة عن الواقع، أحيانا أرسم صورة كاريكاتورية مضحكة لشخص جاد يتحدث في قضية مهمة، وأبتسم في بداية الأمر ثم محاولاً

ضبط ذاتي ثم انفجر في الضحك وأبرر ذلك بحجج متهافتة ولذلك يفوتني كثير من الكلام ،نظراتي جامدة، فقط أبحلق في من يتحدث وكأنني شديد التركيز، ولكن أكون في مكان آخر، وهذا ما حدث مع الدكتور حيث كنت أحلل أفكاره التي بدت لي سطحية وشعبية، وكأنه لم يخرج من البلدة، ولم يسافر للعالم المتحضر، أفكار عتيقة مثيرة للسخرية، حتى التقطت أُذني جملة "أنا هوصلك للعالمية "جملة تشبه قرصة حية، جعلتنيً أركز فيما يقول، نظرتي الصامتة المستجدة، جعلته يعود ليقول: أيوه، أنا قريت المجموعة القصصية " جسد في ظل " وأنت كاتب عظيم، وتستحق أعمالك أن يقرأها العالم، قلت: هو أنت قريت المجموعة، قال: أمال أنا بتكلم على إيه؟ وأعجبتك، قال: وكان المصحف قريب منه، وضع يده على الكتاب وقال: وحق هذا الكتاب أنت كاتب عالمي، ثم ردد ورب الكعبة لو أنت في بلد ثانية لكان حالك غير كده خالص! قلت: يا الله، وأخذ يتكلم عن قصص المجموعة، "رامة والتنين" و"عايدة يوسف"، و"جسد في ظل "كاد قلبي أن يختنق بالفرحة ولم أستطع أن أتمالك مشاعري، فمسحت دمعا يتجمع وشوشت أفكاري، ولم أعد أسمع أو أرى، فقط ضرباً من الخيالات، وبعد مده ترك لي الكلام فقلت أن حلمي أن أصهر الحلم بالواقع بالأسطورة وأكتب نصا يتجاوز الأزمنة، وأن المثقف الحقيقي لا يجب أن يرتبط بالسلطة مهما هُمش، أو تم إقصاؤه، وقلت: إن سعادتي ليست في كوني من خلال الترجمة أصبح مشهوراً ولكن أتحرق شوقاً لقراءة الناس هذه النصوص، فأنا لا أكتب لنفسي، أن أكتب لقاري نوعي ما، أعرفه، قال: أن بمجرد أن تقرأ دار النشر ويتم الموافقة على الترجمة، ستنتقل الى عالم أخر، قلت يا مسهل، ظللنا فترة طويلة نتحدث عن الأحوال في البلدة، الى أن أحسست أن الدكتور أرهق؛ فتركته بعد أن أخذت منه وعداً بترجمة المجموعة للألمانية ونشرها من خلال دار شهيرة.

عدت للبيت وأنا أرسم سيناريوهات، وكتابات وعوالم، ونشاطات، وانتقال في الجغرافيا الواسعة من بلد لأخر، من مدينة لآخري، من متحف الى دار سينما الى بحار

ومحيطات، وأوبرا، وقاعات موسيقية ومسرحيات، ورقص شرقي وغربي، وغناء شعبي وإنشاد صوفي، ولقاءات ومقاهي، ونساء فاتنات ساحرات، ولوحات فنية، وكتب وترجمات، مما جعلني أتقلب طوال الليل على الفراش.

عندما ذهبت للعمل كانت منهكاً، ولم أكن قادراً على حمل الفأس، وكان الرفاق، يدخلون على المساحة المخصصة لي للعزيق، كي أساويهم ولا ينظر لي صاحب العمل نظرة سيئة، على اعتبار أني متعلم ويدي ناعمة، النهار كان طويلاً وكئيباً وأنا أريد أن أختلي بنفسي وأسافر بالحلم من خلال تخيلاتي، وضاقت نفسي بالعمل وبالإرهاق البدني، الغير إنساني، وكانت أحلامي تتراوح حول تغير الحال مستقبلاً، وأن أعيش منعما بفضل ترجمة نصوصي، خاصة أن المارك عملة قوية، وأي مبلغ سيوفي بالغرض، ما بين انتشار كتبي في العالم كله حتى حصولي على جائزة نوبل للآداب وإقامة علاقات غرامية بما فيهم السيدة ماري الذي كنت أحلم بها أحلام شهوانية رهيبة. قبلات محمومة، وسعار جنسي مريع جعلت أيامى تمّر ببطء قاتل، وليل سهد وقلق وأمل في غدٍ لا يأتي ببشارة تريح، وعندما أستيقظ، أكون مشوشاً تائها، ضيق الصدر، أقوم بتأويل أي كلام بشكل سيء، وأقابل أي فعل بالنفور والغلظة، وبدأت أفقد الأصدقاء واحد وراء الأخر، لذلك كانت صحبة د. إبراهيم، عزاءً لي خاصة أن لا أصدقاء لدي تفهم في الأدب والثقافة ،فكل أقراني لهم اهتمامات مختلفة تماماً وينظرون للأدب باستهجان وسخرية مره كانوا في بيتي وطلبت منهم أن يستمعوا لي وكنت قد كتبت قصة وسعيد بها حد النشوة، ورجوتهم أن ينصتوا قليلاً؛ لأني سأقرأ عليهم قصة كتبتها، وكان يوم أسودَ لدرجة أنني مزقت القصة الى ألف قطعة ورميتها بعد خروجهم من البيت، صحيح أنني عدت وكتبتها مرة ثانية، وكانت أنضج وأكثر قوة، ولكن كلما تذكرت ما حدث أشعر بوجود دمل داخلي ينبت فجأة فمن أول العنوان قال صديق :إيه العائد؟ أنت شاغل نفسك بخزعبلات ولا بتجيب ولا بتودي، آخر تجاهل الأمر وكأني لا أقرأ وظل مع أخر يثرثران، والأخر يقول حاسب فيه

غلط هنا وأثناء القراءة وصلت لحالة قرف لا مثيل لها وتساءلت لماذا هذه الكراهية من الكتابة؟ أو من كوني كاتباً؟ ماذا كان سيكون لو كنت متحققاً ؟ لذلك في نهاية القصة قلت لهم وأنا مجروح فعلا ويائس، على فكرة بقي، د. إبراهيم بيترجم مجموعة" جسد في ظل "للألمانية، أخذوا يضحكون ويتهكمون منيّ والسخرية من آل البحراوي يعددون الفشارين والنصابين منهم ، يا راجل، حد يصدق إبراهيم البحراوي، ده راجل فشار زي أهله، ولذلك كنت حريصاً على عدم فعل أي شيء يثير غضبه، فهناك تقارب روحي وثقافي يجمعنا.

في المساء ذهبت بعد العشاء فوجدت الفيلا مغلقة ومظلمة، عدت مكتئباً، وفي اليوم التالي كان موجودا، واستقبلني استقبالا جيدا، وسألته عن عدم وجوده أمس، ضحك وقال: ناس دماغها فارغ، مفيش خالص، يا سيدي دعوني أمس للاجتماع مع العائلة، ولأن العين عليّ وكله يقول د. إبراهيم بيتكبر علينا قلت: أروح وأهي ليلة تضيع من العمر في العبث الجميل، رحت لقيت اقتراح تقدم بيه واحد من العائلة يطالب فيه بالتواصل مع جميع بطون عائلة البحراوي، في كل محافظات مصر، قلت يعني إيه في كل محافظات مصر، قال: العائلة، مش فاهم، قال: أنا تواصلت مع أولاد عمي في المنوفية والمنصورة والشرقية والفيوم وإسكندرية وحصرنا الأسماء لقينا تعدادنا ٣ مليون رأس، ضحكت طبعاً من الكلام الخائب، وقلت: على فرض أن كلامك صحيح وهو مش صحيح ولا حاجة، أنت عايزنا نتواصل مع ٣ مليون في كل محافظات مصر، هز رأسه وقال: آه، قلت طيب وليه؟ إيه العبقرية في أني كل يوم طالع بباص للتعزية، قطع كلامي وقال: بعيد عنك يا دكتور لفظك سعدك، قلت: يا سيدي كل الناس بتموت وبتفرح، وقف وقال: أهلنا عزوة لنا، كل اسم البحراوي في القطر كله يخصنا، الغرض أنا لو تفرغت كامل مش تلاحق على المناسبات، ثم هو فيه تواصل بينا إحنا، يعني عبد البر زعلان من أبو إسماعيل، حسين واخد جنب من محمود الخ، ثم يا أخي الناس على قد حالها، يدوب بالحيلة، قال: المليان يكب على الفاضي يا دكتور، أول ما سمعت

الكلمة تقول ثعبان قرصني، قمت وقلت أنا بنام بدري .. عن إذنكم، ناس ترجع لربنا عقلها سليم صاغ، وناس ترجع بعقل سوء استخدام، وناس عندها أعطال، ودول نازلين من غير عقل وهيرجعوا من غير عقل، ضحكنا وأخذنا نتسامر حتى وقت متأخر، حاولت بطرق مختلفة أن أدخل في موضوع الترجمة، أو أقوم بتلميح بسيط ولكن لم أستطع كانت به رغبة في الثرثرة، عن حياته في ألمانيا وإنجازاته ثم ينسي ويتكلم بالألمانية، أضحك ؛فيعود للعربي ثم يحكي لي حكايات عن البلد وناسها وكيف كانوا وكيف تحولوا بقدرة قادر الى أصحاب طين وعمارات وفيلات ،وتسأل عن كيف لموظف عام يتقاضى ملاليم أن يعيش بهذا الثراء، ويبني قصرا بهذه الفخامة ،قلت وهل تعلم أن هناك موظفون لديهم خدم رغم مرتباتهم المحدودة، استغرب من هذه الوقاحة، قلت: أن الموظفين خصصوا الإدارات والمنشأة أملاك الدولة لصالحهم وصالح أولادهم، قال: البناء مادام خطأ مادام مغشوشا، لا فائدة أبدا ،فهو في النهاية سيسقط، البناء قديم منذ" محمد علي "وراسخ، ولا تبالي بتجديدات ناصر وشركائه، فالتجديد في الأشياء الثانوية، لكن ما بني على باطل فلن يصلح أبدا، لذلك من فشل الى فشلٍ ومن هزيمة لهزيمة، ومن سقوط لسقوط أفدح وألعن، ثم صمت قليلاً، ثم قال طبعاً من يعطي حرية وديمقراطية وحقوق إنسان بعد كل هذا التخريب انتحاري، ونهايته القتل لأن الدولة يقوم عليها مجرد مافيا وقبضايات وبلطجية، ولن يتركوا هذه الدولة إلا عندما تكون مشتعلة بالحرائق. والقعدة فيها خسارة، أنا عايز أقول لك حاجة، أنت لا تعرف شيئا مما يدور في بلدك ولكن هناك في الغرب أسيادهم يعرفون كل شيء، هؤلاء مجرد عملاء لا قيمة لهم، لكن كل شيء عن البلد معروف ومتاح من خلال تقارير الصحف ومتابعاتها، إحنا أساسا معندناش مقومات دولة، كنت غاضبا من هذا الكلام وكان لدي رغبة للرد بقوة، أكلمه فيها عن تاريخ مصر خاصة أنني كنت قد انتهيت من قراءة موسوعة الحضارة المصرية لسليم حسن ؛وهالني هذا التقدم والرقي في كل مجالات المعرفة، ولكن قمعت نفسي كالعادة وانتظرت حتى انتهي، ثم انتقل الى مكان أخر عن

التعليم في ألمانيا الخ، ولم يذكر مرة واحدة في أحاديثنا أي شيء يخص مشروع الترجمة، ظللت فترة أتردد عليه، وأنا أحلم باليوم الذي سيبدأ فيه ترجمة القصص، تجاهل الأمر تماماً وكأنه كان سكراناً ،وكرامتي منعتني من مفاتحته، وأصبح عملي بعد العصر الدكتور، وأخذت أرفض أي ساعات إضافية، أو مقاولة بعد العصر حتى لا يمر يوم بدون صحبة الدكتور، لم يعترض أخوتي على الوقت الضائع مع الدكتور فمجرد صداقة الدكتور تشريف، ما بعده تشريف والحقيقة الدكتور عرفني على شخصيات من كل طبقات المجتمع، رغم أنني لم أكن أحس بالضعة، بالعكس كنت أراهم لا أهميه لهم ولولا الأمل (الشرموط)، الذي شبكني به الدكتور ما كنت أوليته أي اهتمام، رغم أنني بعد التعرف عليه استمتعت بصحبته فقد كان فكها وجميلا وحكاءً نادرا وابن نكتة، ويضمر احتقارا رهيبا للعوام من الناس، ويراهم مجرد دواب تسير على الأرض، لن يحاسبهم الله على أفعالهم الشريرة، أو الخيرة، كنت أشعر بغصة إنني أجاريه وأضحك علn أهل بلدي، كنت الوحيد الذي يسير معه وينتقل من حكاية لحدوتة ثم يظل ساعات طويلة يتكلم عن الموسيقي الكلاسيكية، ويحلل ويشرح لي الفروق الجوهرية بين السيمفونية والكونشرتو والسوناتا والمقطوعة، وعرفني بأساطين الفن شوبان وبتهوفن، فيفالدي، ورخمانينوف، وباخ،وبيرليوز، موتسارت، نيكولو باغانيني، كورساكوف، فيردي، روسيني.

أدخلني في رحاب البلوز والجاز، في البداية كنت أختنق اختناقا، من الموسيقى المزعجة وكنت أسمع شرحه للموسيقى الكلاسيكي على مضض، ولكن شغفت بسرعة بالبلوز والجاز، ولكن مع الوقت بدأت أنصت بمحبة وعندما كنت أفتح الراديو على البرنامج الثاني وأنصت لسيمفونية، أو كونشرتو، أجد استهجانا من أخوتي، من هذه الموسيقى المزعجة، أمي كانت تقول لي" اخفض صوت المحروق دماغي وجعاني من الخبط والرزع ،الله يوجع دماغهم البُعدة"، ولكن عندما أضع شريطا لبحر أبو جريشة كانت تبكي من صوت بحر خاصة أغنيته

"كفاية فراق كفاية أنا مشتاق كثير يا حبيبي في دربي أنا مشتاق والزمن فراق يا حبيبي يا حبيبي .

عندما كنا نخرج للسير في الحقول، كان أهل البلدة تعامله باحترام ومهابة، وهو يقابلهم بالأحضان وكأنه يخص الذي يقابله وحده بالمحبة والاحترام، كان ذا مشاعر متوقدة، يحتضن الناس بفرح وحب، حب حقيقي، ومن ناحية أخرى لا يمل السخرية منهم ،والحط من شأنهم وعمل مقالب لا تنتهي، لدرجة أنه في مرة ذهب لشراء فول وطعمية من عبد العزيز أبو شامية وهو رجل "على نياته"، وعندما وقف ورأى أدوات القلي والقدرة غير نظيفة والزيت عفن وأسود، فكر قليلاً ثم نادى عبد العزيز وأخذه على جانب وقال له في جدية، يا عبد العزيز الناس بتتقدم ولازم تستفيد من التطور اللي في العالم، يعني تصدق في ألمانيا يخلطوا عجينة الطعمية ب أيه، قال له: ب أيه يا دكتور، قال له ببرسيم، يطلع طعمية كده، سكت عبدالعزيز شوي وأطلق ضحكة غريبة شوي كانت تبدأ بـ خيخخخخخ وتصعد حتى تصل الى أخر مداه، الدكتور لم يضحك وتصنع الغضب وقال له بتضحك على إيه يا عبد العزيز، قال يعني الألمان بياكلوا برسيم، قال آه عشان كده متقدمين، لا حياء في العلم يا عبدالعزيز، اعمل الطعمية بالبرسيم ،وأنا أول واحد يأخذ منك، فكر عبدالعزيز قليلاً، ثم قال: أوع تكون بتضحك عليه يا دكتور؟! قال: والله أبدا، أنا بقول لك أنا اللي هاخد أول واحد، لم يكذب خبر عبد العزيز وسحب حزمة برسيم ،ووضعها في الحجر وأضاف الفول والبهارات وشغل الحجر، العجينة خرجت خضراء لوز، سحبها وخرج بها أمام طاسة القلى، وبدأ في القلي، الطعمية كانت خضراء وشكلها رائع، والدكتور منتظر والزبائن، وعندما وضع الطعمية في القرطاس ولسه بيناولها له خالتك محفوظة قالت له: "تصدق أنت معرص يا عبعزيز، وربنا أنت راجل معرص في أصل وشك" قال لها: ليه يا أم سعيد، قالت: يا خويا بقالنا سنين وأيام وإحنا ناخد منك طعمية عمرك ما حطيت حصوة ملح وعملت طعمية بالخضرة اللي ريحتها ترد

الروح، الدكتور تدخل وقال: هدية مني يا أم سعيد وناولها القرطاس، لا يا خويا بالهناء والشفاء، مش قصدي والله، مسكت القرطاس وشمته، أهي دي طعمية بحق ربنا، خد يا خويا، عبد العزيز قال: خلاص يا حاجة من هنا وجاي الطعمية هتبقى بالخضرة دي، ومع الأيام الزبائن زادت وبقي عنده زحام شديد وخرجت زوجته وولداه يساعدانه ثم جلب مساعد، وكان يستغل أصدقاء أولاده في المدرسة في تنظيف القدرة، أو تنزيل شكائر الفول، أو تنظيف قصعة القلي، الى أن دخل زبون بطريق الصدفة ووجد عبد العزيز يقطع في حزم البرسيم ويرميها في حجر الطحن، وكانت فضيحة سودة ونال شتائمَ وكل ما حد يعرف يجي جري، وهو هرب ووقف فوق السطح، وكل شوية يقول" الدكتور هو اللي قال لي"، لحد ما واحد راح للدكتور وجابه، ووقف ينظر مرة للحضور ومرة لعبد العزيز دون أن ينطق وعندما نطق في النهاية، قال: عيب يا عبد العزيز توكل أهلك وناسك برسيم، زاد جنونا وأخذ يحلف بالطلاق والمصحف، الراجل الدكتور ده ضلالي ولا دكتور ولا أي حاجة وانتهى الموضوع بإغلاق المحل، وظل فترة بدون عمل الى أن تفتقت قريحته عن عمل صابون الغسيل في البيت ويبيع لربات البيوت الى أن فتح الله عليه بالعمل كمساريا في هيئة النقل العام وترك البلدة وعاش فترة في جزيرة الوراق.وعندما كنا نصل للبحر كان يستنشق الهواء بقوة وفرح حقيقي، وينظر في لهفة للحقول الممتدة، وكل مرة كنا نجلس على الرمل، والدكتور" يكوع "ونحكي في شتى المواضيع، وكل مرة كان أحد من الجيران يأتي بالعدة والشاي وعلى الراكية يعمل كباية شاي حبر، وهو يشرب ويقول الله، كباية شاي لا مثيل لها، وسامر الفلاحين في زمن فات وعوالم تهدمت وناس قيمة، وناس كلاب سيجة، وبمناسبة السيجة، انخرط لفترة طويلة في لعب السيجة وكان أهل البلدة يتصورون أنه صيدة، ولكن كان يقوم بهزيمتهم جميعاً والكل يهلل والله عبقري يا دكتور، وفي يوم وصلنا متأخرا بسبب لقائه بصديق طفولة له، وظل يحكي ويزيد وأنا "هطرشق" من الغيظ، وعندما انتهى كانت الشمس على وشك المغيب، نزلنا كالعادة، وجلسنا وبدلا من أن

نحكي، اعتدل ،وربّع وقال" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، وبدأ في تلاوة سورة " طه " وأخذ يرتل ترتيلا عذبا، عميقا، وكلما تقدم في التلاوة أندهش من نقاء الصوت، ولكن كان هناك شيء، وكأني سمعت هذا الصوت قبل ذلك حتى انتهي ولأني دائما لا أستطيع أن أكبح رغبتي في التعبير عن نفسي قلت: بعد مديح مبالغ فيه لصوته: ولكنك متأثر بصوت الشيخ محمد صديق المنشاوي، قال: صحيح أنا أحب صوت الشيخ المنشاوي، ومحمد رفعت وكل اسطوانات تخص قراءة الشيخ في منزلي وده يمكن بسبب كون الشيخ يعبر بصوته عن الاغتراب الروحي للإنسان في ظل عالم مادي واستهلاكي بشع ،يشيء الإنسان ويستعبده، ثم أخذ يتكلم عن صوت الشيخ، وكأنه متخصص، وعندما ذهبت له بعد ذلك أخرج تسجيلات الشيخ ،ووضع تسجيلا نادرا من الجامع الأموي بدمشق وظللنا نستمع حتى انتهى من التلاوة. وفي يوم ذهبت وجدت تجمعاً كبيراً من أهل الدكتور، سألت أول رجل واقف فقال لي إن الدكتور مريض، دخلت سلمت وجلست قريباً منه وأنا حزين عليه وعلى حظي التعس، كان شاحباً ويتنفس بصعوبة وقد تم وضع كمامة تنفس على وجهه، ثم ظللت فترة أعوده وبصدري ضيق، بعد ذلك توقفت عن زيارته فترة، كنت حانقاً عليه، فقد كنت أعتمد عليه بشكل أساسي في إخراجي من الجب، ولكن ما باليد حيلة وعندما ذهبت وجدت عددا قليلاً من الأكثر قرباً منه، دخلت وجدته يتعافى، ولكن كان مازال غير قادر على الجلوس، أشار لي فذهبت وجلست جواره على السرير، وأخذ يتكلم ولكن لم أكن أسمع شيئا؛ بسبب أصوات الحضور من أقربائه، فقام مستندا على يدي وقال" عبونيس.. "خد الجماعة واقعدوا بره أنا تعبان وعايز أكلم الراجل في موضوع. انسحب الحضور، فعاد الى رقدته وقال لي بصوتٍ واهنٍ متحشرجٍ، تعرف "كافكا "قلت له: نعم، ومن لا يعرف "كافكا"، كلنا خرجنا من معطفه، بشكل أو بآخر، هز رأسه وقال: لدي كنز يخصه، قلت أي كنز، قال، وأشار لماري وكلمها باللغة الألمانية، فذهبت وأحضرت ملفاً ناولني إياه فوجدته ملفا مصورا مكتوبا بلغة لا أعرفها، قلت : ما هذا، قال:

هذا الملف هو قضية كافكا، قلت أي قضية، لم أكن متعمقاً في حياة كافكا، وكل الذي قرأته هو مجموعة أعماله القصصية الصادرة عن هيئة قصور الثقافة بترجمة الدسوقي فهمي، هز رأسه وقال في نفاد صبر : في يوم ذهبت ممثلاً للمؤسسة الذي أعمل لصالحها في الجانب القانوني في تشيكوسلوفاكيا، أنت تعلم أن المؤسسة الذي أعمل بها دولية، ولها مصالح متشابكة في العالم كله، لم أكن أعلم أي شيء عن ما يقول، أو عمله، وأحسست أن الموضوع عبث في عبث، كان ضجراً ومتعباً وكل فترة يتوقف عن الكلام أيضا وقال، القضية التي أعمل بها غاية في التعقيد وسيترتب عليها تعويضات هائلة من خلال القضاء الدولي حيث كنا نمثل شركة استيراد متخصصة في البترول تعاقدت مع حكومة التشيك لتوريد غاز طبيعي من أثيوبيا بسعر محدد اتضح بعد ذلك أن السعر مبالغ فيه بشكل رهيب وأنهم يحصلون على البترول من خلال التعاقد مع حكومة أثيوبيا بسعر ضعيف لا يذكر، وكنا نريد أن ننهي القضية بسرعة ومثالية، لصالح العملاء، ولصالح حكومة أثيوبيا التي تريد التكتم على الموضوع حتى لا يظهر على سطح الأحداث ويتسرب للداخل فتجد الحكومة نفسها في مواجهة مع الرأي العام ،صحيح أن النظام يضرب طوقا من حديد على الشعب ولا أحد يستطيع أن يرفع صوته، وإلا تم التخلص منه فوراً سواء بإخفائه فوراً، أو برصاصة والفاعل مجهول، أو لو حظه حسن يتم رميه في المعتقل، تبقى المشكلة مع التشيك، وهم يريدون إلغاء التعاقد وإبرام تعاقد جديد وتعويضات مناسبة، صحيح أن التعاقد تم من خلال وزير التجارة والبترول ويعلم به رئيس الدولة ولكنها مجرد محاولة ابتزاز فقط، ونحن نعلم ذلك ولكن في يدهم أوراق حيث تم تسريب جزء من الملف من خلال صحيفة معارضة لمحررها المعروف بعلاقته بالنظام وأجهزة الأمن ،لذلك كان الخوف من سلسلة تحقيقات متكررة يفضح الشركة وتسوء أسهمها في السوق، لذلك كان الجانب القانوني جزءًا من عملية التفاوض رغم علمنا أن الأوراق القانونية لن تحسم أي شيء ولكن فقط مجرد أوراق ، كعملية ضغط، المهم، دخلت الأرشيف الوطني لمدينة" براغ"، وأنا أبحث محموماً عن ملفات

تخص القضايا التي أعمل عليها، فخرج في يدي ملف مكتوب عليه "محاكمة كافكا" كنت قد قرأت مجمل أعماله بالألمانية، بتحريض من صديق لي، ولفضولي الشديد قمت بتصوير الملف ووضعته في الحقيبة، وعندما انتهيت من مهمتي، عدت الى ألمانيا، واضعاً خطة لدراسة الملف، ثم نسيت الملف تماماً وعندما عدت للبلدة وأنا أفرغ الحقائب وجدت الملف يقفز مرة ثانية، سعدت أيما سعادة، فهذه فترة تفرغي، خاصة أنني أعاني من الفراغ، فمن مثلنا من تعود علn العمل الدؤوب طوال أربعين عاما من الصعب عليه أن يجلس طول النهار ينكش في أسنانه، لذلك قلت وجدت القضية التي سأقضي وقت فراغي فيه، المهم أخرجت الملف وقرأته بسرعة وجدته في غاية الغرابة، أولاً القضية رفعت عليه بعد وفاته، عندما بدأ ماكس برود في نشر أعمال كافكا، ثانيا الذي رفع القضية حصر القضية في قصة" الحشرة الهائلة"، وكان يري أن كافكا استقي قصة" الحشرة الهائلة "من مسار حياتهم" وهو يريد تعويضاً مناسباً لكونه أساء استخدام الوقائع وحرفها وخلط الأمور بشكل مزعج، وصمم على سرد قصة حياته مع السيد كافكا وقد سمحت له المحكمة بسرد ما يراه يدعم قضيته :

مرافعة مستر سامسا أمام المحكمة باختصار

كان السيد كافكا يقطن في شارعنا ٨٦٧ في الواجهة ونحن كنا نقطن بالبيت رقم ٧٤ في البناية قبل الأخيرة على اليمين، كان البيت ضمن ممتلكات والده سيد هرمان كافكا وقد كنت معجباً بهذا الرجل ليس لكونه ثريا ولكن لأنه مكافح، بدأ تجارته من الصفر فقد كان أبوه" جاكوب " يعتاش على ذبح الشحيطة* ولأن اليهود بخلاء، وفقراء، فالذبح كان نادرا لذلك كانوا يعيشون في فقر مدقع ولكن" هرمان "كان لديه طموح وثقة، وذكاء لذلك استطاع أن يكون ثروة ضخمة من التجارة، ويتزوج سيدة فاتنة من طبقة أعلى منه وقد تلقت تعليماً يفوقه، ولكنه لم يكن يبالي، لأنه كانت لديه كبرياء وعظمة، البعض يعتبرها غطرسة، ولكن ما فائدة المال يا سادة، إلا أنه وقود تدفع الناس للصعود الاجتماعي، وستار حديدي يحمي من الأوغاد الطفيليين، لقد

علمت، أنه يقوم بدفع رشوة للضباط والعساكر في مركز الشرطة، ليقوموا بخدمات جيدة لصالحه، مثل تحصيل المال من هي أحكام ذبح الطيور والحيوانات الثديية في اليهودية، حيث يذبح الحيوان بقطع عنقه بسكين حادة لإخراج الدم متعثرين، هذا حقه يا سادة هل من العدل أن تضيع أمواله عند حفنة أوغاد ويجلس هكذا دون أن يفعل شيئا، إنه فعل الصواب، ثم ماذا عن المتسكعين في الأحياء، المفلسين، والبلطجية، والسراق، ومدمني المخدرات، إنه رجل مسالم، لا يستطيع أن يتعامل مع كل هؤلاء الأوغاد، ولكن المال يفعل، أما بالنسبة للخيلاء وهذه من صفاته الملتصقة به هل مطلوب منه أن يسير منحنيا، أن يكلم الأجراء وهو يخفض رأسه، واسم المسيح كانوا سحقوه، العمال يا سادة نمل يقرض أي مناطق ضعف في البناية ،أعلم يا سيدي أنني رجل ثرثار وقد خرجت عن الموضع، ولكن ماذا يفعل رجل عجوز مثلي غير معتاد على الاختصار نعم سأدخل بوضوح وفي الصميم مباشر، مشكلتي لم تكن مع الأب أبدا فقد كان عندما يمر عليّ كان يبتسم بلطف ويقول: صباح الخير سيد سامسا، ويركب السيارة وينطلق، كنت أتمنى أن ينادي عليّ ويحملني معه في سيارته، خاصة أنه يمر من أمام المؤسسة التي أعمل بها ولكن لا عليه، هو يعلم أنني ثرثار ورجال الأعمال يقضون كل وقتهم في تدبير أحوالهم، ومشاريعهم. أما فرانز فعندما كان صبياً وشابا كان مثالياً، أنيقاً، ودوداً، طيباً، لا تفلت من فمه كلمة بذيئة، صموتاً ولكن لديه رزانة في التفكير وعمق وراء الخجل وقلة الكلام التي يتميز بها، كان يمر علينا وهو يذهب الى مدرسة ابتدائية ألمانية للبنين في سوق اللحوم، بعد شارعين وبمدرسة ثانوية أكاديمية في داخل قصر كينسكي في ساحة المدينة القديمة في براغ، كان متفوقاً في الدراسة، ولكن كان يعيش في عزلة، كنت أشفق عليه، كيف يعيش إنسان دون أن يختلط بالناس، ويذهب للبار ويصادق النساء ويشرب الخمر ويتمتع بالحياة، ولكنها اليهودية يا سادة، هذه الديانة التي تسمم البشر وتسحقهم وتجعلهم أشباه بشر، في يوم ناديته، وكنا في هذا الزمن الحياة ميسرة قليلاً ولم يكن" جريجرو "دخل المدرسة العليا، كان

في المدرسة الابتدائية والمصاريف قليلة، لذلك أقمنا عيد ميلاد فخيما لجريجور الفتي المدلل للعائلة، آه لقد كان طفلاً جميلاً، رائعا، وله طلة مدهشة، كان الكل يحبه، مستر كاف لدينا عيد ميلاد ونود تشريفك لنا نظر إلي ثم قال: لا أحب الضجيج يا سيد سامسا، ثم أن هذا سيغير من البرنامج الذي وضعته لنفسي، هل تصدق هذا سيدي، يضع برنامج لحياته ويلتزم به، وما هو البرنامج، أن يذهب للجامعة ثم يعود لينصت لموسيقى عفى عليها الزمن، لذلك قلت في عقل بالي: فليذهب للجحيم وليتعفن في عزلته ونسيت أمره حتى لفت نظري وقوفه المتكرر بالباب كل صباح، تصورت أنه ينتظر ابنتي، أقول الحق، لقد تمنيت ذلك ولكن اتضح أن الموضوع غير صحيح، نعم، نعم، لقد سألت ابنتي وانتابتها موجة ضحك هستيرية، وقالت كاف اليهودي، أنت مجنون يا أبي، من أين جاء لك هذا الخاطر الغريب؟ لقد لاحظت يا ابنتي إنه يركز نظراته تجاه بيتنا، فقالت لي: إنه يحب سيدة تدعي" ميلينا يسينيسكايا"، وكيف عرفتي ذلك بنيتي؟ قالت: لقد أثار فضولي حيث أنه كل يوم يذهب لصندوق البريد ويضع رسالة فيه، وأنت تعرف موهبتي في فك فتح الأبواب المغلقة، فتحت الصندوق وأطلعت بسرعة على الخطابات، وعرفت أنه مريض، ثم همست أنه مريض بالسل! لقد ذعرت فعلاً وأصبت بخيبة وشفقة تجاه (ك)، ومع مرور الأيام بدأت أحس برصد لقد تحول تماما، لقد كان يخيفني يا سادة لقد كان يمتلك عينين استحواذيتين مريعتين، وكأنه يريد أن يسحب منّا الحياة، لقد تحملنا الكثير من عينه البشعة وحملقته المستمرة، وكأننا كائنات تجارب تحت مجهر، كان يضطهدني، ولأننا جيران مسالمون ولم نكن نملك قوة وعضلات وشباباً، ولا نفوذ والده لذلك ذهبت سلمياً أتوسل، أقول لك هذا بالنص، توسلت له، لماذا لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي يا مستر كافكا؟ أرجوك أن تبعد عينك المفترسة عنا، ابتسم كافكا ولم يرد، كان يحتقرنا، ولا أعرف لماذا؟ نحن لا نستحق الاحتقار يا سادة، المصيبة في سرده لقصته الدودة الهائلة لم يكن نزيها، لقد سرد القصة بطريقة غاية في الغباء، لماذا لم يستشيرني؟ كلهم هكذا أصحاب الياقات

البيضاء، مغرورون، متغطرسون أوغاد، لم أكن لأرفض، فحياتنا مجرد ركام بالٍ سيجرفه نهر الزمن وسينتهي أمره، لذلك كنت سأدعم "فراو" وأقول له غير هذا، وأعد كتابة هذه الجملة، أحذف هذه الشخصية لأنها لا أهمية لها، وهكذا، كانت ستكون قصة تحفة، فريدة، ثم أضيف إليها عنصر التشويق، ثم أضع ولو ببنس" كوميدي "بدل هذه الكآبة والسقم، وبطء الأحدث الكريه، حاضر أعرف أنني ثرثار تمام، سأختصر.

كل صباح كنت أذهب للمؤسسة في مناخ بارد وقاس، كنت أجد مستر كاف ذلك اليهودي البشع يقف أمام الباب وهو يرتدي نظارة سوداء كروحة العفنة، وبدلة سوداء غالية الثمن، وينظر الى نظراته الوقحة، ساعتها كنت أصاب باليأس والكآبة، قل لي بحق المسيح ماذا يفعل رجل عجوز كتب عليه بدل من أن يستريح في فترة التقاعد أن يعود للعمل ؛لأن له ابناً عاقا تخلى عن مسئولياته تجاه أسرته ثم يجد أحدا يقف يحدق فيه وعلى محياه نظرة ساخرة وقحة، ما الذي يخرجه في هذا الوقت، والصقيع يجتاح المدينة؟ لماذا لا يدخل ويجلس جوار المدفأة ويضع ساقاً على ساقٍ ويقرأ الجريدة؟ ولكنه شخص شرير، يعذب نفسه لكي يري آلام الناس البسطاء، وهم يخرجون للعمل تحت وطأة هذا المناخ المرعب؛ لذلك عندما أعيتني الحيل قلت أحاول كسب وده وأحكي له ظروفنا التعسة، ولذلك بدل من أن أسير الى عملي مباشرة، انحرفت تجاهه وقلت صباح الخير مستر كاف، رد بود،صباح الخير سيد سامسا، جلست جواره وقلت أعرف أنك فضولي سيد كاف ولذلك لماذا لا نعقد اتفاق "جينتلمان"، أنت ترفع عينك الإبرية عنا وأنا أحكي لك كل ما يدور في منزلنا، سأعري لك حياتنا، ما رأيك؟ بدا على وجهه الابتهاج، وقام وسرنا تجاه محطة الباص، كنت مغبوناً لكوني عقدت اتفاق إذعانا معه، ولكن ما باليد حيلة.

لقد كان ابني" جريجور " ولداً نابها منذ بداية دخوله المدرسة وكان يحصل على أعلى الدرجات في كل السنوات، كان مصدر فخر لنا لذلك تكاتفنا من أجل إنجاحه، وظل

متفوقاً الى أن دخل كلية القانون وتخرج بامتياز ،وعمل بعد ذلك في مكتب محاماة كبير في المدينة ،وقد خصص له المكتب سيارة تقله من البيت للمكتب، ورغم كفاحنا الطويل مع الدودة الحقيرة، حيث كنت أعمل في ورديتين، وأمه تعمل غسالة حتى تكالبت عليها الأمراض وأصيبت بالربو من الوقوف في أماكن باردة، وتعاني أشد المعاناة جراء غياب التدفئة، ورغم تضحياتها الكبيرة، لم يلب طلباً بسيطاً وهو تمويل رحلتها لتعيش باقي أيامها في" الجبل السحري[1]"حيث المناخ المناسب والرعاية الطبية رائعة، تريد أن تقضي أيامها الأخيرة بدون معاناة، زوجتي لديها كرامة ولا يمكن أبداً، أن تهدر كرامتها أما ابن أحشائها، أنت تعرف ذلك، الأم ترى نفسها في وضع خاص، وهي تتوق لهذه الرحلة وتراها جائزة بسيطة لتضحياتها، أنت لم ترها وهي تشحّر وهي تبحث عن هواء لتتنفس، يا سيد كاف لو لم أعرف أمه جيدا لقلت أن هذا الولد ابن حرام، هذا الولد يتمركز حول ذاته بشكل لا إنساني ونحن الذي أهدرنا عمرنا لصالح الدفع به للأمام والآن ينكرنا، هل تتصور أن ابنتنا مارجريت، توقفت عن الدراسة وعملت في مكتب للآلة الكاتب كي توفر مصاريف الدراسة وبمرتبها تساعد في دعمنا، وفي الأخر بدل من أن يقف بجوارها ويساهم بقوة في جهازها يرفض العريس الذى تحبه، ويقول إنهم ليس بمستوانا لكي يتهرب من تكاليف جهازها، هل رأيته خسة ووضاعة، يا سيد كاف، أنا لا أريد منه أى شيء، فحياتي ضاعت هباء، هل تتصور أنه اشترى شقة في حي راق وفرشها بأحدث المفروشات الحديثة، وللأسف لديه عشيقة يصرف عليه ببذخ، ثم يقطر علينا ويدعي أن مرتبه ضعيف ولا يكاد يكفي مصاريفه الشخصية.

كنا قد وصلنا محطة الباص .. الغريب أنني قد انتابني شعور بالراحة بعد أن حكيت له، ما أمر به من ظروف سيئة وأستطيع أن أقول لك أن السيد" كاف "بدا يروق لي وقد أصبح

(١) الجبل السحري عنوان رواية للكاتب الألماني توماس مان

لقاؤنا دوريا، أمر عليه، وأروي تفاصيل بؤسنا الأبدي إلا في اليوم الذي أكون فيه متأخرا عن العمل أو راحتي الأسبوعية، أو أكون بجوار زوجتي المريضة، حاولت مرات كثيرة أن أستدرجه للحديث عن نفسه، عن أفكاره وأحلامه ورغباته، ولكنه كان أشبه بصخرة صماء، فقط يبحلق لي، ويهز رأسه في يوم قلت له: سيد كافكا، أنت رجل طيب لماذا لا تترك اليهودية وتؤمن بالمسيح المخلص، ستقولون أنني رجل حشري وأتدخل في شؤون الناس الشخصية، ولكن باسم الرب أنا أحب هذا الفتى الطيب وأراه جديرا بالفردوس، في الحياة الثانية، أنت دائما تتمنى لصاحبك السعادة في الدنيا والآخرة ، وكافكا لا يرتكب أي شر، إنه ملاك طيب، لا يزنى لا يسرق، لا يغتاب، لذلك كنت أصاب بالجنون، ما الذي يجعله يتمسك بقراد يمتص دمه إلا نقص في العقل، وفي يوم قلت له لماذا لا تصحبني للكنيسة هناك صحبة جيدة وفتيات غاية في اللطف والجمال، رد وقال: دعني أفكر في الأمر، وكلما سألته، فكرت يقول مازلت أفكر، حتى يئست من استجابته، وقلت في نفسي لماذا تتعب نفسك يا سامسا أيها المجنون ليقبر وليذهب للجحيم. حتى حدث لي حادث جلل لم يكن بالحسبان، لقد وقعنا في مصيبة كارثية جعلتني أفقد عقلي، أتخبط، لذلك قررت هذا الصباح الغياب عن العمل، كنت في حاجة لدعم ،لسند لذلك لم أجد سوي السيد كافكا؛ لذلك ذهبت لرؤيته، وفعلاً وجدته كالعادة يقف شابكاً يديه في بعضهما ناظراً في اتجاه واحد وكأنه يلعب اليوجا، قلت صباح الخير مستر كاف"، لماذا لا تدعوني لشرب فنجان من الشاي بجوار المدفأة، قال: والعمل، ليذهب العمل للجحيم، لقد وقعت في مأزق شيطاني، لم يحدث لأحد ولكن القدر اللعين يترك كل الناس ويتحفني بهداياه الرديئة، لن تصدق ولو حلفت لك بالمسيح، ولكن وحق الشيطان يا سيد كافكا هذا ما كان ينتظرني عندما فتحت الباب أقول لك، وكان هذه الحادثة من صنع مبدع عبقري يتميز بخيالٍ باذخٍ، نعم مستر كاف، يجب أن يكون كاتباً أصيلا ..حقيقياً، رحب بي ودخلنا للصالون، ثم عرفت أنه يعيش وحده لذلك ذهب ليصنع لي كوباً من القهوة، ثم عاد وجلس منتبها يقظا،

ينصت باهتمام، شربت القهوة وبدأت أحكي له ،التقطتُ الصحف من أمام الباب ودخلت وجدت زوجتي تسعل بشدة بسبب برودة الجو، كانت بدينة وتسير ببطء شديد، قلت لها وأنا حانق ما الذي يخرجك في هذا الوقت؟ قالت إن جريجور، لم يستيقظ حتى الآن وأنت تعرف إنه يريد أن يصبح في أجمل حلة، قبل أن يمر عليه السائق، قلت لها لا عليكِ، اتركي الأمر لي دفعتها مرة ثانية لغرفة النوم، ولم أخرج إلا بعد أن أحكمت عليها الغطاء، ثم عدت ثانيا لإيقاظه، دفعت الباب من الخارج لأن الترباس كان مكسوراً من الداخل وقد قلت له مراراً وتكراراً، علينا أن نحضر صانع الكوالين، دون فائدة، فأي شيء له علاقة بالمال يضع أُذنا من طين، وأُذنا من عجين، ناديت عليه فرفع الغطاء فأصبت بالرعب جراء ما رأيت فقد تحول جريجور الى دودة، هل تتصور هذا، حشرة هائلة مستر كاف، ماذا تفعل وأنت ترى ابنك وقد تحول الى حشرة، كفاحي، وضياع مالي وجهدي، ولكن ما الفائدة الآن ؟ أضرب كفا بكفٍ وأنا أردد في شبة يأس لماذا يعيق القدر الفقراء بكل هذه القسوة والعنف؟ ماذا فعلنا، ثم توجهت لأيقونة المصلوب، وأخذت أشكو له مساري الموحش في هذه الحياة، لم يكن يبالي، لماذا؟ نعم أنا متدين ولكن قسوة الوقائع تزحزح الثقة، نحن بشر في النهاية، ورغم ذلك ذهبت للكنيسة ،واعترفت وتناولت القربان المقدس ،وأنا في هذه الحالة السيئة وجدت السائق يقف على الباب ويريد أزاحتني ليدخل الغرفة، دون أدنى احترام، وكأنني لست رأس البيت، هل لكونه هو الذي يدفع الإيجار يكون هو السيد، الأب في النهاية سيد يا سيد كاف ألست معي، كنت حانقاً جدا لذلك قلت تريد أن تدخل، أدخل ودفعته داخل الغرفة فأصبح وجهاً لوجه مع الدودة الهائلة، فسقط على الأرض وهو يحاول أن يدور على عقبيه، اندهش جريجور الذي لم يكن يعرف ما آل إليه حاله، فنظر مستغرباً وأخذ يبذل جهدا لكي يلحق السائق ليعرف سبب رعبه ،فالتقى بأخته "جريتا" فأخذت تصرخ، فصرخ هو أيضا ودار حول المائدة الكبيرة ولحق

السائق على السلم، وقد اتفق أن السائق يلتفت فوقعت عيناه على جريجور بكامل هيئته فسقط من على السلالم يتدحرج وهو يعوي ،فعاد مسرعا للغرفة وهو لا يعرف ما الذي يجري؟

وجدت أمه تجري نحوي لتتأكد مما سمعته، فوصفت لها حاله؛ فانهارت وظلت تبكي ضياع مستقبل ابنها أغلقت عليه الباب من الخارج فأخذ يصيح علي بصوت رفيع وحاد يشبه الأزيز ،ثم وجدته يحطم في الأساس قلت" لقد جن "فسحبت عصاي وجلبت مرآه كبيرة من غرفة نوم جريتا ودخلت عليه واجهته بها، عندما رأى نفسه وقد تحول لدودة عظيمة بشعة انهار وتكوم على الأرض، وأخذ يزحف تحت الكنبة، وهو يشعر بالعار، أغلقت عليه الباب، وطلبت من جريتا أن تدخل عليه، كل يوم بالأكل المناسب، هو في النهاية ولدي، بالعكس رغم ما نلنا منه من نكران للجميل إلا إنني أعامله بلطف ورقة، مثلاً كل يوم في الصباح أدخل عليه وأقول له، صباح الخير يا خنفستي الجميلة، صباح الخير يا آكل الروث العفن، أين عشيقتك ومالك أيها الجرذ النتن؟ في أي مكان وضعت رزم المال، ثم كان علينا أن نضع له فخاً لكي نعثر على المال، لذلك طلبت من "جريتا "أن لا تضع له طعاماً ثم تركت الباب مواربا، لكي يخرج من الخن، وانتظرنا ساعات كامنين ، كل في حجرته الى أن خرج وأخذ يزحف ببط داخل المطبخ، دخلنا الغرفة، وأخذنا نفتش في الصندوق تحت الكنبة، في الدولاب لم نجد شيئا، أين خبأ المال اللعين؟ كنت حانقاً وفي أشد الحالات غضباً ثم سمعنا صراخاً جرينا، فوجدناه يزحف على حائط المطبخ والشغالة التي كانت في الخارج تشتري الخضار قد دخلت في غفلة منا ورأته كالعنكبوت يلهو على الحائط، لذلك أغمي عليها، ضقت أشد الضيق، وقررت أن أتخلص منه، الى الأبد نظرت فوجدت طبق به تفاح، سحبت واحدة، ورميتها فتدحرجت وتبعتها أخرى على الفور[1] توقف جريجور في ذعر! لم يكن ثمة سبيل الآن لمواصلة

(١) مقطع من قصة الدودة الهائلة للكاتب التشكيكي فرانز كافكا

الجري الى الأمام لأن والده كان قد صمم على إطلاق تلك القذائف نحوهه. كان قد ملأ جيوبه بتلك الثمار من أحد الأطباق المتلئة فوق البوفيه، وراح يسدد التفاحة بعد الأخرى دون أدنى اهتمام بإحكام التسديد في حينه، وتدحرجت التفاحات الصغيرة الحمراء كما لو كانت كل منها مشدودة بمغناطيس ومسددة نحو الأخرى وتدحرجت تفاحة لم تكن قد سددت بقوة كافية، فوق ظهر جريجور، فاستقرت في ظهره وغاصت فيه، وأراد جريجور أن يجر نفسه الى الأمام، كما لو كان في الإمكان ترك ذلك الألم المفزع، الذي لا يحتمل خلفه، لكنه أحس به في البقعة نفسها، كما لو كان ثبت فيها مسامير ومدد جسمه وتعطلت حواسه كلها. وبأخر نظرة أمكنه أن يعيها، رأى باب حجرته وقد انفتح واندفعت أمه خارجة منها وخلفها شقيقته تطلق صرخاتها– في قميصها الداخلي – لأن ابنتها كانت قد خلعت عنها ملابسها حتى يسهل عليها التنفس بسهولة أكثر، ويمكنها أن تفيق من إغمائها! رأى أمه تندفع متجهة نحو والده، واحتضنته، متحدة به في وحدة كاملة إلا أن عيني جريجور أطرقتا عند هذا الحد نحو الأرض ويداها تلتفان حول عنق والده، كما لو كانت تستعطفني، أن يبقى على حياة ابنها.

هل تتصور هذا يا سيد كاف أن ابننا تحول لدودة هائل وضاعت آمالنا في الترقي السلم الاجتماعي الى الأبد. ثم سافر بعد ذلك مستر كاف لألمانيا، ثم عرفت أنه عاد وهو مريض جدا، ولأنني رجل عجوز وحساس تجاه الأمراض فقد خفت أن أصاب بمرض السل الخطير، فلم أزره في مرضه وعندما مات أخيرا ذهبت للجنازة ونسيت أمره مع مرور الأيام حتى فاجئني يا سادة ابني جريجور ينادي علي ويقول: هل تتصور يا أبي أن جارنا السيد كاف أصبح كاتباً مشهورا ؟ هل تتصور أن هذا الشخص كاتب شهير؟ لقد اقتنيت الأعمال الكاملة له! ومد يده لي بها، قلت له هذه مزحة يا عزيزي لا يمكن أن يكون هذا كاتباً، هذا شخص شاحب العاطفة، صموت لا يستطيع التعبير عن أي شيء، ولا وصف شيء؟ أخذت منه الآثار الكاملة

وقلبتها بين يدي، كانت طبعة فخيمة، وعندما قرأت الدودة الهائلة قلت: يا ابن الحرام، أيها الأفاق، كيف تكون بهذا المكر وكأنك صحفي؟ كيف تسطو على أعمال الغير وتنسبها لنفسك؟.

سيدي القاضي : قصة "الحشرة الهائلة" وليدة مخيلتي أنا، وليست لهذا الأحمق الغر، ولذلك ألتمس من عدالتكم، إزاحة اسم السيد كاف ووضع اسمي عليها، وهذا يعود بالعدل الى نصابه، حتى لا يكررها أي نصاب، المشكلة يا سادة وهذا أيضاً مهم، من وراء القصص الباقية الذي ألفها السيد كاف، لا أحد يعلم ولا أنا لكن من سرق مرة لا يتورع عن تكرار فعلته وأنا أعلن أمام هيئتكم الموقرة أنني وهبت حياتي للبحث عن الكاتب الحقيقي وراء كل أعماله بداية من المحاكمة، ومذكرات كلب ومستعمرة العقاب وغيرها. يجب أن نفضح هذا اليهودي التعس.

ثم توقف عن الكلام، قلت كمل، وأنا مسحور بالحكي الشفاهي، قال: عندما قرأت الملف اتصلت بابني جيمس، قلت له لحظة من فضلك ابنك اسمه جيمس، ويبدوا أنه فوجئ فقال لا تدخلني بمواضيع فرعية فيضيع الكلام، ثم أكمل : اتصلت بابني وطلبت منه أن يسافر براغ، حيث المدينة القديمة، بجوار كنيسة سانت نيكولاس، ويذهب لهذا العنوان وحكيت له القصة، جيمي يحب المغامرات، وله مغامرات هائلة، في تسلق الجبال ورحلات السفاري عبر العالم، لذلك كانت سعادته كبيرة بالقصة، وفي البداية مسح جوجل بحث عن الأسماء الموجودة في حيز مدينة براغ خاصة المنطقة الذي أشار إليها الملف فوجد أربعة أسماء لجريجور سامسا في براغ فركز على اثنين منهم، الأول موظف بوزارة المالية، والثاني رجل أعمال، بحث أكثر فتوصل لوقائع محددة منها أن جريجور أصبح صاحب أكبر مكتب للاستشارات القانونية والمالية في المدينة، وأنه مات عن عمر يناهز التسعين عاما، وقد ترك أربعة أبناء، ثلاثة يديرون الأعمال والرابع فوضوي راديكالي، انضم لخلية سرية، قامت بعدة تفجيرات في المدينة أدت لقتل عدد لا بأس به من البوليس، وتم إلقاء القبض عليه ومحاكمته من خلال القضاء العسكري

حيث حكم عليه بالإعدام وتم بعد ذلك تخفيف الحكم الى المؤبد، جيمي ذهب الى براغ وذهب للمعتقل حيث يقضي مدة حبسه وقدم طلبه للإدارة لمقابلة بيتر وهذا اسم الابن الرابع فقوبل الطلب بالرفض، فاتصلت بصديق وهو سياسي ذو نفوذ في حكومة التشيك، فبذل جهودا مضنية حتى استطاع السماح له بمقابلته بالفعل، ولكن المقابلة لم تستمر فترة طويلة، ولكن عرف منه أن مستر سامسا قد تم اتهامه بالخرف والهذيان وتم وضعه في مصحة للأمراض العقلية، وقد تأسف بيتر على جده وأخذ يكرر، الموضوع مريب ودادي، كلب السلطة القذر يفعل أي شيء حتى لا يعطل أحد مسيرته القذرة وفساده المنحط، وقد يكون باعة لصالح لوبي اليهود العالمي، فكافكا في النهاية واحد من مفاخرهم وعندما يأتي شخص هامشي ويشكك في إنتاجه الأدبي فهذه كارثة ويجب التصدي لها، قد يكونون قد دفعوا أموالا لجريجور، لاتهامه بالجنون وبعد ذلك يتم وضعه في مصحة خاص، وأيام معدودة وتضع ممرضة ما تحت جلدة حقنة سم وينتهي أمره. وقد بحث "بيتر" كثيرا ودفع المال ليكتشف الحقيقة وكيف كانت نهاية الجد ولكن دون فائدة فموت السيد سامسا، وضع سره في عمق البئر .

ثم مد لي الملف وقال: كان بودي أن أحقق هذا القضية خاصة أن هناك شكوكا كثيرة وأسئلة غامضة من السهل تتبعها والوقوف على حقيقة موت السيد سامسا ولكن لم تعد لي طاقة، فمجرد أن أقرأ فترة بسيطة حتى أصاب بصداع عنيف لذلك اكتب قصتك، تستطيع أن تحول هذا الملف الهزيل الى رواية عالمية تهز الدنيا وتفسح لك مجالا تحت الشمس، الحقيقة في صقيع أوروبا، اصمد وكافح، أنت مقاتل بالفعل وستحقق ما تريد ألمح ذلك في عينيك، سحبت منه الملف وقلت ولكنني لا أعرف هذه اللغة، قال :لا يهم، القصة أنا قولتها لك، لكن لو أردت الدقة ادفع لمكتب ترجمة، واكتب قصتك، هذه قصة عالمية، تنتشلك من هذا الخراء، روح، روح يا رجل، سحبت الملف وعدت للبيت وأنا يائس، فرغم أن القصة بديعة، لكن لا خيال لي ولا دافع للكتابة، ورغم ذلك حاولت ومسكت القلم وأخذت أفكر من أين أبدا؟ ظللت

فترة طويلة حتى أصبت بالإرهاق الذهني الشديد فنمت بجوار الطبلية، وفي صباح اليوم التالي ذهبت للعمل وأخذت أفكر في مدخل أو طريقة، لكتابة القصة، حتى أنني كنت غائباً تماما عن الفواسة بمحاولة ترتيب الأحداث وعندما عدت ظللت نائما فترة طويلة وعندما قمت من النوم كان ذهني صافياً، أمسكت الملف وأخذت أنظر إليه والى خطوطه الخرقاء، دون أن يلهمني شيئا ، صعدت فوق السطح لعل الهواء يلهمني أو أتلقي هبة إلهية، ولكن لا شيء، ذهن فارغ حد العدم، فأمسكت الملف وأخذت أنزع وريقاته واحدة وراء الأخرى وأطيرها في الهواء وانتابتني ضحكه ممررة حد العدم .

حفار كافكا

(١)

في مدخل البيت، جلست على الحصيرة مقابل أمي وهي مُنْكَفِئَة تفرك العيش للطيور، منتظرا هجومها عليّ بكلام موجع، ولكن على عكس طبيعتها كانت لينة، تتمتم بصوت غير مسموع، فأخذت أتأمل ملامحها عندما تكون غاضبة وملامحها المتصلبة، الجامد، ووجهها الوردي، وحركة أسنانها التي تقرض عليها وتتحرك في دوائر كحجر رحي.

والله اللي ما يشقى ما يلقى، والصحة زي الملوخية، تقرطها الصبح، تجدد تاني يوم، والله لا تندم، دائما تعمل مشاريع وينجح وبعد كده تهملها، ولا في دماغك شيء سوى السرمحة مع أصحابك "ثم حملت طعام الطيور وتركتني لم أختلف معها، لكن في أي مجال، كنت على استعداد لبذل قوة عملي بصبر في مجال لثقافة، ولدي اقتراحات مهمة ولي اهتمامات بالتحقيق الصحافي والحوار وعروض الكتب شيقة برأيي، وأستطيع تقديم مادة مهمة، لكن الارهاق البدني من العزيق في أرض الغير أصابني بالمرارة، مما جعلني أخذ قرارا لا رجعة فيه بعدم العودة للعمل مرة ثانية، أخذت القرار ولم يكن ذهني خاليا، فقد تبلور داخل الجمجمة عدة مشاريع حصرتهم في فتح محل للبقالة، أو تجارة الفراخ البيضاء، بالنسبة للدجاج، فالريفيون لا يستسيغون فكرة شراء طيور غير منزلية، هناك ريبة تجاه تربية المزارع، بسبب حقن الفراخ تحصيناً ،فيتصورون أنهم يحقنوها بهرمون ضار بالصحة، لذلك لم يكن هناك أحد يتاجر فيها إلا عدد محدود جدا، وهم في الغالب ربات بيوت مطلقات، أو أرامل، ولكن كنت أعرف أن هذه فكرة جيدة ،عرضت فكرة فتح محلل بقالة، ولكن أخوتي رفضوا الفكرة فعرضت الفكرة على صديق لي، فوافق وقد كان له شرط أن أحصل على الراتب بنسبة من الربح، لم أوافق، ليس لكوني لا أثق في نجاحي في الربح، ولكن لصعوبة حصر المحل كل شهر، فأنا

كسول بطبعي، وأريد عملاً سهلا، وعلاقتي سيئة بالحساب والحصاد، ولكن العالم يدفعني دفعاً للانخراط القسري داخل جحيمه، لم يترك لي فرصة ولو ضئيلة أكون، حفار كافكا، وكل مراحل حياتي، هو البحث عن حصن أكُمن فيه وأطل على العالم، بمزاجي الخاص، أن أقرب الى روح سلحفاة، لا أحتاج من هذا العالم سوي درقة صلبة تحميني"، بندقة" كما يحلم المعلم، وليذهب العالم الى الجحيم، ولكن ليس إرادتي بيدي، فأنا شخص هش، وأحتاج رأسا صلبة تتحمل الضرب ملايين المرات، لبناء ممرات ضيقة، وفجوات واسعة لتخزين المؤن، وحجر فارغة، وجدران صامتة، وشراك، ودهاليز، وحواجز، ومصائد، ما يعوق بناء هذا الحصن، هو عدم قدرتى لدفع فاتورة العزلة والزهد في متاع الدنيا، هذا ضد طبيعتي فأنا شهواني تجاه الطعام، لذلك رغم عمري الصغير إلا أن وزن كرشي فقط وصل لعشرين كيلو لدرجة انني أجعله لعبة، أظل أمسك رقائق الدهون وأهز فيها كأنني أهدهد طفلاً أعتز به، شغفي بالطعام تجاوز الأطعمة المعروفة، مثلا عندما أذهب لعزيق أشجار العنب في الجبل، وهي أرض رملية ينبت فيها، حشيش القصبة، والسعد، الذي يمدا جذورهما لمسافة بعيدة في باطن الأرض، ويتطلب العمل قوة عضلية كبيرة، لذلك كان أخوتي بعد موت أبي يصدرونني في عزيقها، كنت أستغل الفرصة وأطبخ خلطة من ورق العنب، والسعد، وأوراق البردي، وورق الكافور، والفروع الجافة من العنب، وأصطاد الضفادع من البردي النامي في المناطق المنخفضة حيث منسوب المياه الجوفية مرتفع في كثير من المناطق القريبة منا، وينمو فيها البردي، والغاب، والبوص والبعض أستغل مساحته في زراعة الأسماك، وأضع كل ذلك في صفيحة وأتركها على النار لفترة طويلة حتى موعد الغداء، أرفع الصفيحة من على النار وأقمر العيش وأضع المش والجبن وما تيسر من الطعمية، وعندما يكون هناك أرض مزروعة بالطماطم أو الشطة، أو أي نوع خضار، فأغير عليها، أو نخلة مثمرة فأطلعها كالقرد وأحلبها، وأملأ حجري وأرميه امامي، الجار للجار ثم أكل بنهم جائع، متعب، استعيد خلالها طاقتي التي بددتها، بعد ذلك.

في يوم كنت مشتعلاً بالحماس وأخذت أعزق بقوة، في عمق الرمل حتى وجدتها تتألق أمامي ببياضها الشاهق، وتمط جسمها البدين في كسل فيظهر، فتتألق مكتنزة بدهن طاهر نقي، وتتلوى كلبؤة في مرقص، قبض عليها من وسطها ورفعتها أمام عيني وأخذت أنظر إليها نظرات شهوانية، قلت لها: تعالي يا وسخة، تعالي يا شرموطة، فاكرة نفسك حفار كافكا، فمجرد غرس رأسك في الرمل، والغوص، الغوص، تتصورين أنكِ في أمان، شيطان غرورك يصور لك أوهام، فغوصك في الرمل مجرد متر لا أكثر، وأنتِ يا لبؤة تتصورين أنك في أسفل سافلين، فاعلمي ما دام في يدي هذه الفأس فأنتِ مهددة، ذهبت وأحضرت براد الشاي ووضعتها فيه، كانت تتلوي كعاهرة استربتيز في ماخور راق، تركتها وحدها في ظلام البراد تنيره، وعدت ثانيا للعمل، وبي حماسة وفرح داخلي، أخذت أضرب الفأس، بحثاً عن فرائس جديد، تقافز نوع مختلف لم أعهده من قبل، وكأنه ذكر لذلك كان مستقيماً وجسمه صلباً، أخذت أقلب فيه ثم رميته في البراد، وفي استمراري وجدت أخريات، حتى أُنهكت فجمعت كومة من فروع شجر العنب ثم احضرت العيش وقمرته، ووضعته جانبا ثم أحضرت سلاية من نخلتنا العقيم، وغرستها في بطنها المكتنزة ثم لضمت الأخريات واحدة وراء الأخرى فتكون عقد يتلوى، قربته من لهم النار وأخذت أبرم السلاية حتى لا تحترق الغنيمة، شويتهم على نار هادئة ووضعتهم سطر على رغيف البتاو، ثم طويته وأخذت أكل، يا الله كم هي شهية ولذيذة وتضرب في الدماغ.

لم تتوقف شراهتي للطعام عند هذا الحد بل استغللت كل فرصة لتجريب طعام غريب لا يجرؤ أحد على تذوقه، كنت أفخر باني أكل الثعابين والفئران والسحالي، بل كنت أخلل السحالي في وردة المش، أو الشطة، والطين وأستطيع أن اميز دون أن أرى انواع الطين المختلفة كنت أمضغ الطين بأسناني، الطين النوسة، الطين العادي، الطين الذبلة، وهذا الطين طين صلب لا يصلح فيها زرع، ولكن ينبت فيه الشوك والحلفاء، وهو نقياً، يتميز بنكهة

فريدة، يظل الطين في فمي، الُكه وأمضغ فيه وأمتص رحيقه حتى يصبح في فمي تفل فاقد الحيوية، الحشرات كانت بالنسبة لي تحدا حقيقياً، كلما نظرت إليها والى شكلها القبيح وزحفها داخل الحمامات أصاب بالقرف، كما حاولت أكثر من مرة والجعران والخنفساء الجبلية، ولكن لم أجازف في النهاية الواحد يأكل بعينه. هذه الدرقة الصلبة على الخنفساء، عندما تنتزعها، أو تسحقها بحذائك تجدها تخرج سائل دهني أبيض لزج، يليط في الفم والحلق، شيء بشع، لذلك تجنبتها، وأن كان بعد ذلك عندما سقط في الفخ، كان يأتي على أصياف لا أجد شيء البتة، لذلك كنت، أكل أي شيء على مضض، العصافير لحمها سيء ولا اعرف لماذا؟ الثعابين الأكثر جمال ولحمها رائع، وهي طعامي المفضل، أما النساء فلا يوجد امرأة لا تستحق أن تشتهي، كل النساء جميلات، ومصدر للمتعة، الطويلة، والقصيرة، البدينة، والعجفاء، ذوات الفم الضيق، والواسع، ذات البشرة السوداء، الذي تمتلك ثدياً كبيرا ومؤخرة كبيرة، والتي لا تمتلك، لذلك ظللت طوال حياتي معذباً برغبتي الباطنية في العزلة والتقشف، والتخلي ورغباتي المسعورة من التمتع بالحياة، لذلك أنا مصلوب في هذا العالم الذي يقف ضدي ويقمع رغباتي، يضع حدودا بلا نهاية ورغم دأبي ومثابرتي، ولكن هناك إصرارا مستعصيا على الفهم، وكأنني كائن ذو حيثية،يستطيع أن يلوي ذراع العالم حتى يلويه ويؤلمه، هذا غير صحيح بالمرة، فأنا في النهاية مجرد فرد، أقيم نفسي وفي ذاكرتي الصول عبدالشافي وهو يضرب قدمه في الأرض ويصرخ في وجهي وهو يقول : أنت مجرد عسكور، حتة عسكور بتعريفة، ألم أقل لكم، مواطن مهمش لا أكثر، لا يستحق كل هذا الاهتمام، دعوني أمر، لست نابليونا لأفكر في غزو العالم، فقط أريد أن أتسلل في هدوء وأتلذذ بكل حواسي، ارتحل من هذا العالم، أختار مدينة بعيدة عن مدن الصحراء فلتكن البرتغال موطن صديقي بيسوا وصديقي الأعز والأنبل سارماجو، فلتكن اسبانيا، أعلم كلهم كلاب وعنصريون وقتلة، أوغاد وأولاد حرام، ولم يكونوا في يوماً من الأيام رفقاء بأبنائهم فما بالك بنا نحن أبناء المستعمرات الساقطين في جيتو

غبي لا يريد احد أن يدعم أو ينسونا للأبد، ولكن في النهاية أنا لا أريد منهم أي شيء ،فقط قليل من المتع، والخروج من هذه البقعة الأسنة النتنة التي تأكل الروح، بشراهة، لا يهمني العالم فليذهب لأي مكان لا يعنيني.

(٢)

انتهيت لفكرة أن لا حل سوي تجارة الدجاج البيضاء، وهي لا تحتاج لرأس مال كبير، ولا تحتاج لمكان، فمجرد قفص، ومائه جنيهٍ سيكون لدي مشروع. ولأن أي مشروع أعرضه على أخوتي يقابل بتكسير المجاديف، وخوف من نجاح يحقق الثراء المادي، مما يجعلني أفكر بالاستقلال بحياتي، ويخسرون حمار شغل، لذلك لم استشر أحدا. ذهبت لصانع الأقفاص واتفقت معه على صنع قفص للدجاج، ودفعت حقه وفي الميعاد المحدد بيننا استلمته، ولم أذهب به للبيت فقد كنت اكتنزت مالاً بطريقة وضع القرش على القرش مع جارة طيبيه تحفظ السر وعندما نويت سحبت الفلوس منها وحملته وتوجهت للموقف وركبت سيارة أجره، كنت خجلانا بالفعل، ولكن كنت في ذلك الوقت لا مبالياً، نزلت من السيارة وركبت سيارة أخري حتى وصلت لقرية بني سلامة، وهي في ذلك الوقت أكثر الأماكن تربية وتجارة للفراخ البيضاء، وفي الموقف سألت على مزارع الدجاج، سيدة قصيرة وبدينة وصفت لي طريق المزارع ونصحتني بالشراء من مزرعة، محددة، حملت القفص على كتفي وسرت حتى وصلت للمزرعة، وجدت جمعا من الفرارجية، يقف بالطابور فوقفت وبدأ الميزان ودفع الفلوس، كلما اقتربت زاد شعوري بالقلق العنيف، وأخرجت الفلوس من جيبي وعددتها ثم وضعتها مرة ثانية، وأحسب عدد الكِيلُوات، وقيمة الفلوس، ولأن ذهني تائه، لم أستطع تحديد حجم ولا عدد الفراخ، عندما جاء دوري، قلت ١٢ دجاجة، أخذ يسحبهم واحدة وراء الأخرى ويرميها على الميزان حتى انتهي بحساب الكِيلُو فوجدها ٢٠كيلو في ٦.٥٠يساوي – ١٣٣ جنيه، قلت أنا معي مائه جنيه، هز رأسه، حاضر، قالها بهدوء وسماحة، وسحب واحدة وراء الأخرى ثم قال: معاك سبعة جنيهات: قلت: لا، قال: المرة الجايه تجيبهم وكتبهم في دفتر كبير، سحبت القفص فاكتشفت أنه ثقيل، فرغبت في إسقاطه على الأرض، ثم تذكرت أن لا مال معي

لأجرة المواصلات، وقفت غير بعيد عن صاحب المزرعة، أتحين الفرصة لخلو المكان من الزبائن، وعندما طال الأمر تشجعت وقلت له ممكن أجرة المواصلات تضفها على الحساب اللي عندك، سحب جنيها وناولني إياه، دون أن ينظر ليّ، أحسست نفسي متسولاً، لكن كنت سعيدا ببداية المشروع طلبت من رجل أن يرفع عليّ القفص، فرفعة على كتفي وسرُت كان القفص جديدا وله حواف حادة ويحز في لحم كتفي، مع ثقل الفراخ، عافرت حتى ابتعدت عن المزرعة، حتى لا يستهزؤون بي وأظهر في نظرهم عيلا، ولكن لم تعد لدي طاقة على الإطلاق فقد كان الألم رهيبا، وخفت أن يسقط القفص من على كتفي، فجريت وعلى أقرب مصطبة رميت القفص عني، أزحت ياقة الجلابية عن كتفي وجدت القفص قد غيش في لحم كتفي، وخط خطوطا زرقاء وحمراء وسوداء، جلست على المصطبة وأنا ساهم، هناك شمس في السماء، وهناك بشر لا أراهم، فقط عالم مشوش، الى أن أحسست بطول مكوثي رغم خفوت الألم، ظللت أفكر في طريقة مريحة لحمل القفص لم أجد سوي، حمل القفص على رأسي، كانت طريقة مهينة، وثقيلة على روحي، ولكن على رأي المثل" البلد اللي ما لك حد فيها شلح وأجري فيها"، بحثت على شيء أعمله حواية، لم أجد سوى ورق فجمعت قطع كرتون وقصصتها وجعلتها مربعة، وعندما مر رجل طلبت منه أن يرفع علي، فرفعه وسرت في الطريق وأنا أشعر بالإذلال وكراهية الذات، لم أتعود على حمل شيء على رأسي لذلك كانت رأسي تتمايل ولكنني صمدت حتى وصلت الموقف ووضعت القفص على فرنتونة سيارة نصف نقل، وانتظرت حتى امتلأت السيارة بالركاب وتحرك السائق، وعندما تدفق الهواء وبرد جسمي شعرت بانتعاش لكوني أعمل وأناضل في الحياة ولست مجرد فرد في عائلة أتبعها وأتبع مسارها ونسيت تعبي، نزلت من السيارة في موقف وردان وحملت القفص ونقلته ثم الى سيارة أعرف سائقها لأنه من البلد، الى أن وصلت للبلد، حملت القفص على كتفي وعند أقرب بيت أعرفه، تركت القفص لديهم وذهبت للبيت أحضرت الحمارة وعدت مرة ثانية، حملت القفص عليها،

ودخلت بالقفص البيت دخول الفاتحين فاندهشت أسرتي من المفاجأة، ولم يتكلم أحد وفي الصباح وضعت القفص في الشارع واشتريت ميزان، حتى يعرف الجيران أننا لدينا فراخ بيضاء للبيع، كان يوم الخميس والجمعة هو أكثر الأيام بيع فالكل يطبخ، لذلك بيعت قبل أذان الجمعة، فندمت على أنني لم أزود العدد، وقلت في عقل بالي على أن أتدبر أكبر مبلغ لكي أجلب أكبر كمية من الفراخ حتى يستأهل المكسب التعب النقل، وفي المساء وجدت أخي الأكبر يقول: والمشروع ده على حساب البيت ولا مع نفسك، قلت والبيت ماله ومال الموضوع، أنا لي نصيب محدد بدفعه، اشتغلت بالفأس، بعت فراخ، لفيت حول البلد، محدش له دعوة، ظل فترة ساهما ولم يرد ثم هز رأسه وقال بكيفك، بس أسمع "الفراخ دي عمرها قصيرة تروح تداين من أصحاب المزارع، من التجار وبعد كده تجيلهم فوره وبعد كده إحنا اللي ننغرس فيها لا! اللي يشيل قربة مخرومة، تصب على كتفه "قلت وماله يا عم، ولكن ورب الكعبة هذه الكلمة وجعتني، فالأخ أيه غير سند في وقت ضيق.

عندما ذهبت لجلب الفراخ كان معي أكثر من مائة وخمسين جنيها، وذهبت بعد العصر وكان حظي حسن فقد كان هناك تاجر للجملة يمّر بسيارته على البلدة فهمست في أذن المعلم بالمعلومة، فترجي صاحب المزرعة التاجر أن يأخذني معه فوافق. زال هم ثقيل من على قلبي، وهو حمل القفص، وهم فلوس المواصلات، انتظرت فترة طويلة الى أن انتهي من الوزن وحاسب الحاج، وحمل الأقفاص وسلب عليهم، ثم ركب في الكابينة وأغلق الباب ولم يوحه لي دعوة للركوب بجواره، وهذا مس جارح للكرامة، ولكن تجاوزت الأمر وركبت في صندوق السيارة مع الأقفاص، وعدت بعد العشاء، استمررت في بيع وشراء لمدة ثلاثة أشهر، والمكسب كان جيدا، لكن المشكلة أن المكسب يضيع في الشكك، كما أن البيت يحصل على الدجاج مجانا، فلا يتبق معي شيء يذكروا التعامل مع النساء القرويات مقرف، كما أن أخوتي لم يعجبهم الوضع، كيف أنام طوال النهار وأسهر الليل، وأظل أقرا لفترة طويلة وأسمع مسرحيات

وموسيقي كلاسيكي سخيفة ومضجرة كما يرونها، لذلك بدا التذمر يزيد في البيت ثم حلف أخي بالطلاق إن لم أطلع من الصبح للغيط ليكون يوم ما هو فايت، دي أساساً شغلانة الأرامل والمطلقات، عندما صفعني بهذا الوصف، أحسست بالخزي، وعندما دورتها داخل ذهني اكتشفت أن كل من يتاجر في الفراخ في البلدة من الأرامل والمطلقات وهناك استثناء واحد لرجل منسون، زاد العار داخلي وأحسست أن هذا العمل عار ما بعده عار، وتصورت سريان لقب فرارجي ملتصق بي، لذلك انصعت للضغوط وبدأت أذهب للغيط وأتصبغ صبحاً وعصرا في نقاوة الخيار، أو العزيق، أو قلع الموز العيان، عمل لا ينتهي، الأرض تنبت قهراً وإذلالاً وعنفاً، إضافة للمشاكل المحيطة بالزراعة حيث ابتلينا بجيران غاية في السوء وهنا القدر يلعب دوره بإتقان، فمثلما لا تختار دينك، أو والديك، أيضاً الجيران، سواء في البيت أو في الغيط قدر، وقدرنا أسود، ولا يمكن أن تبيع أرضك هرباً من جار السوء هذا عار خاصة من لديهم دم حامٍ، وبعض عزة النفس، وكم من المعارك نشبت على الحد، أو الروي، أو السرقة، أو قطع الخزان، أو جاموسة قطعت الحبل ودهست برسيم جارك، أو بقرة فلت حبل من عيل، وجرت في غيطان الناس ويتصادف وجود جار شرير ويضرب الولد وتبدأ المشاجرة، تنشب المعارك من تحت القدم، يعني من أتفه الأمور ومعارك أخوتي ووالدي تحتاج لكتاب أخر، أن كان لنا عمر، ولكن أنا لم أخض معارك كثيرا رغم اندفاعي وحمقي، ولو خضت معركة وهزمت الخصم، خرجت وأنا أشعر بالذنب، وأن هُزمت أخرج مكسوراً وتعساً، ولدي رغبة في استخدام عقلي حتى لا أتورط في مصيبة كبرى يضيع فيها مستقبلي، لذلك عشت عمري كله، أبذل جهدا كبيرا كي أحاول أن أسيطر على حالة الغضب داخلي، رغم ميلي الفطري نحو العنف، وإيماني بجدوى الشجار في حسم الأمور، لدرجة أن كوابيس تنتابني، أكون فيها أضرب عدوا حتى الموت، أغز إنسانا بمطواة، أفلق رأس خصم بفأس، دم،دم يطاردني لدرجة أنني كدت أكسر يدي عدة مرات أثناء نومي، لكي أجد مبررا لعدم المواجهة، أما من مكان أخر غير هذا

المكان الموبوء بالجهل والتخلف والغباء، لماذا تسد الحياة الطرق في مواجهة الفرد الأعزل المسالم، وتعطي بغير حساب للخنازير الأوغاد .

عدت مرة ثانية للفاعل، ولكن في أرضنا بعد استأجرنا فدانا، لزراعته خضروات إضافة لملكنا، فقط كنت أهرب منهم مرة أو مرتين لجلب الفراخ من المزارع، أو من تاجر الجملة وفي يوم ركبت مع سائق متهور يسوق بسرعة جنونية، وعند قرية الحاجر، توقف، ونزل الركاب عنوة كنت الشاب الوحيد ومعي امرأة وطفل وشيخ تجاوز السبعين، رغم أن سير السيارة ينتهي في موقف وردان ورغم ذلك يريد أن يأخذ الأجرة، لم يكن من البلدة ولذلك، رفضت الدفع، وقلت له عليك أن توصلنا للموقف فمسك فيّ واشتبكنا، كان يلبس خاتما فضربني في وجهي فكسر ضرسي وتدفق دم من فمي، عندما سال الدم توقفت الخناقة هو يبدو أنه خاف فتركني، وأنا وضعت يدي على فمي كي أمنع الدم من تلويث ثيابي، كانت الناس قد تجمعت وخرج أصحاب البيوت على جانبي الطريق وسحبني واحد منهم، ودخلت البيت، غسلت فمي، ووجهي ثم جاء الرجل الذي ضربني وأخذ يعتذر لي ثم قال: أنا هوصلك للمزرعة، رفضت ونويت العودة للبيت، جرجرت القفص وسار ورائي صاحب البيت وسائق السيارة، كانت الجلابية قد تلوثت بالدم وتقطعت ونفسيتي بالحضيض، صمم الرجل على العودة معي والاعتذار لي في بيتنا، عدت معهم ودخلوا البيت واعتذروا لي ولم أذكر شيء لأخوتي وعندما علم أخوتي بالموضوع غضبوا أشد الغضب، ولكن لم أبالِ طوال حياتي كنت مصمماً على عدم توريط أخوتي في معارك قد تنهي بحياة واحد منهم، أو تضيع مستقبله، كنت أريد أن أتحمل شقائي في الحياة وحدي، بعد أقل من شهر حدثت حرب شوارع بين عائلة الرجل الذي ضربني وكسر ضرسي، وعائلة أخري وقد قتل في هذه الخناقة، وتم حرق بيته وممتلكاته ومات ابنه وزوجته، وسجن ابن له، وعرفت بعد ذلك أن هذا الرجل تاجر مخدرات، وأن الخناقة نشبت بسبب التنافس الرهيب بينهم وبين منافس له، وقلت في عقل

بالي أن كسر ضرسي أعفاني من موت محقق فلو تغلب عليه من يدريني أنه لن يستخدم السلاح، أو المطواة في كرشي، ومن ساعتها آمنت بفكرة، أن من يظلمك حاول قدر استطاعتك أن تتجنب العنف، فهناك مصيبة تنتظره بعيدا عنك، ورب العزة لا يظلمني أحد إلا ورأيت المصائب تلاحقه، هذا لا يعني أني أتنازل عن كرامتي مرة لكى أفلت، أبدا ولكن تنازلت عن حقوق لي بلا أخر كي أتجنب صراعا بائسا أخرج فيه منتهكاً، المهم تجنب العنف البدني، عليك أن تنتظر جثة عدوك وأنت جالس على النهر، وبعد هذا الحادث كرهت بيع الفراخ، ليس لخوفي من تكرار الخناقة، ولكن كل مرة كنت أشعر بالمهانة وأنا أحمل القفص على رأسي، وأسير هذا لا يحدث مع الرجال، وأنا في النهاية شاب في بداية الحياة، بدأت أتكاسل ثم اتفقت مع تاجر جملة من البلد يعمل حسابه في قفص أو قفصين حسب الظروف، في المواسم يزيد الى أربعة أقفاص، أو أكثر، وقد كان ومع الأيام انتهت علاقتي ببيع الدجاج، وتركت البيع لأمي والبيت، ولم أطالب حتى بالفلوس الذي دفعتها. وانخرطت في روتين العمل، ورغم كل شيء كنت أقوم بالأعمال الخفيفة نسبياً، بمعني، لو كنا في موسم زراعة الخيار فأنا من يقوم بالسفر وراء الخيار وبيعه في محلات الجملة، خاصة، لأن لدي خبرة في ذلك فقد كنت وأنا صغير أذهب بالخيار إلى عمي، صاحب دكان الخير الشهير في جزيرة إمبابة، المشكلة أن المحل في شارع مزدحم بالمارة بسبب التكدس السكاني الرهيب، كما أن الشارع الموصل له واسع في البداية ولكن يضيق كلما اقتربنا لذلك كان ومن المستحيل أن تدخل سيارة الشارع، فكان السائق ينزل الخيار بجوار سيدي إسماعيل، وبعد ذلك أحمله على عربية كارو، المشكلة أن الشوالات دائما ما تتفتق يا من الجانب بسبب اهتراء الشوال من الجوانب، يا من فتحة الشوال بسبب ضعف الخيط، وكان ذلك يغري شياطين إمبابة من الصغار بخطف الخيار والجري، لم يكن في يدي حيلة، والخناق في هذا المكان الموبوء كارثة سوداء، عندما أفرغ من تنزيل الأجولة أمام المحل أتشهد، ثم يقوم عمي بجلب جبنهة وزيتون ولانشون أو أذهب

للبيت للأكل، ثم أعود الى الشادر حيث تكون العربة قد أفرغت حمولتها، وتم البيع ونعود في الليل، هذا اليوم الذي أستريح فيه يجدد نشاطي، ويجدد رغبتي بالتفكير في مشروع أخر يعتقني، من هذا العمل.

(٣)

عرفت بالصدفة بعودة جيمس أو جمال ابن الدكتور إبراهيم للقرية، الاكتشاف أصابني بالإحباط بصراحة، لكوني عرفت من عابر وأنا الصديق الأقرب للعائلة، كما يوجد سبب أخر فقد بدأ الاهتمام بجمال من أهل القرية بطريقة مبالغ فيها ومبتذلة، لا حديث سوي جمال راح وجمال جاء، لدرجة أن البلد قامت بعمل حفلة بمناسبة حضوره للقرية وحضرت فرقة الطبل البلدي، البلد كانت فخورة به رغم أنه لم يفعل شيء في حياته يستحق ذلك، رغم أني أعرف من كلام الدكتور عنه يعتبر نابها في الدراسة، ولكنه في النهاية لم يعمل حتى الآن أي شيء ذي قيمة، الشيء الذي أعجبني فيه هو كونه لم يعتمد على مال والده بل رفضه، واكتشفت بعد ذلك أنه تزوج سيدة ثرية جدا ؛بطريقة غاية في الذكاء وكان يعتاش على مالها ثم أخذ بعد ذلك يضطهدها بشكل لا إنساني حتى طلقته، وحصل على مبلغ كبير يعيش عليه ملكا، ، فله طريقة شيطانية في التعامل مع المرأة ؛ففي بدء التعارف يكون عبارة عن مرهم، حنون، رومانسي، مهتم بشكل غير طبيعي، يفني فيها ؛يتتبع كل التفاصيل التى تخص حياتها، وله صوت رخيم أنثوي يسحر به أي امرأة، جينتل بسيط خلوق كريم، وعندما يستحوذ عليها وتحبه بعمق وصدق، متى يعرف ذلك ومتى يقول أنها لن تتراجع ، هناك بوصلة داخلة يعرف بها المنطقة التي أصبحت فيها المرأة تحت هيمنته ساعتها، يسحقها، يزدريها ويتعامل معها على كونها شيء لا أكثر، وتظهر قسوته وعنفه، لذلك صدمت زوجته الأولى من هذا التغيير كانت مصدومة ولم تستطع أن تتعامل معه، ظلت فترة طويلة تتحمل لكماته المتوالية، حتى وصل به الأمر واعتدى عليها بدنيا بالشلاليت والصفع والبصق، زحفها على البلاط ومزق ملابسها، ولم يتركها إلا بعد تدفق الدم من أنفها وقد أغمي عليها، وتركها ونزل للبار يشرب، وعندما أفاقت، أخذت دشا وارتدت ملابسها وخرجت للشارع تفكر بهدوء كيف

وصل بها الحال لهذه المرحلة وكيف انزلقت وهي السيدة الكبيرة لهذه الدرجة من الهوان، ووصلت لقرار أن تفلت من نسيج العنكبوت بأقل الخسائر، لذلك اتفقا على الطلاق ، وحصل على مبلغ كبير يعيش عليه ملكا، المشكلة أنها خرجت من الزيجة وهي مسلمة ولا تعرف ماذا تعمل بالدين الذي كان جسرا وقرباناً للزواج من الشاب، شيء التصق بها ولم تعد قادرة على انتزاعه، شيء ميتافيزيقي هيمن عليها، لذلك ارتبكت ولكونها عاقلة لم ترد أن تأخذ قرارا متسرعا أو كرد فعل، أخذت تبحث على النت وركزت على سيرة "محمد "هذا اليتيم المحب لخديجة الحنون الذي لم يقدم على شيء يسيء إليها، نصير الفقراء والمهمشين والضحايا، الصلب في وجه التحديات والعقبات، امتلأ قلبها بفيض من المحبة والحماس، قضت وقتا طويلا على النت، تقرأ في كتب أكاديمية وتشاهد مدائح وأناشيد وذكر المادحين، حتى قررت الذهاب لمصر والتعرف عن قرب على السلف الصالح، والذكر في رحاب الحسين، الذكر في رحاب الحسين، وصلت للقاهرة وأخذت تقضي وقتها بين حلقات الذكر، وكبار المشايخ حيث كان معها مترجم جيد كما أنها كانت تعرف العربية بشكل معقول، وقد استمعت للشيخ محمد الراوي وعمرو خالد وحسين يعقوب وشيخ الأزهر ودراويش جوالين بين الموالد، ومحبين بالقلب والتسليم، وتتبع سيرة الطيبين، السلالة النادرة الشفافة التي هجرت الدنيا وتوكلت على الحي القيوم، ثم عادت مرة ثانية لتنذر حياتها الباقية لكتابة سيرة الرسول بعيد عن العنصريين والكارهين والحاقدين والاستعماريين. سيرة منضبطة يحكمها العقل والحكمة.

تزوج هندية لديها مطعم تقدم فيه الأطعمة الهندية وقد اكتسبت شهرة عريضة في ألمانيا وأصبح قبلة لرجال المال والفنانين ونجوم الميديا والسياسة ولأن جيمي كان يظل فترة طويلة في المطعم بسبب تبطله فكانت فرصة للتعرف على المشاهير والحوار معهم وفي يوم اكتسب ثقة إعلامي شهير خاصة أنه لديه ذخيرة من المعلومات خاصة بالدين الإسلامي، وفي يوم تم الاتفاق معه على الظهور في برنامج توك شو للتعليق على الأحداث الأخيرة الإرهابية، ولأن

جيمي لديه رغبة في الاستعراض فبدأ مداخلته بهجوم كاسح وعنيف على رجال الدين وعلى الدين مباشر واعتبره جزء من مخلفات الماضي يجب التخلص منه للخروج من النفق المظلم الذي تعيش فيه الدول العربية. المنظمات الإسلامية استنكرت كلام الناشط السياسي جمال إبراهيم واعتبرته مغازلة لليمين المسيحي المتطرف، الصحف الألمانية رصدت التصريحات في مكان بارز، وقدمته باعتباره مفكرا إسلاميا، ازدادت الضغوط عليه من التيارات الإسلامية حتى خاف أن يتم اغتياله خاصة مع تلقيه مكالمات هاتفية بها كلمات مبطنة بالعنف، فسافر مع زوجته الى الهند وأغلق الموبايل وظلا شهرا يتنقلان من مكان الى أخر، وعندما عاد كانت الأمور قد خفتت تماما، وقد اعتذر عن تصريحاته واعتبرها نوعا من الاندفاع غير المقبول، ولكن في يوم تم دعوته من قبل شخصية سياسية بارزة لحضور " كارمن" ضمن عروض تقدمها أوبرا برلين، وعلى هامش الحفل التقي صحافيين وسياسيين منهم وزير الداخلية الذي عبر له عن اعجابه بآرائه المستنيرة، والتي تمثل طاقة نور في وسط الظلام الكثيف ثم وضع يده على كتفه في إشارة ود وقال أنت قريب أكثر مما تتصور، ونحن نقوم بمتابعة وحماية دقيقة بدقيقة لك سيد جيمي، بعد هذا اللقاء مباشرة وفي أول لقاء معه شن حملة عاصفة على الدين الإسلامي والوهابية والمشايخ والأزهر، كان لقاءاً عاصفاً تصدر صحف اليمين واليسار وأصبح جيمي في فالقلب من الأحداث، في تلك الإثناء انشغل تماما عن زوجته الثانية ثم تم الطلاق بهدوء وتفرغ لدوره التنويري.

الذي أزعجني أكثر وأوغر صدري تجاهه هو أن البلد تتجاهلني وكأنني لم أنجز شيء رغم أنني أصدرت مجموعة قصص، ثم رواية" الحروب الأخيرة للعبيد"، وزاد النكد والغم أن شابا مر عليّ وطلب مني أن أتوسط له كي يقابل مستر جمال، كي يجد له عقد عمل في ألمانيا، نهرته بعنف وقلت له، روح يا عم، يا عم روح، مش نقصاك، ثم تكرر الأمر بعد ذلك، حتى سببت له ولجمال ولمن أنجبوه . وفي شدة غضبي فكرت في تسريب معلومة كونه مسيحي

الديانة، ولكن استكبرت ذلك واعتبرتها ضعة ووساخة ولا يليق بكاتب أو إنسان يتصور نفسه محترما، ثم فوجئت بخبر صاعق، فقد كان من سيخطب الجمعة القادمة هو جيمي، بصراحة الموضوع أصابني بالجنون، لدرجة أنني إمعاناً في تعذيب نفسي، قررت أن أذهب لصلاة الجمعة في مسجد الرحمة، عندما وصلت كان حشدا ضخماً قد ملأ الجامع والساحة والشوارع المحيطة، وعندما جاء كان في صحبته الدكتور إبراهيم وعندما لمحني ناداني وهذا أسعدني وذوب الضغينة قليلاً عرفه بي، فشد على يدي بقوة، ورحب وقال لي: لنا لقاء، قلت: تحت أمرك، صعد للمنبر وأخذ يلقي الخطبة في عربية سليمة، وكان له حضور مميزً، واستطاع بعمق صوته ودفئه أن يستحوذ على المصلين، ثم بدأ يخطب عن تنظيم النسل وفاض، كثيرا، ثم قال جملة كلسع العقرب، علينا ألا نلوم الحاكم، علينا أن نصلح أنفسنا أولا، فلو كل المسلمين عن بكرة أبيهم، صلوا الفجر ونقوا ضمائرهم، وخرجوا لا يبتغون إلا سبيل الله لحلت كل هذه المشاكل والهزائم الذي يعاني منها المسلمون، المشكلة ليست في الحاكم الظالم يا أخوان، دع الحاكم يظلم، ولكن عليك بنفسك، عليك بنفسك، عليك بنفسك، أجهش المصلون بالبكاء، والتنهدات والحسرات، ظل يجلد المجتمع ولا يقترب من الحاكم بكلمة لذلك عندما انتهت الصلاة خرجت حانقاً وندمت على حضوري، وعدت للبيت ولدي شكوك بكونه يعمل لجهة أمنية، ما هي هذه الجهة ؟ لا أعرف ولكن هذا الخطاب أجندة مشتركة بين الأمن في الداخل والخارج خوفاً من تيارات الإسلام السياسي وتنامي شعبيتهم بشكل مقلق، بعد أيام وجدت أحدا يدق على الباب، فتحت وجدت جيمي في مواجهتي، استقبلته بالأحضان ودخل ورائي وصعدنا الدور الثاني وسحبت حصيرة وفرشتها ثم أحضرت كم شلتة وجلسنا، أخذ يحكي عن الظروف القاسية للعيش في أوربا، وأحسست بضغينة مكتومة تجاه والده، استغربت فالدكتور إبراهيم مثال للرجل الظريف، الديمقراطي السمح، وعندما سمع ذلك مني قال: في الظاهر، قصرت في الكلام فقال، هل تتصور أنه أرغمنا على حفظ القرآن، وكان يضربنا ضرباً مبرحاً،

الدين بشكل ما يشوه الفرد ويجعل منه مسخاً، انتبهت على قوة الكلام واستغربت، كيف تقول ذلك وأنت لسه خاطب الجمعة، قال: كلنا مشوهون بشكل أو بأخر، أنت متدين؟ قلت مش موضعنا، أنا عايز أسمع منك، قال أنا عارف أنك مش مستوعب أزاي أنا أغفل دور الحاكم في هذا الخراب، لكن أنا برأيي الحاكم أكثر تقدما من هؤلاء الجهلة، يجب أن نعترف أن لا حل إلا الجماعة المثقفة تقف بقوة وراء الحكم المدني لسحق أي تطرف ديني، وفصل فصلاً تاماً بين الدولة والدين، أوربا والدول المتقدمة لم تتقدم إلا على جثة الدين، تركيا لم تتقدم إلا بإغلاق المساجد، أنا بصراحة والكلام ممكن يغضبك بس لا حل مع التطرف الإسلامي إلا بارتكاب مذابح رهيبة، يموت فيها مليون أو أكثر ونخضع هذا الشعب، كما أخضع الغرب الشعب الياباني والألماني، قاطعته في غضب يعني نضرب الناس بالكيماوي، وما الضير أنت داخل عليك وباء، وهؤلاء الإسلامجية، وباء يجب تطهير العالم منهم، رفضت الكلام وقلت: هذه رؤية نازية غير مقبولة، ثم حورت الكلام وسألته عن مغامراته في الغرب مع النساء، نظري لي بوجه ينم عن استغراب، مشكلة الشرق أنه يفكر بإيره، هوس جنوني بالمرأة، المرأة ليست موضوعا مثيرا، المرأة موضوع ضمن موضوعات، أنا طول عمري مدلل من النساء، لقد تشبعت، وعموماً النساء طول عمرها شيء ثانوي قلت: وما هي أولوياتك: قال: تقديم رؤية عصرية لصحيح للدين وتخليصه من القراءة الإرهابية المتطرفة، المسلمون أصبحوا وباء، يهدد العالم، لكن يجب أن يتغيروا، يجب أن يعرفوا أنهم عالة على المجتمع الدولي، يجب أن يفهموا بشكل واضح أنهم ليس خير أمة وأنهم لم يسهموا في الحضارة الحديثة بشيء يذكر، مجرد مستهلكين فقط، والمضحك أن تخرج مظاهرات تطالب بمقاطعة المنتجات الغربية، وماذا ستفعل لو امتنع الغرب عن إمدادك بالدواء والصناعة والمنتجات الزراعة والكيماوية، ثم زعق سيعود هؤلاء المخابيل ألف عام مرة ثانية، ثم مد يده وتناول كوب ماء وشرب ثم قال ماذا تكتب ؟

قلت: رواية "مزرعة الجنرالات"، قال: عنوان تحفة، أنا أيضاً انتهيت من كتابة رواية هتقلب الدنيا، قلت والله، ده تطور هائل قال: الرواية له سحرها وفيه اهتمام بها في العالم كله، ثم أخرج أوراق ووضعها أمامي وقال لي: إيه رأيك نكتب رواية مشتركة؟ استغربت، ما له بالرواية والحكاية وكيف تذكر أنه كاتب فجأة وقد قارب على الأربعين ولم يكتب حرفا في الثقافة أو الأدب وقد تكلمت كثيرا عنه مع د.إبراهيم ولم يتطرق بحديث ولو لمرة عن اهتمامه بالأدب والرواية بصفة خاصة، ارتبت في الموضوع لذلك أخذت أحور وأدور ولكن في النهاية رفع الورق ورماه وقال: عندك رواية جاهزة وأنا قرأت لك رواية "الحروب الأخيرة للعبيد"، ولك عين لاقطة وتوصف بشكل رائع، التفاصيل الصغيرة ما ينقصني، أمسك الورق ده وابني عليه وأنا أترجمها للألمانية ووعد في أهم دار، أنا لي علاقات قوية باليمين المسيحي واليسار المتطرف أيضاً والرواية جزء منها يتناول حياة وتجربة" بيتر ابن جريجور سامسا "اللي بابا كلمك عنه ويتناول الحركات الراديكالية، المناهضة للرأسمالية والشركات العابرة للقارات، وده يغازل اليسار والحركات اليسارية، أما القسم الثاني فيتناول، حياة شاب مهاجر من القاهرة وفيه كل ما يغذي الخيال الأوربي تجاه الشرق، زنا المحارم، اللواط، الختان، العنف ضد المرأة، زواج القاصرات، الجماعات الإرهابية ودورها في تخريب المجتمع، حتى اليهود هناك أمثولة لا أعرف من أي أضابير استخرجها يمدح قدراتهم ودورهم في حركة التاريخ ، حسدته والله على لغته العربية السليمة التي لا تشوبها أخطاء؛ وتحسرت على نفسي وأنا الكاتب والذي لا أكتب صفحة إلا وبها أخطاء جسيمة في النحو، بعد أن أنتهي وضع الورق في الحقيبة، وناولني إياها، احتفظ بالحقيبة، أخذت الحقيبة ووضعتها على مكتب صغير كنت اشتريته من سوق الجمعة، بمبلغ زهيد وشرب الليمون وتركني، تركت الأوراق في درج المكتب، لم أقترب من الأوراق، أهملتها ولكن أخذت أفكر في الدوافع التي تجعله يكتب رواية ومصنوعة بهذا الشكل المنظم وكيف واتته الفكرة، وفي يوم أخرجت الأوراق وبدأت سريعا في

قرأتها، وخرجت بانطباع أن هذا الولد غاية في الذكاء ومن الممكن أن تكون الرواية جيدة، عندما يتم تخليصها من سذاجتها وانتهازيها الحقيرة خاصة القسم المخصص لبيتر وأسرته فكرت فعلاً في تصور ودمج القسمين وإعادة بناء للرواية خاصة أن الرواية بعبلها، ثم فكرت ما الذي يضمن لي انه بعد ما يترجمها ويقوم بطباعتها سيذكر أسمي، وهو يبدو منعدم النزاهة تركت الأوراق لقراءتها في الليل، وبعد العشاء أصدر أخي الأكبر سعيد فرمانا سلطانيا أنه من غد سيتم ردم أرض الجبل بعد أن ارتفعت فيها المياه الجوفية لدرجة أن العنب قد جف، والجزء الصغير أعلى الأرض لم يعد يطرح، قلت والمطلوب، قال: لقد اتفقت مع جرار بمقطورة لتحميل أربعمائة نقلة رمل من أرض الحاج عبدالستار لكي تجف ويتم زراعتها، وكانت حجته قوية فكيف نترك نصف فدان أرض بور، وقد قرر على أننا من نقوم بتحميل الجرار توفيرا للنفقات، وكان علينا أن ننام باكرا لأننا سنصحو مع آذان الفجر، المشكلة أنني لم أقم بتحميل جرار قبل ذلك.

(٤)

بعد ثلاثة شهور كنا قد انتهينا من ردم الأرض وتسويتها وزراعتها، وكنا في استراحة مؤقتة، فتذكرت أوراق جيمي لذلك أخرجت الأوراق ووضعتها أمامي وبدأت أقرأ في القسم الخاص ببيتر ابن جريجور سامسا المشكلة في هذا القسم أنه ثرثار في مناطق من الرواية وهناك ابتسار في مسار عدد من الشخوص ولذلك سأقدم تقريرا اختصر قدر الأماكن فلدي كراهية متأصلة للبدانة بكل أنواعها .

تم توزيع ثروة جريجور سامسا على أربع من الورثة وهم، بنجامين ولوكاس وبيتر، وجيلدا، وتم إعادة تكوين مجلس الإدارة وتولت المدير المسئول جيلد المعروفة بالمرأة الفولاذية والتي استطاعت تحقيق نمو مرتفع وأصبحت أسهم الشركة خلال توليها المسئولية من أكثر الشركات تداول في البورصة، ونائب المدير كان بنجامين، العقل المؤثر والفاعل، والذي لا يخطو خطوة إلا بعد أن يقوم بدراستها، لديه ميول دينية رجعية، يذهب بانتظام للكنيسة ومتزوج من ماري ابنة ميلوش وزير التجارة والسياسي الداهية وعضو الحزب ونائب رئيس الوزراء، رشح نفسه لعضوية البرلمان بتحريض من والد زوجته، ولكن رأس الدولة طلب منه الانسحاب لصالح مرشح آخر وقد كان ولذلك تم ترضيته من خلال إسناد رئاسة اللجنة الاقتصادية في الحزب له، يعشق لعبة تنس الطاولة، ملتزم تجاه أسرته، أنجب من زوجته ثلاثة أولاد، يشارك في السياسة بحذر، ليس لدية رغبة في الصعود للصدارة ولكن لدية رغبة في اللعب من وراء الستارة لذلك بعد ضياع فرصته في العمل الجماهيري، أخذ قرارا بعدم المشاركة التنفيذية، فضل اللعب من خلال أروقة الحزب، بل سعى ليلعب دورا من خلال لجنة الأمن القومي، أما لوكاس فرجل تنفيذ، يستلم الورق وينفذ المطلوب بالضبط، على أرض الواقع، ابن شوارع حقيقي، يقوم بالأعمال القذرة من تنظيم حفلات جنس لعملاء، وشراء ذمم موظفين عموم، وساسة، وكسر

الأقدام، وإرهاب الخصوم، والقتل أحياناً، كان يفعل ذلك بإتقانٍ عجيبٍ وروح منطلقة محبة، خلق لهذا العمل لذلك كان لا ينام تقريبا، متوثب جسور يخوض حروبا بلا أخر ويعود ليستغرق في النوم كجثة، دون صمامات أمان حتى قال عنه المحيطون به، بالمشمول بالرضا الإلهي، المحصن، عدواني بالفطرة، لا يسافر بالمطلق إلا تحت ضغط هائل، ولا يبتعد عن الشركة فهي بالنسبة له الكعبة، مركز الكون، الذي يدور حولها، لذلك كان مقر إقامته في فندق اشتراها قريبا من مقر الشركة، والبار الذي يحب الشرب فيه يبعد أمتار عن الشركة، والمطعم، الذي يأكل فيه، الخ، كانت الشركة قدس أقداسه، بخيل يكنز الفلوس، متزوج ويعيش حياة مستقرة ولديه ولدان هاري وجريجور ورغم زواجه لا يتورع عن ممارسة زنا المحارم مع أخته جيلدا، ولكن مشكلته معها إنها لم تكن تأبه بالذكور، كان لها ميول مثلية، ولم تكن تحب أحد، رأيها أن الحب خلق للفقراء، لذلك كان هناك شركات خاصة تتعامل معها في اطفاء نار رغباتها، في أي مكان وبأي صورة، في المكتب، الأسانسير، فندق، كانت ترى أنها ليست في حاجة روحية للجنس ولكن كانت ترى أن الشهوة مكون عضوي، بسيط مثله مثل الماء، فعند حاجة الجسم للماء يتم الشرب، فعند حاجة الجسم للجنس، يتم رواؤه بمادة الجنس، ليس هناك وهم في الموضوع، ولكن طوال التاريخ، يحاول الجنس البشري البشع، أن يصنع هالة غير حقيقية على فعل روتيني بسيط، عبر تطور التاريخ والحضارات، لذلك ترى الانخراط في هذا الوهم سير مع القطيع، من خلال الشعر ،والموسيقى والغناء، والرسم، وبعد ذلك السينما والمسرح، لذلك كانت تمارس الجنس وليس الحب، ولم تطلق عليه مرة واحدة فعل الحب، لذلك كانت تفعله وهي تأكل وهي تشرب في الحمام، وعلى وشك النوم، في النور، في الظلام. في الجامعة حاول شاب أن يغويها بشبابه ووسامته، وبطريقة رومانسية شديدة السخف، النظرات، الزهور، الخطابات الغرامية، الهمسات، بؤس حقيقي لذلك اختارت أكثر الشبان قبحا ودمامة وواعدته وفض بكارتها في احتفال ضخم، كانت صدمة الولد كبيرة، لذلك عندما

انتهى من دراسته الجامعية في الاقتصاد سافر لدولة الإمارات للعمل ضمن شركة دولية تعمل في استثمارات الاتصالات والمعلوماتية، وعندما تواجهها اتهامات ترد بكياسة بأنها يسارية في العمق وتري الجنس حقا من حقوق الإنسان يجب أن يحصل عليه الفرد وقتما يحتاجه، وأن هناك تشوهات في المجتمع الصناعي مثله مثل المجتمع البدائي بسبب الحرمان الجنسي، وعندما أطالب بتوفر الجنس مثله مثل الماء، والطعام، أذُّوب بطريقة ماء الطبقية في المجتمع للوصول لنظام أكثر عدل وتحرر. جيلدا لا تحب الموسيقي ولا السينما ولا الأغاني ولكنها تمارس الرياضة بانتظام، السباحة، حمل الأثقال، البولو، وسياقه السيارات، صبورة تتعامل برقي مع المساعدين وطقم الإدارة، لا تخف من الزمن ولا الموت فقط تعيش اللحظة، ولا تعنيها ماذا سيحدث في المستقبل، دؤوبة كشيطانه، تظل حتى يتساقط المساعدون من حولها، لا يوقفها شيء، لذلك أصبحت في فترة قصيرة نسبياً يدا فاعلة وقوية في داخل براغ وتمددت في الخارج من خلال الحصول على توكيل أهم شركات دولية، شركة بيبسي وشركة هنكل ودخلت مجال البنوك من خلال شراكة متعددة منهم وزير التجارة السيد ميلوش بنسبة ٤٩٪ كانت في مجال رجال العمال بالحصان الأسود القادر على تخطي كل العقبات، بكل الطرق المتاحة وغير المتاحة.

بيتر

الابن الأصغر والمدلل من الأسرة ،لم يهتم مطلقا بثروة والده ورفض رفضاً أن يدخل أي كلية ذات اهتمام بالتجارة، ودخل كلية الآداب لغة فرنسية وعمل مدرسا في ضواحي براغ حيث الأحياء الأشد فقرا وعنفاً وكان مثالياً عف اللسان، يبذل جهدا خارقاً في الشرح ولا يجد أي مردود، سوى السخرية، والتحرش، واللامبالاة، كان يرى أن الحل ليس في المدرسة بل في الشارع، المنزل، النادي، بيوت العبادة لذلك كان عند انتهاء الدوام الدراسي، ينزل للشارع ويقابل التلاميذ، انخرط انخراطا صادقاً يستخدم لغتهم، يفكر مثلهم، يفرح لفرحهم يشاركهم

أحزانهم، كما أن المال الذي يحصل عليه من أرباح شركاته، كان يصرف جزءا كبير في فتح أبواب مستحيل كانت ستفتح له لذلك كان ضيفاً دائما ويتبعه جماعة من الحي وبطريقة ذكية وفطنه كان ينتهز الفرصة المناسبة ويمرر خطابه الإصلاحي، واقتراحاته النافذة، ورؤيته الكلية للأمور الحي، والله والسلام، والمحبة، والكنيسة، ويسوع، وماركس، والتأمل البوذي ورؤى البصيرة للدلاي لاما، وإشراقات المتصوفة، كان له حضور مميز وثقافة رفيعة، وفي النهاية كان الصادق، الذي لا يكذب ويمارس سلوكا دنيئا ،كما تجاوز دورة كمدرس من خلال العمل الاجتماعي، الدعم المالي للأسر الفقيرة، المساعدة في بناء دور العبادة، عمل رحلات جماعية بعيدا عن العمران للتأمل، محاولات القضاء على تجار المخدرات، تنظيف الشوارع الخ حتى سمي القديس، ورغم قلق الأسرة عليه من تجار المخدرات إلا أنهم اتفقوا على حمايته من خلال توظيف بودي جارد محترف يعمل معه كمتطوع في العمل الخير لكي يكونوا على مقربة منه والتدخل في الوقت المناسب كما يكونون عينا عليه، كم تم دعم بيتر كنوع من غسيل السمعة وإضفاء طابع خيري على الأعمال، إضافة لكونه نوع من الدعاية حيث اشترطت الشركة مع بيتر على إضافة لافتة، سواء كان هذا من خلال بناء مدرسة جديدة أو إصلاحها، أو تزويد المدارس بالكمبيوترات، والآلات الموسيقية، وتم توجيه بعض الصحافيين المتعاونين من الشركة والذين يحصلون على مرتبات ثابتة، أو من خلال شراء صحف كاملة، من خلال الإعلانات، أو شراء ذمم رؤساء التحرير الخ، في رحلاته التي كانت تستمر أياما، كانت بالنسبة له حاضنة نقية، كان يتكلم معهم لدرجة أنه كون مجموعة كبيرة من تجار مخدرات، ومتشردين، وقتلة، ولصوص، وقد تم السيطرة عليهم تماما، كانوا مؤمنين به ايماناً راسخاً، ولأنه لم يكن مؤمناً مسيحياً فبحث عن إطار يجمع هذا الخليط، وكان اليسار خاصة أنه قضي فترات طويلة يقرأ في الماركسية والتيارات اليسارية، كان يلقي دروسه ويوزع كتب ماركس، وأنجلز ولينين وتروتيسكي وتم تكوين حلقة يسارية تؤمن بالتغيير التدريجي من خلال الاحتجاج السلمي،

وطرق المنازل والتحاور مع الناس، ثم كانت المفاجأة التي اعتبر نقلة نوعية حيث قامت مجموعة متحمسة من الشباب، دون علم بيتر بتحطيم واجهة شركة ماكدونالد، الغريب أن هذا أسعد بيتر رغم أنه لم يدعم العملية واعتبرها طيشا، ولكن سمح بإقامة احتفال صغير، وفي ذلك اليوم بدراسة خطط مستقبلية وتدعيم فكرة التشوية الرمزي، مثل التبول على العلم، قذف ممثلي الدول بالبندورة بالبيض الفاسد، إطلاق حملة شائعات تخص رجال المال والسياسة لتدمير البورصة، ابتكار نكت، رسومات كاريكاتورية فاضحة لرجال السياسة والمال، مؤخرة عارية، أثداء، أعضاء ذكورية، وقد تم استغلال زيارة الرئيس الأمريكي لجمهورية التشيك حيث قاموا بتنظيم حركة احتجاجية، متنوعة، فقامت الفتيات بتعرية صدورهن وكتب عليها سب لأمريكا ولتموت أمريكا، وقامت مجموعة أخري بالدعوة للتظاهر عبر الميديا ، ومجموعة أخرى لتوزيع منشورات ضد سياسة أميركا الإجرامية، ضد الشعوب الفقيرة، وقد قام بيتر بكتابة بيان باسم منظمة الدرب المضيْ استنكارا واحتجاجا على زيارة الرئيس الأمريكي، وقد فوجئت الحكومة والأجهزة الأمنية بالقدرات الواسعة والمنظمة للجماعة ومرونتهم ونشاطهم الكبير، في ذلك الوقت بدأت الحكومة في التفكير في اختراق المجموعة، والاستفادة من القدرات القوية لديهم، وقد وضعت خطة للاختراق من خلال الضابط في العمليات الخاصة إدوارد فاتسلاف، بانضمام الضابط للجماعة واكتساب ثقة المنظمة، من خلال عقلة المنظم وقدراته التكنولوجية خاصة في مجال الحاسب والانترنت، الذي بدأ ينتشر بشكل وبائي، بدأت وتيرة العمليات الراديكالية، تزيد بشكل مكثف وتأخذ شكلا صادما مروعا، حيث تم اعتماد سياسة إحراج النظام من خلال عمليات نوعية تثير ضجيجاً إعلامياً للفت الانتباه لمطالب الحركة، وهي سن قوانين عادلة وتعميم نظام التأمين الصحي، الحد من نفوذ قوة الشركات الرأسمالية العالمية، ومحاربة الفقر، بناء نظام تعليمي مجاني يغطي كل البلاد، كان بيتر لا ينام وهو يتحرك في طول البلاد وعرضها شارحا، منبها، مهددا، وترك العمل التنفيذي على الأرض لمجموعة وثيقة الصلة به

منهم الضابط إدوارد فاتسلاف، في ذلك الوقت كانت الصحافة الغربية تنتقد بعنف القبضة الحديدية للنظام والفساد المستشري والتضييق الأمني على المجتمع المدني وتركيز الثروة في يد عدد محدود، لذلك قامت المخابرات بتوجيه بالتصعيد الراديكالي حيث أكد الخبراء والمحيطون بالرئيس أن البضاعة الرائجة الآن على الساحة العالمية والقوة الكبرى، هي الإرهاب فمجرد سلسلة عمليات إرهابية محسوبة تخلق خوفا في الداخل وتجد التفافاً وتضامناً داخل القوي الكبرى وتغطية شاملة من الصحف، وكان أول تكليف لإدوارد من خلال تفخيخ سيارة في قلب العاصمة، دون أن تسفر عن شيء يذكر، ثم توالت التفجيرات، فتم استهداف سيارة لدبلوماسي مجري، ثم حدثت مفاجأة غير سارة للرئيس والدائرة السياسية، حيث قامت المنظمة ومن خلال دراجة نارية بإطلاق النار على السفير الأمريكي، فأصيب إصابة بالغة، وقتل في هذه العملية ثلاثة من المرافقين، ثم تفجير سيارة في ميدان عام حيث قتل ستون مواطنا منهم ٢٢ سائحا أجنبيا. مع خطورة الوضع، قام الرئيس بإلقاء خطاب في البرلمان وأعلن منظمة الدرب المضيء منظمة إرهابية، وطالب وزير الداخلية بمصادرة أموالها وأموال المتعاونين معها، وإلقاء القبض على كل عضو وتم نشر صور للأعضاء الخمسين الأكثر خطورة وبدأ الصحف المعارضة والموالية للحكومة تنشر صوره في أشكال مخيفة وعلى رؤوسهم حبل المشنقة، شركة الأخوة للاستشارات القانونية الأم والشركات والتوكيلات التابعة لهم أصدرت بياناً تقطع أي علاقة ببيتر وتظهر بيانات الشركة بخلو اسم بيتر من أي أسهم أو شريك من أي نوع، وقد تبرأت منه ومن إجرامه، وأنها تقف مع الدولة والنظام على أرضية واحدة، وتم نشر البيان كإعلان مدفوع الأجر في كل الصحف واحتل الصفحات الأولي، فقامت المنظمة بجريمة نوعية حيث تم اختطاف وزير العدل وقتله برصاصة في الجبهة فأردته قتيلاً والذي قتله كان إدوارد فاتسلاف الذي استطاع السيطرة على المنظمة وتهميش الأعضاء المؤسسين بما فيهم بيتر الأب الروحي، كان بيتر يري أن اللحظة لم تحن بعد، وأن إعلان الحرب على القوة الظلامية التي

تقود المؤسسات وتختطف الحكم لم تحن بعد بسبب قلة الكوادر المدربة، والإمكانات المادية التي تستطيع الوقوف في وجه نظام مسلح قادر على سحق المنظمة، لكنه كان يري أن الحل الوحيد، هو إنهاك النظام وإحراجه حتى يفقد السيطرة من خلال حرب العصابات ،والتي لا تحتاج الى قوة عددية بقدر ما تحتاج الى جسارة، وإيمان، وبقوة الحماس والهياج الديماجوجى، استطاع إدوارد فاتسلاف أن يغير مسار المنظمة من النضال السلمي الى العنف الثوري، وأن يفرض رأيه ولم يجد بيتر حيله أمامه سوى تغيير الاستراتيجية وتم إعلان الحرب على النظام الفاشي المجرم، وتم التخطيط لتفجير ناقلة محملة بالمتفجرات في أشهر فنادق العاصمة، والذي يعتبر قبلة رجال الأعمال والساسة والفنانين، عندما تم التفجير بنجاح كاد الرئيس أن يجن فعلاً وأقال وزير الداخلية ومدير المخابرات، والأمن الداخلي وتم تعيين قادة جدد واجتمع بهم وطالب برؤوس الفتنة الكبار، رؤساء الهيئات الأمنية، اتفقوا أن انقطاع الاتصال إدوارد هو المتسبب في عجزهم الأمن ولا أحد يعلم أين هو؟ هل هو معهم؟ هل تم اكتشافه وقتل؟ هل انقلب على النظام؟ كانت المعلومات ضئيلة جدا خاصة أنهم يحاولون اختراق المنظمة بأمهر الضباط ولكن فشل الاختراق بسبب التنظيم الحديدي، والتجسس الإلكتروني حيث انشأ إدوارد بالتعاون مع خلية معلوماتية شبكة تغطي الجغرافيا المحدودة التي يعيش فيها المقاتلون، كانت كل المعلومات تصب في غرفة الدرب المضيء والذي يشرف عليها عدد محدود جدا لا يزيد عن ثلاثة، ويتم تغير مقر للقيادة كل ساعات، وإنشاء دوائر عنقودية ،و لا أحد يعرف من يعطي الأوامر، ولا من ينفذ، بيتر في ذلك الوقت كان في أشد الأوقات ضعفا وتهميشا ثم هداه تفكيره للقيام بعملية جسورة ضد هدف سياسي يستعيد به سيادته على المنظمة وبدأ يخطط وحده للعملية، وفي يوم انسلت بمسدس ٩ ملي وركب دراجة نارية وفي لحظة خروج السفير الإسرائيلي من نادي الكريكت عاجله بعدة طلقات وأسقط بيانا على الجثة ، يعتبر فيه قتل السفير رد فعل على جرائم إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني خاصة

مذبحة مخيمي صبرا وشاتيلا، التي تعتبر أكثر الفصول الدموية في تاريخ الشعب الفلسطيني الصامد، حيث قام الجيش الإسرائيلي ترافقه قوات جيش لبنان الجنوبي وميلشيات الكتائب والقوات اللبنانية بحصار المدنيين العزل، وأخذوا يقتلون أطفالاً حيث وجدوا غرقى في دمائهم، حوامل بُقرت بطونهن ونساء تم اغتصابهن وقتلهم ورجال وشيوخ ذبحوا، وكل من حاول الهرب كان القتل مستمرا؛ حيث أحكمت الآليات الإسرائيلية إغلاق كل مداخل النجاة إلى المخيمين فلم يُسمح للصحفيين ولا وكالات الأنباء بالدخول إلا بعد انتهاء المجزرة في الثامن عشر من سبتمبر حين استفاق العالم على مذبحة من أبشع المذابح في تاريخ البشرية ؛ليجد جثثا مذبوحة بلا رؤوس ورؤوسا بلا أعين ورؤوسا أخرى محطمة ! ليجد قرابة ثلاثة ألاف جثة ما بين طفل وامرأة وشيخ ورجل. مجزرة صبرا وشاتيلا لم تكن الجريمة الصهيونية الأخيرة بحق الأبرياء.

ودعا أهالي جمهورية التشيك بارتداء الكوفية الفلسطينية تضامناً مع الشعب الفلسطيني البطل الذي يقف كالجدار ضد العصابات الصهيونية في إسرائيل، كانت ضربة قوية جعلت بيتر يعود قائدا للمنظمة أكثر قوة وطلب بتدويل المنظمة لتدخل شراكة مع كل المنظمات الراديكالية حول العالم لتقويض النظام الرأسمالي المجرم الذي يجفف ثروة البلدان الفقيرة لصالح الحيتان الاستعمارية وقد قام توماس باستغلال قدراته المعلوماتية بتوفير الاتصالات والمال والسلاح من الخارج وازدهرت المنظمة وبدأت تستهدف المناطق الرخوة في البلدة فقد تم قتل السياح، في واحدة من أكثر الجرائم عنف وقسوة مما ألب الرأي العام ضدها، وبدأ الجيش يستلم المهمة ويحاصر المناطق المتحصنين داخلها، كان الجيش يضرب بعنف لا مثيل له لم يكن يعنيه قتل بريء بل كانت عملية حرق أراضي حيث تم حرق البيوت، وتسميم المياه بالطاعون، وقتل أي مشتبه فيه واختفاء قسري، ودفع أموال هائلة للمرشدين، وتم استخدام أسلحة محرمة دوليا، وتم تكوين فرق من البلطجية تحت لافتة التيار الشعبي، والذي ارتكب جرائم مروعة

بحق المناطق المنكوبة، حتى استطاع الجيش في النهاية القبض على الرؤوس الكبيرة بما فيهم "بيتر" وقد اختفي الضابط إدوارد وحكم بالإعدام على عشرة من المتهمين وحكم على "بيتر" بالأشغال الشاقة المؤبدة وقد قامت "جيلدا" بشراء حياته بمليار دولار وهذه البادرة كانت مفاجأة للجميع واتضح في النهاية أن نقطة الضعف الوحيدة لجيلدا هو أخوها بيتر وهناك قصة لذلك

(٥)

قبل الفجر قمنا على صوت الجرار الفظيع، أول من صحا من النوم أخي الأوسط الذي أخذ يدق على الأبواب لم يأبه به أحد، أطلق سائق الجرار نفيرا مزعجا قام على إثره أخي الأكبر وفتح الباب وقال: بطل الخره ده يا حمار، نظر في تلامة وبرود وقال، أنا مركب الزمارة دي مخصوص عشان أصحي الثيران، دخل أخي مرة ثانية وظللت أمام الباب شبه نائم ولسعة باردة تضرب جسمي، قال السائق: أنت واقف كده ليه؟ قلت: عايز إيه ؟

- هات الكوريكات يا بني جوه.

درت حول نفسي فضحك السائق، فتركته ودخلت حجرة الكنب واستغرقت في النوم مرة ثانية، ثم صحوت مرة ثانية على صوت أخي الأصغر فقمت ابحث عن الكوريكات وخرج أخي الكبير بعد أن أرتدى ملابسه ووضع تلفيحه وشال على رأسه، خرجنا فبدت البرودة أشد وقع وأكثر لسع، لم يكن لدي ملابس شتوية، ولا أعرف لماذا لم أكن أطالب، مع أن اخي الأكبر كان يشتري أغلى الثياب، وأكثرها أناقة، وفي الشتاء يشتري البلوفرات والكلسون، وأخي الأوسط كان أقل اهتمام لكن كان يرتدي ملابس ثقيلة وقاتمة، وكان يرتدي طاقية وشالا، خرجت أضم يدي، أريد أن أتداخل في بعضي ولكن لا فائدة، رمينا الكوريكات في المقطورة، وركب أخى بجوار السائق وأنا صعدت فوق المقطورة، التي كانت مغطاة بالندي، فلم أستطيع أن أجلس وأصبحت عرضة للهواء شديد البرودة، توقف الجرار وأخذ يضرب كلاكس، فخرج عامل أعرفه، ركب معي ،ولكنه كان متدثرا بعباية وأعتقد أنها لم تكن ملكه بل كان لوالده، رمى عليّ العباءة وعليه فأحسست بالدفء، لم أكن قادرا على الكلام، أحاول فقط السيطرة على أسناني التي تصطك، حتى وصلنا للجبل حيث كان أخي قد أتفق مع صاحب أرضه تبه عالية مزروعة بأشجار التين ولم تكن مسطحة بل أشبه بالبيضة وكان اتفاقنا أن نساوي الأرض قطعة

واحدة، فرشنا حصيرة قديمة ووضعنا عليها الأكل :طعمية وفول ولبن ومش، وانهمكنا في الأكل حتى نسفناه، وتسللت بين أشجار التين لكي أشرب سيجارة، لم أكن حتى ذلك الوقت أشرب أمام أخي فهذا عيب رغم أنه يعرف ويعرف أننا نسرق منه السجائر وهو نائم، ولكن التقاليد الراسخة، مع إن هناك من يكسر التقاليد مثل خالي أحمد فقد تعلم التدخين وكلما أراد تدخين سيجارة يقوم في غرفة أخري، أو في الشارع، خالي تضايق من الوضع، خاصة في شهر رمضان، لذلك بعد الإفطار أخرج من جيبه علبة سجائر وقال أبا أنا بدخن، وأشعل السيجارة وأخذ ينفخ، وجدي يضرب كفا بكف، ويزفر ويردد ويطلع من منخريه دخانا، ومر الأمر عاديا لي عادة غريبة فكلما انسللت لشرب سيجارة خوفاً أجدني أرغب في التبرز، هل الخوف السبب أم العادة لا أعرف.

انتهيت من كليهما ،وغرست السيجارة في الرمل، وعدت فناولني السائق كوبا من الشاي ،فوضعت الكوب بين يدي للتدفئة حتى برد، فشربته، للشاي البارد طعم لذيذ ومختلف وينفذ للدماغ مباشرة، سحبنا الكريكات وبدأنا التحميل، كنت أني وأخي الأوسط من جانب وأخي الأكبر ومحمد السيد من الجانب الأخر، كان الرمل جافا، وصعب التحميل والهواء يطيره، ويحتاج لقوة عضلية لأن المقطورة عالية، ولكن الصحة للدود، انتهينا من تحميل الجرار وركب اثنان لتفريغه في أرض " العمري "وظل اثنان لدور قادم، استمر العمل حتى الحادية عشر وقد نال مني التعب، ولكن كيف للرجل أن يقول أنني تعبت وإلا يعتبر "خرعا وسوسن"، وعندما توقف الجرار للراحة حمدت ربنا وكنست بجوار شجرة تين ونمت فورا، هي لحظات وتم إيقاظي لكي أأكل؛ أكلت بنهم مسعور حتى انتهينا وعدنا للعمل، كان جسمي قد ارتخى ولذلك كانت العودة للعمل هماً ثقيلاً، أخذت أقذف الرمل بالكريك ببطء حتى رمي أخي الكريك وسب ولعن وقال: يا عم ما تشتغل، هما خلصوا الجانب بتاعهم وإحنا لسه، دب في الحماس مع الغضب وأخذت أرمي بقوة دون أن أرى بسبب الرمل المتطاير، وعندما انتهينا

وكان دورنا في تفريغ المقطورة، رميت الفأس وصعدت المقطورة واستلقيت على ظهري ونمت، ولم أصحُ إلا عند وصول الجرار إلى الأرض ،استمرينا على هذا الحال طوال النهار وجانب من الليل وعندما عدنا كان التعب قد بلغ مداه منيّ ويدي تسلخت تماما، وأخذت أصلب ذاتي، أنهش فيها، آدميها بدون رحمة، فلا أحد له ذنب في مصيري الأسود، أنا فقط من يضع مصيره في يد غيره، لا أجرؤ على أخذ قرار صلب لتغير لمسار فقط أترك جثتي تعوم في الحياة تتلقي الصفعات واللكمات، والوخز دون أن أقف مع ذاتي وقفة ٠حاسمة،أغير مصيري، فقط عويل أهبل واحتجاجات صغيرة سرعان ما تتلاشي.

كانت أمي وزوجة أخي قد طهتا لنا، جلست على الطبلية، ووضع الأكل أمامنا وأنا لا أعرف ماذا أفعل بيدي، فكنت غير قادر على تحريكها بسبب الألم وبرودة الجو، وضعت أمي الأكل ،والكل أخذ يأكل وأن غير قادر على مد يدي، أخذت أنظر إليهم واحد وراء الأخر، ثم انزلقت دموع من عيني مسحتها فتجددت الدموع، مسحت بطرف كمي وتركت الأكل سريعا ودخلت الحمام، لم يلحظ أحد فالكل منهمك في التهام الطعام، أشعلت سيجارة ووضعت الجمرة بين يدي وظللت فترة حتى انتهيت منها وعدت، جلست على الطبلية وسحبت كتف ورك الفرخة، ونزعت عنه الجلد وفركته في يدي، وأكلت حتى انتهيت ودخلت نمت ولم أصحُ إلا على وقع كلاكس الجرار فعدنا، كان اليوم هو الأصعب بالنسبة لي فتسلخات يدي تؤلمني والجرح أخضر ويدي لم تبلط بعد، لذلك في هذا الصباح الكريه كنت أمسك الكريك بأظافري وباطن يدي ثم مع ضغط العمل العنيف نسيت الألم وأنخرطت في العمل بهستيرية وغضب وقوة حتى وجدتني أسقط في فجوة كبيرة، وانزلقت في ممر أسطواني مظلم رهيب وكلما قابلني حائط اكتشفت أنه حائط وهمي، وأنه مجرد غطاء هش، حتى اصطدمت بالقاع الذي كان رطباً، وفي نفس الوقت دافئ، كنت مذعورا فلدي فوبيا من الأماكن المظلمة، وأتصور خلالها أن كل الزواحف السامة في العالم، تزحف نحوي، تزحف بإصرار وقوة، وكأن هناك

ثأر شخصي، أو عقاب إلاهي، تجمدت في المكان منتظرا ما سيحدث مرعوباً فترة طويلة وأنا أتوقع نهايتي، وكنت أتمني أن يأتيني الموت مرة واحدة، مرة واحدة وينتهي كل شيء وينتهي العذاب، واليأس والقنوط والحيرة، ولكن الوقت يمر ولا شيء يحدث وما زلت على قيد الحياة ولم يحدث شيء لذلك واتتني جرعة شجاعة وتمدد من وضعي الرحمي، وتحسس المكان، ثم تجرأت وبدأت أسير مسافة بسيطة على ركبي، لم أكن أرى شيئا، ولكن الهدوء النسبي جعل عقلي يقظا، لذلك بدأت أستكشف الجحر على فترات طويلة وأثناء تجوالي في الجحر وجدته مصمتا وأمنا تماماً من حيث البناء ؛فالسقف صلب وكأنه مصنوع من الخرسانة، وليس هناك أي كائن كبير يستطيع أن يدخل، ولزيادة التأمين فكرت في أن اصنع شراك من المواد المتاحة مثل عيدان صلبة وفروع شجر برتقال، وعيدان جازورين ولا أعرف من أدخلها لهذا المكان؟ ومن حفر هذا الجحر اللعين؟ هل هو إنسان انقطع عن العالم وحفر حجرة؟ أم حيوان ذكية له قدرات وصلابة لكي يصنع بيتا آمنا، ظللت أجوس في المكان بحواس الأعمى، مر الوقت، وانطبع داخل ذهني حدوده وتفاصيله ،المكان نظيف تماما، رغم ذلك لست آمنا، فأنا مجرد أعمى لا أرى بعيني وكل فقد يكون هناك خطر ما، خطر قاتل، يختبئ تحت ستار هش، بيت عنكبوت ثم يتم إزالته والانقضاض، مازال داخلي قوة مرعبة الوهم، الوساوس القهري، والانهزامية والضعف البدني، والإحساس المرضي بالاضطهاد، كل هذه الأمراض داخلي، وأنا أمارس عملي في الحياة ككائن طبيعي، فما الذي يمكن تصنعها العزلة؟ يجب أن أنتبه لذلك وأعمل مصدات روحية وفكرية تقيني شرور العزلة لكي أنجو، لكل داء دواء وحربي الآن ضد نفسي، كيف أقاوم أمراض العزلة؟ هذه الفرصة لن تتكرر مرة ثانية، على أن أمسك بها بيدي وأسناني، وكل ذلك يتحتم على استخدام العقل، لذلك كان عليٌ أن أأمن حاجاتي الأساسية من الماء والطعام ثم الأيمان بأن بقائي أو خروجي، أو موتي أو حياتي مرتبط بعامل غيبي ولا حيلة لي، بالتالي عليّ أن أتوقف عن الخوف، وأن أمارس حياتي وأن مطمئن تماما كجثة،

وأول شيء يجب فعله لكي أشعر بأنني تخلصت من الخوف والقلق هو النوم، الاستغراق في النوم كي أصحو وأفكر بشكل جيد، فالتعب الجسماني يغيب العقل ويصبح فريسة للهواجس والظنون، والشكوك، لذلك استسلمت واستغرقت في النوم، وعندما صحوت استعدت صحتي وذهني انتعش ووصلت لخيار مريح، أن هذا الجحر هو قضاء وقدر ولن أفلت منه ما حييت، فظروفي النفسي والبدنية، جعلت من هذا المكان مناسباً لأمثالي لذلك بدأت التفكير في كيفية تحسين شروط العيش في المكان، أول شيء الإضاءة يجب أن أضيء المكان، ثم هداني التفكير للحشرات المضيئة مثل الديدان والخنافس واليرقات التي كنا نصطادها ونلعب بها ونضيء المكان في الليل في رمضان بدل الفوانيس حيث نضعها في علبه بلاستيك شفافة، زحفت على بطني حتى وصلت لفوهة المدخل وجدته مردوماً ومغلقا، أسعدني هذا بدأت في حفر مدخل أخر عن طريق مختلف ولأني كنت أعرف المكان فكنت اعرف الاتجاهات المناسبة لذلك، وهداني تفكيري للحفر باتجاه المكان الذي كنت أشرب فيه السجائر وأتبرز، لماذا؟ لأن به أشجار عالية، وأرضها منخفضة، ولا أعتقد أن صاحبها سيقتلعها في الوقت القريب لأنها ملك لرجل من البلدة ولكنه يسكن في القاهرة مديرا في واحدة من الشركات العامة ولا يأتي للبلدة إلا كل موسم ليبيع الثمر ويقبض الثمن ويحاسب ابن عمه على تكاليف الأسمدة والري، وغيرها، ويعود مرة ثانية، رفعت يدي علامة النصر في ابتهاج وفرح، وبدأت في تنفيذ الخطة، ولكني جائع، أخذت أتحسس المكان حتى اصطدمت يدي بفأر جاف، يا الله، نظفت الفأر من الشعر المتبقي وانتزعت رأسه ورميتها وأخذت أمضغ في بقاياه، لم يكن طعمه مناسباً ،ولكن يجب على البقاء على الحياة بشراسة حتى لو في جحر، أخذت أحفر في دأب وحذر أيضاً ،فغرست يدي في دودة فالتهمتها، ثم بدأت تتوالى الهداية الربانية، صرصار، خنفساء، أحفر بدأب حتى نجحت بذهني المتوقد من تحديد المكان المناسب وخرجت ملتصقاً بشجرة تين قديمة، كان النهار في أوله وكان المكان مصمتا، مبهجا، وكأني أدم ولدت وحدي في هذا العالم، خلعت

ملابسي المهلهلة مبتهجاً رغم برودة الجو، سّرت أبحت عن ثمار تين، ولكن لم أجد لذلك قطعت قحف تين طري وخلصته من الشوك وأخذت أقطم فيه، كانت العصارة المتدفقة وأنا ألوكها شهية، ومشبعة وعندما انتهيت كانت لدي حاجة للشرب ،بحثت فوجدت قحف طين مطوي على هيئة مركب، وبه ماء من ندى أو أمطار شربته وبحثت عن أخر لم أجد، ثم عدت مرة ثانية لجحري، أخذت أضرب ألاف المرات بيدي الفتحة حتى بلطتها وأصبحت صلبة جدا ولها حواف حادة، بحثت عن شكارة ملح فارغة وضعتها على فوهة الجحر وفوقها فرع شجرة تين، فأصبح الجحر مُؤمِناً تماما، دخلت لجحري منزلقاً فبدا الأمر وكأنه لعبة، حتى وصلت لمكاني الثابت، جلست أفكر في الحياة، في الماضي وثقله، في المستقبل الغامض، وتذكرت أمي والراحل أبي، كانت رحلة حياة أبي شديدة الشقاء ودائما ما يخطر ببالي سؤال هل شعر مرة واحدة بالسعادة؟، كم حلم له قد أجهض، الحلم بالستر من خلال السفر لليبيا والعودة مكسورا مجروحا من غدر صاحب العمل، التنقل بالتفكر في حيوات أسرتي وخيباتهم الضائعة وقد أورثاني خيبات متتالية، وكأن الخيبة بالوراثة، ظللت هكذا ومن التعب عدت للاستغراق في النوم وعندما استيقظت خرجت من الجحر فوجدت المساء، قد هبط، وقد شعرت بالجوع الشديد، بحثت في المكان لم أجد شيئا، ذهبت للخص في الأرض الذي يتم التحميل منها الرمل، لم أجد سوى عدة الشاي مقلوبة، وقليل من الحيش الجاف، اخذت أجرش فيه حتى انتهيت ولكن انفتحت رغبتي في الأكل، سحبت جلابية قديمة لي معلقة في خشب الخص ارتديت على اللحم حتى تخفف حده البرد قليلاً وسرت حتى الأرض المنخفضة التي يكثر فيها الزراعة وإن لم أجد فهناك البردي والمستنقعات وهي بها أسماك والحشرات عموماً والمضيئة بشكل عام، عندما وصلت تذكرت أنني لم أدخن منذ سقوطي في الجحر، بدأت أشعر برأسي تؤلمني، ولكن كان لدي تصميم لا رجعة فيه على السير في مشروعي، فدخلت أبحث عن أسماك لم أجد إلا بعض الضفادع، وكثير من الحشرات فوجدتها معلقه على ورق البري،

أخذت اصطاد منها وأضعها في علبه بلاستيك وجدتها في خص صاحب أرض، جمعت كمية كبيرة منها طوال الليل وفكرت، لو هناك ديدان لخلقت جوا بهيجا، مسليا وأنا أتابعها وهي تتحرك ببطء في الجحر وعلى جسمها خطوط مضيئة، فضحكت، وأنا عائد وجدت شجرة كافور عالية جدا، فغطيت العلبة البلاستيك، وصعدت أبحث عن بيض اليمام والحمام داخل العش، وقد كان، فقد وجدت الكثير من البيض، كسرته ورميته داخل فمي مباشرة، وصدت ثلاث أزواج يمام وعدت ثانياً حيث جحري، ولكن لم أدخل مباشرة، جلست في الخص حيث الظلام يلفنا ثم بحثت عن علبة كبريت في جدار الخص، حتى وجدتها أشعلت عود ثقاب في ورقة وجمعت قحوف تين جافة ووضعتها على النار وأحضرت عدة الشاي وعملت لنفسي كوباً من الشاي الأسود وبعد أن شربته، دارت رأسي تماماً، وأحسست إنني وقعت في فخ، فخ مريع، كيف لي أن أدفن نفسي على الحياة، في هذا الجحر اللعين، كيف لي أن أرتضي لنفسي أن أزحف على بطني كدودة في جحر حقير لا يليق بالبشر، واستغربت من نفسي كيف تغير حالي وكيف لكوب شاي لعين أن يغير منظوري للحياة والناس والطبيعة، استرخي جسمي تماما، وراوح ذهني بين العودة للحياة الطبيعة والنضال، أو العودة لجحري، ظللت هكذا حائرا أرتعش من البرودة حتى، بدأت تباشير الصباح تلوح، فأطلقت اليمام يطير وانزلقت لجحري للتفكير أكثر في هذا الموضوع الملتبس فعلاً.

تركت الحشرات تلتصق بالسقف فبدا الجحر منيرا ابتهجت أكثر وأنا أراه على طبيعته بدون تخيلات، أخذت أتجول فيه بهدوء، وأختبر صلابته وقوته، والمنحنيات، كانت شبكة معقدة فعلا فرغم مكوثي فيه لفترة طويلة إلا إنني لم أتعرف على جغرافيا المكان، وكلما سرت فيه وتعمقت وتصورت أني أبتعد أجدني قريبا جدا عن طريق مدخله، حتى يئست وقلت فليكن ما يكون، ماذا سأكسب من المعرفة هو في النهاية حاضنة جيدة لي ولا يسبب لي قلقا، ظللت هكذا فترة طويلة حتى نسيت الزمن والناس، والكلام وأصبح روتين حياتي الخروج

بالليل والتجول بحثا عن طعام مغذٍ خاصة أن معدتي اتسعت وأصبحت بديناً رجلي أصبحت تزن أكثر من عشر كيلوات وربيت كرشا مرعبا، حتى الجحر أصبح يضيق علي وأجد صعوبة في التجول فكنت أنزلق داخله وأظل نائما في وضع صليبي دون قدرة على التقلب وساعات كنت أقوم مفزوعاً بسبب انسداد أنفي بالرمل الذي أسحبه من سقف الجحر، أقوم باحثا عن هواء لا أجد أظل أصارع لتنظيف أنفي والدفع بقوة للهواء لكي يسلك مجراها حتى جحوظ عيني وفي اللحظة التي أتيقن فيها الموت ينفذ خيط هواء ويتدفق في الرئة ساعتها أبكي لعودتي للحياة مرة ثانية، ما سر هذا التشبث بالحياة، ما هذه الرغبة المحمومة في هذا التكرار الأبدي، فما الذي حدث أمس، لا شيء ما الذي سيحدث غدا، لا شيء، فقط أظل مستغرقاً في النوم، أو الخروج باحثاً عن طعام، أجر رجلي كفيل مريض في النزع الأخير، وفي يوم كان شاقاً علي حيث بحثت عن أي طريدة لم أجد، خاصة إنني لم أعد قادر على الحركة فمجرد أن أسير عدة خطوات أجدني متعبا وأجلس حيث كنت، بدا الصباح يلوح دون وصولي للجحر، الندي يتسقط، ورائحة زهور البرتقال تنتشر في الجو، أشجار التين بدت تخرج أصابع التين المزهرة، أسير والعرق يسيل خطوط، فروع العنب تنبت بأوراق صغيرة بديعة، الأوراق تهتز مع النسائم الباردة، أشجار النخيل، التوت، احتفال الربيع بالكائنات، ما عداي، أنا الوحيد المنبوذ والضائع والحزين في هذا البراح، أنا الوحيد الذي يشعر بكونه دمل في جسد هذا الجمال الفاتن، خطوت خطواتي الأولي على الطريق العمومي، وعندما راني طفل صرخ وقال: عفريت، فالتف رجال يركبون االجَمال ،وعندما رأوني تسمروا في أماكنهم وأخذوا ينظرون إليّ في خوف ودهشة، ساعتها خفت وأطلقت ساقي للريح فقالوا: ليس عفريتا .

ونزل عدة رجال وأخذوا يجرون ورائي حتى حاصروني، وبيديهم جدور الخيزران والعصي وقد أحاطوا بي فقلت: لست عفريتاً أن بني ادم أبن فلان الفلاني، قلتها ببلبلة لسان ورغم ذلك وصلت الرسالة فارتخت السواعد، وتقدم مني الجَمال وتم سحبي ورفعي على

الجمل، وعادوا للبلدة وأنا معهم ،وكلما تقدمنا تجاه البلدة زاد عدد الناس الذين يقابلونني والأطفال والنساء عندما يروني يصرخون ويهربون كانت هيئتي مخيفة، لأنني لم أكن قد حلقت لحيتي، ولا شاربي وجسمي كان مسودا ورائحتي كريهة، وعيني تنظر في اتجاه واحد ولونها أحمر فبدوت كوحش بري، والكل يسأل ويستفسر ويشفق ويشمئز ويحتقر، وينهش وأنا لا حول لي ولا قوة، راكب فوق الجمل، أنظر الى أشجار التين، وحدائق البرتقال، والناس ولدي رغبة في أن أقول أى شيء، ولكن لساني عاجز تماماً عن النطق حتى وصلنا للبيت كانت البلدة عن بكرة أبيها قد تجمعت أمام البيت والشوارع المحيطة وكلما تقدم الجمل يوسع الناس الطريق وينظرون إلي وكأنهم يرون كائناً سقط من الفضاء، برك الجمل وأنا أنزل حدث لي رعب، فلو حدث هياجا سأسحق تحت الأقدام، وعندما خرجت أمي وكانت عجوزا تنظر بعين كليلة وقامة منحنية، وتأكدت من وجودي فسقطت مغشياً عليها.

حلم

(١)

أثناء ذهابي لمدرسة أبو غالب الإعدادية حاملاً الشنطة المصنوعة من القماش والذي اختفي لونها الاصلي بسبب الغبار وبقع زيت وقد تقطعت يدها وقد تحولت لهلاهيل كنت أحلم أن أجد المدرسة قد تهدمت على رأس الناظر والمدرسين، أو تسمم الأساتذة بطريقة غامضة، أو في أقل الأحوال أن يغيب مدرس الرياضيات، والعلوم، والعربي، حيث كانوا يمثلون أدوات رعب. رعب حقيقي، رعب يشلني عن التفكير ويصيبني بالكأبة ويفقدني الرغبة بالمرح أو اللعب مع أصحابي من تلاميذ أولى تاني، مع أنني كنت أتصور لسذاجتي أنني كبرت ودخلت المدرسة الإعدادية ولن يتم ضربي وقد كانت سعادتي كبيرة بالتخلص من حزمة المدرسين الأوغاد، ولكن صدمني جاري الذي يكبرني في العمر حيث قال: أنت فاكر الاعدادية لعبة، وأقسم بالله الأساتذة على أقل غلطة، مد إيدك على طول مفيش رحمة والخيزرانة بتقطع الأيد وهي نازلة، ده أستاذ العلوم يضع الخيزرانة في الزيت عشان الضربة تطلع بالدم على طول، قلت يا نهار أسود قال: هو هو دا أنت بتحلم، أي دي في أي سي أيه، خدوها نصيحة، أنت هتتشرح يا عوبد وأخذ يضحك.

في المدرسة الابتدائي كان المدرسون في غاية التوحش، عاهات نفسية، لا يصح بالمرة أن يقوموا بالتدريس بل يجب أن يتم وضعهم في مصحة، فقد كانوا يتنافسون في التنكيل بنا نحن التلاميذ الصغار في مدرسة أبو غالب القديمة، لذلك كنت متعثراً طوال مراحل التعليم، وأحصل على الحد الأدنى من الدرجات كيف لتلميذ مشبع بالخوف أن يستوعب شيئا، أو يتميز في شيء عندما كنت أرى الخيزرانة، تلب في يد الأستاذ يركبني ذعر وتشوش ذهني، عندما يقوم بالشرح تجدني في مكان آخر، كنت تلميذا خاملاً غير مميز في شيء، رغم أن والدي

أحضر صديق أخي ليقوم بشرح الدروس لي في البيت، كان ما يخطه بالنسبة لي في الكراس لوغاريتمات، يظل يشاور ويرفع في صوته، ويكتب أمثلة بخط رائع وجميل، وعندما يطلب مني الكتابة يتحول قلم الرصاص في يدي لسكين، أظل أضغط عليه، وأحرك يدي بصعوبة وكأن بي شلل، وما أخطه يكون عبارة عن خطوط "ملعبكة" فيصفعني على قفاي، فتصدم رأسي بالطبلية، أفهم يا حمار، أفهم يا غبي، وأبي يقول له: قطع جسمه الحمار دهه، حتى مل منيّ فتوقف عن إعطائي الدرس، وكان يقول لي لو فلحت تعالي ابصق على وجهي ولو مت تعالي طرطر على قبري، ولذلك كانت المذاكرة في البيت هما ثقيلا ، أضع الطبلة واللمبة نمرة عشرة ومجرد أن أنظر دقائق في كتاب القراءة، يطلع على النوم فأدعك عيني كي أبعده عنى، ولكن يهاجمني بإصرار، فتغمض عيني وترتخي رأسي فجأة ؛فأنتبه مذعوراً ناظرا حولي لأطمئن على عدم رؤيتي أحد، أقوم كي أنفض الكسل عني وأخرج للحمام ثم أعود، مرة ثانية مركزا تماما ولكن تسقط رأسي مصطدمة بالطبلية، أحيانا ينتبه أبي، أو أمي وأحيانا أنسل وأنام بهدوء دون صوت ،ثم يكتشفون أنني نمت فيظل أبى يشتم فيّ دون أن يوقظني، عندما أكتبت واجب العربي فيكون بسبب الخوف، أما الحساب فرغم أنني أحفظ جدول الضرب جيدا ولكن بالنسبة لي متاهة.

الشيء الذي كنت أفضله هو سماع الاذاعة ومشاهدة الأفلام، ولأننا لم يكن لدينا تليفزيون، فكنت أذهب لجار لنا مع أولاد الجيران ونتسلل دون حتى أن نلقي السلام أو نخبط، نجد الحاج محسن مكوع على السرير النحاسي أبو ناموسية، وكان هذا السرير بالنسبة لنا شيء عظيم جدا، فقد كنا ننام على الأرض كالسردين بجوار بعضنا، يأكلنا القمل والبراغيث والصقيع، ولم يكن لدينا غرفة مستقلة كأولاد الحاج لذلك كنت أنا وأولاد الناحية نحسد الحاج وأولاده، وحتى ملابس أولاده كانت بيجامات نظيفة، ونحن نرتدي الجلابيات، أو القمصان الدمور وبجواره زوجته السيدة نفيسة أم عبدالعظيم تضع اللحاف على رجليها وتشاهد الفيلم،

أحيانا يتأخر بدء الفيلم بسبب الإعلانات السخيفة، "لاكتوال أي لايكت، سيجنال ٢يحمي أسنانكم ضد التسوس، شاي الشيخ الشريب، الخ أحياناً ينام الحاج وزوجته ونظل حتى ينتهي الفيلم دون أن يطردنا، وأحيانا يدخل علينا شاب من أولاد الحاج ينهرنا روح ياد يا بن الكلب أنت وهو، أنتم مالكوش أهل تسأل عنكم، ويصفع العيال على أقفيتهم ولكن لم يضربني مرة، كنت جارهم القريب من البيت وكنت أشعر أنهم يعاملوني بشكل مختلف وقد عرفت بعد ذلك أن الحاج كان صديق أبي في " مقية: أنفار الكوريك السماوي لتسبيخ البطيخ، والعنب، والتين عند الغير، والكوريك عبارة عن اسطوانة من الصاج أو الصلب طولها نصف متر ولها حلقة داخلها يغرس فيه عصا طولها متران ويتم الحفر بجوار جدر الشجر أو الخضروات وطول البركة حسب نوع الصنف ورغبة صاحب الأرض، ثم يلقم أحد وراء الأنفار بالسباخ والكيماوي، ثم يردم بعد ذلك، ودق البركة فن ليس سهلا فيجب أن تسيطر على الكريك حتى يسقط في البركة مباشر ولا ينحرف هنا وهناك ،فتهدر طاقتك وتصبح نكتة الأنفار .

وأبي عمل معظم حياته بالكوريك، ولكن يفتح الله على النبي أدم من حيث لا يدري، فكنا نعيش في ضنك حقيقي، ولو الجاموسة التي تدر علينا اللبن والجبن والمش واللبن الحامض لكان حالنا والعدم، ولكن في كل الأحوال كنا مستورين، وغرس فينا أبي وأمي الكرامة وعزة النفس وعدم الدناءة حتى لو مت عن الجوع، لذلك لا أتذكر أبدا أنني أكلت شيء عند جار لنا أو دخلت مع صديق من جيراننا بيته وعزموا على بشيء وأخذته، رغم أن جيراننا من أكثر الناس ثراء في البلدة، وعندما أشتري أبى تليفزيوناً توشيبا العربي بالقسط، كانت فرحتي رهيبة، فكنت لا أترك برنامجاً أو أغنية، وكنت أستغرب من وفاة مغني مثل عبدالحليم حافظ وفريد الأطرش وأم كلثوم ورغم ذلك أجدهم يقفون على المسرح، وكنت أتصور أنهم يأتون بهيكل عظمي ويلبسونه ملابس ووجه مرسوم، آه والله، ويضعون تسجيلا لأغانيه وهو يتطوح بعد ذلك وعندما كنت أرتكب خطأ كان أبي يعاقبني بعدم مشاهدة الفيلم العربي أو المسلسل وكنت أظل

أبكي بالخارج حتى يسمحوا لي بمشاهدة الفيلم، بل أنني تعلمت القراءة بسبب السينما حيث كنت أشتري صحيفة الأخبار، يوم الأحد لأنها كانت تعد صفحة كاملة لبرامج التليفزيون خلال الأسبوع، ومن هنا بدأ اهتمامي بالقراءة فمن خلال قراءة الأخبار الفنية، ثم انتقلت لقراءة المواضيع السياسية والاجتماعية، وعندما ينتهي الأسبوع أكون قد قرأت الصحفية كاملة، كان العالم فقيرا وبائسا؛ لذلك كنت أعيش في الخيال، في سحر السينما، وعوالمها الثرية، كنت أحلم بعالم أخر وناس أخري.

بعد شرح الدرس قال الأستاذ: غدا امتحان شفوي واللي مش هيحفظ القصيدة هو عارف، أصبت برعب، فمعني ذلك أنه سيتفنن في تعذيبناً، يجعلنا مثلاً نضرب بعضنا البعض، أو يجعل البنات تضرب الصبيان، نسير في الحوش على الركب المدروسة بالحصى الصغير، نرفع أيدينا طوال الحصة، أو نحضن العروسة ويتم ضربنا على المؤخرة، أو يحضر الفراش ويقيدنا حيث الأقدام فوق مما يسمح للأستاذ بحرية الضرب بالراحة، وبالقوة التي يريد، أو يجعلنا نقول أننا حيوانات لا تفهم، أن يظل يهين فينا طوال الحصة، مع أن هذا الأستاذ يكون في منتهى الرقة بالنسبة للبنات، ولا يتوقف عن التحرش بهن، وأنا شاهدته مرات كثيرة وهو يضع يده على قفا البنات أو يملس على ظهورهن وقد كان يظل فترة طويلة بجوار فتاة جميلة يشرح، ويمرر يده على نهدها أو يملي لنا إملاء ويختار كلمات غاية في الصعوبة، وفي يوم أخطأ تلميذ فظل الأستاذ يضربه بوحشية رهيبة وكأنه يضرب في ثور أو حمار، لقد انتابته لوثة جنون حقيقية، وجهه الأحمر المقلبظ، منتفخ بالغضب والعنف، عينه جاحظة، فبدا مرعباً، ولم يتوقف إلا بعد أن دخل الفراش، والمدرسون، وقيدوه وسحبوا الولد خارج الفصل، أخذنا نبكي خوفاً من العقاب وحزنا على التلميذ وعندما دق الجرس، ولم يأتِ الدور علينا، كانت سعادتنا رهيبة، لذلك اتفقت أنا وتلميذ أخر على الهرب، قفزنا من على السور وهربنا في الغيطان، وكان يوماً لا ينسي حيث علمني صديقي تدخين السجائر من خلال

جمع الأعقاب من زبالة المستشفى، وذهبنا للبحر وتسكعنا حتى قرب العصر، حتى وجدت أخي الأكبر يركب الحمارة ويأتي من بعيد جريت فنادي عليّ بقوة فتوقفت قال: تعالي، أعرف إنني لو جريت سيلحقني في النهاية وسأكل علقه رهيبة، للأخ الكبير في البلدة حقوق الأب بل تفوقه لذلك عندما يستبيح الأخ أخوته الأصغر سنا لأنه في النهاية أمِنَ العقوبة لذلك يسيء استخدام السلطة! لذلك عدت مطرقا الرأس وأنا افتعل البكاء حتى يشفق عليَّ، ولكن عندما وصلت قبالته ضربني بالخيزرانة على ضهري عدة ضربات سريعة ومتلاحقة، فصرخت، وجريت فقال: قدامي وكلما لحقني يضربني حتى عدمني العافية، وعندما وصلت كنت أشهق ومتقطع النفس من الضرب والبكاء، وتم حبسي في الغرفة المظلمة، وظللت فيها مرعوباً، والظلال تخلق كائنات مرعبة حتى نمت، ولم أستيقظ إلا على يد أمي والليل قد دخل، صعبت على نفسي فبكيت فطبطبت على أمي وسحبتنا لكي أكل كنت أرفض وأتشبث في الأرض وهي تزحفني زَحْفاً، جلست على الطبلية وأنا مطرق وأبي يزعق فيّ "كُل ياد هو موتك يعني!؟"

قلت: كنت عايزه يموتني ، رد وكمان لك عين، قلت: الأستاذ بيضربنا، قال:

هو يضرب إلا البليد، أنا بكرة أروح المدرسة وأخليه يمدك في الطابور، والله ما أنا رايح، وقمت من على الأكل، قال: سيبوه ياك يطفحه، دخلت الحجرة وانتظرت يائساً هذا الصباح اللعين، ظللت أحلم بالانقطاع عن الدراسة، والعمل مع أخي كمساعد بناء وبعد ذلك أكون معلماً بناء وأشرب السجائر كما أشاء دون خوف، أو عدم وجود فلوس، لم يذهب أبي معي فهو دائما مشغول في الغيط يا أجري يحمل الكوريك السماوي للتهوية عند خلق الله، لذلك ذهبت وحدي وأنا أرتجف رعباً فقد يكون المدرس بلغ بغيابي وهذا وارد، ولكن لم يحدث شيء فقد وقفت في الطابور وتم تحية العلم ثم مسك الناظر الميكرفون، وصعقت وأنا أسمع اسمي ثم اسم زميلي، خرجنا من الطابور منكسي الرؤوس، حتى أصبحنا في منتصف الحوش، المدرسون

يقفون كالقوس بجوار الناظر ونحن نرتجف كفأرين مبلولين، أنت بتهرب من ع السور يا كلب أنت وهو، انفجر زميلي السيد في البكاء وقال:

أخسر ديني يا حضرة الناظر أمي اللي قالت لي تعالي بدري عشان تروح تكثر الوزة من عند بيت جدك، ضحك الأساتذة وأنا لم أستطع تمالك نفسي، ولكن كتمت الضحكة ولكن خرجت مني خخخخخخ، جاء الناظر بهدوء وضربني عدة خيزرانات وراء بعضهن، صرخت وأخذت أجري، قال: تعالي وأخذ يشاور بيده تعالي، وأنا أقول هتضربني، زعق بصوت عالي فجريت نحوه فوضع يده على كتفي، وقال: يعني أبوك متمرمط عند اللي يسوى، واللي ما يسوى عشان تتعلم وأنت بتنط من فوق السور، ووضع زلطه بين أصابعه، وأخذ يفرك في أذني وأن أصرخ، ثم قال: أجري، وضربني على مؤخرتي، فجريت وأنا أبكي وعندما دخلت الفصل كنت أسمع صراخ زميلي، فوضعت رأسي على التختة، وكأني أبكي وأخذت أضحك على زميلي وتكثير الوزة، ثم دخل وهو يتنطط لعدم قدرته على تحمل ألم رجله، فقد تم ضربة عشرين عصا وهو مقيد من الفراش، بعد هذه الوقعة توقفت ذاكرتي على إمدادي بأي معلومات تخص المرحلة التي رأيت فيها التلميذ يُسحل، لا شيء، كيف مر العام؟ لا أعرف! ولكن الذي أتذكره جيدا هي تلك المناقشات التي جرت بعد أجازه الصف السادس الابتدائي حيث كانت المرة الأولى التي يتبلور داخل ذهني رأي ووجهة نظر، فقد فكرت طويلاً في هل أستمر في الدراسة ؟ وأنا الذي أمقتها، أم أتطوع في الكتاب العسكري لكي أكون رقيباً، وأتدرج في المناصب، وأحصل على مرتب ويبعدني عن هذا البيت اللعين، أو أتعلم المباني وبعد ذلك أستقل بنفسي، أخذو يلحون على ويهددونني لكي أذهب للمدرسة الإعدادية، ولكن كنت عنيدا ككلب أرمانت، وركبت رأسي، وأخيرا تم لي ما أردت وانتصرت ولذلك قلت: أتطوع في الكتاب العسكري، رد أخي وقال: على جثتي تطوع في الكتاب العسكري وتعيش نتن ندل، كان أخي قد قضي ثلاث سنوات في الخدمة العسكري، وذاق الأمرين على يد المتطوعين لذلك

كان يكرههم كراهية التحريم، خضعت وقلت: أروح الشغل معاك في المباني، قال: خلاص تعالي شوف الشقاء بعينك بكره تندم، وصدق حدسه فحياتي كلها سلسلة ندم في ندم وكأني لا أمتلك عقلا يرشدني مرة للصواب، لكن دائما وأبدا شارخاً في الغلط وكأني بعير أحمق.

خرجت في اليوم التالي وأنا في غاية السعادة، أخيرا تحررت من التعليم يا بشر، وأي مُدرس يتكلم معي نص كلمة همرمغه في الأرض، أخذت جلابية فلاحي قديمة من ملابس أخي الأوسط ووضعتها في فارغ شكارة أسمنت الذي نضع فيها العدة، وحملت الشكارة وذهبت مع الأنفار الى بيت إبراهيم المحروق، عندما وصلنا للبيت طلب مني أحد العمال أن أحمل الطوب من الشارع وأرصه بجوار حائط لم يكتمل، رصصت الطوب بطريقة سيئة فضرب الطوب بقدمه وقال: مش كده، وعلمني طريقة رص الطوب وحمله على الكتف، حملت الطوب بعد رصه ورفعته فانفرط وسقطت طوبه على كف رجلي فخطفت روحي، فضحك العامل فتماسكت وأخذت أجز على أسناني من الألم، ثم عدت وحملته على كتفي وسُرت، أيوه كده، قال، وظللت أحمل له الطوب من الشارع حيث رصت العربية نقلة الطوب، حتى جاء المعلم وصعد السقالة، فقال كفاية كده، ثم صعد المعلم فقلت أنا عايز احدف طوب، رفض وقال استني شوي، ثم قام يحدف الطوب للمعلم بعد أن رمي السيجارة، وأخذ يناول المعلم حتى الظهيرة فأحضر صاحب البيت صينية عليها لحوم، وأرز وبطاطس، ومخلل، أخذت أكل بنهم، ثم ناولني ورك فرخة التهمته، التعب يستهلك الطاقة، وشغل المباني صعب، لذلك كنا نأكل لدي صاحب العمل، وعندما نذهب للبيت نجد أمي قد جهزت مائدة عامرة بالمأكولات الدسمة، كما توفر لدي السجائر فصاحب البيت يرش علينا عامل، ومعلم، كل واحد علبة سجائر، تدربت في العمل حتى أصبحت أقوم وحدي بتشغيل البناء، فزاد مرتبي الذي لا أراه فانا أعمل بلقمتي وياريت عاجب، ولكن دائما متهم بالتقصير، كان حلمي أن أكون بناء ،ولكن بعد العمل استرحت للعمل البدني البسيط، كان ذهني مشتتا ولم يعد لدي رغبة سوي في توفر الدخان

والكبريت، والطعام الطيب، ولكن أن أشغل نفسي برص القوالب وبناء حائط، وكل هذا يحتاج لدقة، لا، ثم أنني رأيت كيف يعامل المعلم الصبي عندما يخطيء، بضربه بالمسطرين، أو قالب طوب أو بيده التي مثل مرزبة، أو يسحل على الأرض لذلك فضلت أن أظل عتالا ،فليس للمعلم إلا أن تكون قصعة المونة على السقالة أو أناوله الطوب، أو أربط السقالات، وكل هذه الأشياء أعمال روتينية، لا تحتاج مخيلة أو ذهن يقظ، عدت للبيت يدي مشوية، من حواف الطوب الحاد كالسكين، والإسمنت يَبرِي أطراف الأصابع حتى تبز دما، كان أخي وأمي وأبي يضحكون مني بسبب عدم قدرتي على مسك الملعقة، قال أبي: أصل ده تحطه في الكلونيا يتمرمغ في الحمام، مش عاجبك الشغل، أشرب، قلت عجبني، قال أخي: ضع على يدك زيت أو افرك جلد الفرخة في يدك بكره تصبح طايبه، فعلت كما قال لي وانتزعت جلد الكتف وأخذت أفرك في يدي، ثم رميت الجلد وأخذت أأكل، العمل ما فهوش أخ أو ابن عم، الشغل شغل، لذلك كنت أبذل مجهودا خارقاً، لدرجة أنني خلطت ثمانية شكائر أسمنت مونة ورفعتهم على كتفي بالقصعة، وناولتهم للمعلم كأساسات،وانتهى العمل بعد العشاء، ولم أذكر إنني شعرت بالتعب البدني، فكنت أعمل المونة وأضعها على السقالة، وأرتكن على حيطة بعيدة، وأشرب سيجارة بعيدا عن أخي فعيب لدينا أن أدخن أمام أخي رغم أنه يعرف إنني أدخن ولكن كنت أتضايق من احتكاك صاج القصعة بشعري فيغير لونه الى بقعة صفراء، وكأنه مطلي بالأكسجين وهذا لا يليق بشاب جاد، أحيانا لا نأكل في بيت صاحب العمل بسبب عدم نظافة ست البيت أو سوء الطبخ، أو رائحة ست البيت الكريهة، أحياناً ننخدع في جمال صاحبة البيت، وعندما ندخل البيت ونراها على طبيعتها نجدها مقرفة، لذلك نحن العمال لا نحكم على الناس من الخارج، بل نحكم عليهم من خلال ما يقدمونه، أو ما نراه بعيوننا، وفي كل أحوال البيوت أسرار، فمجرد أن تخرج سر البيت يقف حالك مباشرة، في يوم اشتغلت وراء معلم في المحارة، كان يوما أسود وهباب صحيح، فلم يكن هناك أعمال مباني لذلك تم

تصفية العمل ولم يعد إلا بناء ونفران يساعدان، لذلك عندما عرض على ابن خالي، وهو معلم نطع ولكن من يرفض العمل والبيت خالي من الفلوس، ذهبت معه، وعندما دخلت البيت أصبت بالزعر، فقد كان البيت مظلماً ومبني بكسر الطوب فكان كله فجوات وبروز، ولكي يساوي الحائط، كان عليه أن يخلط ستة شكائر أسمنت على نصف عربة رمل، يادي المصيبة السودة، المشكلة أنني مطلوب مني أن أعمل المونة وأناول المعلم، ظللت أناول البغل وكان البغل يرمي في الفجوات ولا يتعب، وأنا اعمل المونة وأناول طول النهار، وعند الغذاء كان الطعام بيتنجانا مقليا ومخلل وبالتخديعة، وسيدة البيت تقرف بلد وتتنشق، ورائحتها لا تطاق، بقيت أقول يا سابل الستر استرها ما تفضحهاش، الذي خفف عني فعلاً هو وجود مسجل وشرائط ذكر وأغاني شعبية، ظللت هكذا حتى قرب المغرب والمونة خلصت وفرحت أن العمل انتهي، ثم فوجئت به يقول: قلب شكارتين، أنا أتعبطت صحيح، فيه أيه يا عم أنت وهو حمار شغال ولا أيه؟ كان يستريح وهو يدخن النرجيلة ويتدفق الدخان كمدخنة من أنفه وفمه " صحة عبيطة فعلا" قلت: إزاي يا عم "المغرب هيدن" قال: كله يخلص، قوم، قوم، قلت لا مش هقوم، نظر إليّ وعلى وجهه نظرة تهكم وبلاطة من نوع غريب، تعمل المونة، قلت: أقسم بالله ما أنا عامل المونة وسحبت جلابيتي وخرجت من البيت، فلاحقتني كلماته، مفيش أجرة، رجعت قلت له فلوسك ع الجزمة، وذهبت للبيت ولم أحصل على مليم منه، ولا أعرف كيف لإنسان أن يهضم حق إنسان أنهك بهذا الشكل، مش عارف صحيح، تكوين البشر من أي عجينة نتنة، ليستبيح حقوق الغير أو يهدر مستقبل إنسان، أو يعتدي عليه، يبدو أننا سقطنا في مستنقع لتخريب الكون وليس لتعميرها. الذي يتعبني بحق ويجعلني في حالة نفسية سيئة هو العمل تحت وطأة الشمس الحارقة، هذا يفسد على حياتي، ويدمر خلايا مخي ويجعلني أهذي وأنا صاحي، لذلك كنت أفضل العمل في البيوت ذات السقف المسلح أو ذات الحائط المرتفع، ورغم أن العمل في المباني يعتبر مرحلة ليست سيئة، ولكن هذا لا يمنع أن هناك

منغصات مؤذية تدمر كياني، حيث كنت في بداية المراهقة وكنت أدخل بيوت كثيرة، والنساء متحررة، من الملابس السوداء القاتمة، وبدا تنوع الثياب النسائية مبهج، والمرأة التي تراها في الشارع غير التي تراها في البيت فهذه ترضع ابنها وهذه ثديها يتألق كماسة، وهذه وركها ظاهر وهي تطبخ وتصب عرقاً، وهذه ملابسها مبلله وهي تحمل الماء لنا للمونة ، وهذه مؤخرتها مدورة بشكل يهوس وأنا مقيد، تعس، لا أستطيع أن أنطق بحرف، فما بالك بالكلام في أمور خطرة، الحياة قاسية يا خال وقسوتها تزيد وأنت بجوار النهر وشديد العطش ولا أمل لك في غرف الماء وإرواء ذاتك الجافة، لذلك كنت مكسورا ومكتئباً وصامتاً لا أريد أن أكلم أحد، أو أحد يكلمني، لقد تعرفت على الوجع الحارق، المؤلم والقاسي، ماذا سيحدث لو كبشت في صدر امرأة لن يحدث شيء سوى علقة ساخنة من أخي، عشنا فترة طويلة حياتنا المادية رائعة الى أن سقط أخي في مرض غريب استنزفنا تماما. وأهدر أموالنا وتعطلت أعمالنا وغرقنا في البطالة، المشكلة أن الذي كان يدير العمل ويخلق الشغل ويتفق مع الناس أخي الكبير، وعندما مرض عجزنا عن إدارة العمل ووقف الحال حتى إننا ذهبنا لمنافسين لنا للعمل كعمال يومية ولكن تم رفضنا، تبطلت ففكرت في العودة مرة ثانية للمدرسة، مررنا بظروف قاسية، الدخل يذهب معظمه في علاج أخي، والباقي يدوب يسير الحال، ولولا الجاموسة لتحولت حياتنا لجحيم، فهي توفر لنا الطعام، وكانت هذه الفترة دوري أن أحش البرسيم للجاموسة ورعاية الأرض مع أخي الأوسط الذي يعمل في الصباح ويذهب للغيط بعد العصر معي، حش البرسيم بالنسبة لي عمل بسيط فأنا أستطيع حش حمل من البرسيم في نصف ساعة، وبعد ذلك أعيش مع نفسي وعندما يقترب المغرب أحش حملاً أخر كي تكفي الجاموسة لعصر اليوم التالي. عندما يكون هناك يوم أجازة، أو يوم جمعة، أخذ الغذاء وأظل هناك طول النهار.

(٢)

كانت الشمس شاحبة والظلال تتكاثف وأنا ذاهب الى بيت "جيمي" دون موعد سابق، وعندما انتبهت لذلك كان الوقت قد مر فقد اقتربت من البيت، لم يعد سوى مسافة بسيطة، كانت العلاقة مع الأب تسمح بذلك فكنت أهبط عليه في أي وقت، ولا أجد حرجا، خشيت أن يقابلني بشكل سيء أو يعلق على قلة الذوق، أو ينكر نفسه، كنت ساعتها قد وصلت للبيت وقد وجدت مدام ماري تنشر ملابس في البلكونة، وتقول تفضل وأخذت تهز في رأسها، قلت: جيمي موجود، قالت: فوق، دخلت البيت لم يكن دكتور إبراهيم موجودا، وقالت لي: خارج في سبيل الله وقالتها مفخمة بفخر، ضحكت وقلت: ربنا يهدي العاصي يا مدام، قالت: شكرا شكرا، وصعدت الدور العلوي ودخلت كانت الشقة عبارة عن صالة كبيرة وثلاث غرف حمام ومطبخ وبار، بحثت عن زر النور ولكن لم أجده فأخرجت علبة الكبريت وأشعت الثقاب فظهر زر النور قريبا مني، ضغطت فأبهرني الضوء القوي، نظرت كانت الشقة مطلية بلون أبيض سكري مشع، والإضاءة الخفية خلقت جو حلمي أبهجني وحلمت أن يكون لي شقة مثلها، تجولت بعيني بحثاً عن غرفة النوم فوجدت جيمي ينام على السرير على بطنه، عاريا تماما، لم أستطيع أن أمنع عيني من رؤية جسده، تحركت تجاه الغرفة وأنا أنادي بصوت خافت مضطرب، حتى تقلب وقام، ناديت عليه، ثم دخلت الحمام، كان تحفة فنية لم أر مثل ذلك من قبل، كان هناك بذخ وثراء رهيب، أحسست برغبتي في التبول، جلست، على المقعدة فوجدتني أتبرز وأتبول بتدفق غريب، ثم فتحت الخزان لكي يزيل أثر الخراء وغسلت وجهي جيدا وخرجت وتحاشيت النظر الى الحجرة، ثم وجدت قطة جميلة جدا تتحرك ثم تقفز وتجلس على حجري، فرحت بها وقلت: تعالي يا حلوة وأخذت أملس على شعرها الكثيف الناعم الجميل وهي استكانت وأخذت أكلمها ومن يومها وأنا مغرم بالكلام

مع الحيوانات، القطط والكلاب والحمير، وكل طائر أخرس، حتى عضوي أظل أتكلم معه وأشكو له الأحوال المهببة التي لا تريد أن تتغير، وحق الله أشعر أنه مظلوم معي، ويتمني أن يذهب لأحد غيري، ولكن ماذا أفعل بدون عضوي، المشكلة وماذا فعلت وهو معي وفي قمة الحيوية غير استنزافه، ولكن الحياة هكذا.

الحيوانات أنظر إليها وأشعر أنها تفهمني، وأن حديثي يصل إليها، وحديثها يصل لي، أشعر بمشاعر الحيوانات بشكل غريب، وأتفاهم معها، أحيانا، أشعر أنني استغلها، وأنها تنصت لي بصدق، ومجرد أن تتحسن أحوالي أجدني أنساها وعندما أتذكر أشعر بالذنب، أتكلم معها في أمور عادية وكأنها شخص ظريف يجلس معي على القهوة، أو يتكلم معي من خلال التليفون، كلام عادي عن مشاغل الدنيا، أو أسألها عن أحوالها وأين تكون هذه الأيام، أو يا تري أي روح بشر هي، هل هي فلانة الفلانية، هل أنت فلان أو علان، واظل أقارن بين صفاتهما وملامحهم النفسي، وعندما أتعب أترك المكان وأمارس عملي عادي.

خرج جيمي من حجرة النوم ودخل الحمام، عاريا كما رأيته في غرفة النوم، ثم أخذ دشاً وارتدي ملابسه وجاء، جلس بجواري ووضع قدم على الأخرى، ثم أخرج ولاعة وأخذ يشعلها ويطفئها، ثم قام وأحضر علبة سجائر لونها بني، وتشبه من حيث الحجم علبة الروزمان وأشعل واحدة وقال : أيه رأيك؟ قلت والله فيه خطوط لازم تحذف وخطوط يتم تنميتها، قال: زي ما اتفقنا، اشتغل على الموجود، ولكي أثبت صحة رؤيتي الفنية، وقدراتي الثقافية والنقدية والإبداعية أخذت أشرح وأطرز كلامي بمصطلحات نقدية حديثة خاصة مدارس ما بعد الحداثة، وذكرت أعمال لباختين وإيهاب حسن وغيرهما، ثم أشرت عليه أن يحذف ومررت على الصفحات صفحة ،صفحة، وعندما أنهيت كلامي، قال: وجهة نظرك سليمة لكن أنا محتاج الكتاب بهذا الشكل، وأخرج سيجارة أخرى وأخذ يدخن بشراهة ثم قال تحب تشرب شيء قلت ليمون، قال: حاضر بعد فترة عاد من المطبخ وفي يده شب عصير كبير ووضعه

أمامي، وأخذ يتكلم عن رحلته الى الهند، وأخذ يتكلم عن الفقر والتخلف والحروب الطائفية المقيتة التي تغرق الناس في مستنقع أسن، قلت له أعطني تعليما جيدا وعدالة وحرية وأنا أضمن لك شعبا مسالما متحضرا، يقدر قيمة الحياة، لكن مادام هناك ظلم وغياب للعدالة، وانهيار لمنظومة التعليم، وتفاوت المستويات الاقتصادية، فأبشر بكل قيم التخلف والعدوان، والحروب الطائفية التي لا نهاية لها. قال: أكاذيب للدفاع عن الجهلة، العرب في ألمانيا والدول الغربية يعيشون تحت سقف العدالة، والحرية، وحكم القانون ومجتمع الرفاهية ورغم ذلك يعيشون بنفس العقلية الغبية، المريضة ونفس الأفكار المتجذرة داخل الوعي، من يقوم بتفجيرات ويستخدم الإرهاب وباسم الدين المسلمون لا غيرهم، قلت يا أخي، ما دمت تكره الإسلام بهذا العمق، لماذا لا تغير وتعيش في سلام داخلي، أنت تعيش في مجتمع حر وسيحميك ولست مضطرا أبدا لحمل ثقل لا تريده، أنا أستغرب والله من المثقفين، يطنطنون بالكلام دون فعل حر واحد يحسب لهم، كلام، كلام، قمت وفتحت البلكونة ونظرت للشارع فخرج ورائي وقال الموضوع ليس بهذه البساطة، الحياة عموماً معقدة والإنسان في كثير من الأحيان يأخذ قرارات غير عقلانية بالمرة، ويتصرف أحيانا تصرفات حمقاء، وأخذ يشير لي على الحجاب ويقول: الوهابيون دمروا البلد، شوف البنات في الشارع مقموعة بالحجاب هذه جريمة، فالحجاب رمز من رموز التخلف فرضها المجتمع الذكوري الحقير، أنه حجاب على العقل، فالبنت الحرة هي من ترتدي ثيابا عصرية تبرز جمالها، قلت المرأة واقعة بين يمين عنصري يريد أن يعود بالمرأة الى عصور ومجتمع ما قبل أكثر من ألف عام وهذا مستحيل، يضع المرأة في قمقم ويغلق عليها، ويستخرجها من أجل وظيفة محددة، وبين يسار فاشي يريد أن تتحرر المرأة تحررا كاملا مثل مثيلتها في أوربا والغرب دون أن يفكر في من يحمي هذه المرأة في الشارع، ليس هناك قانون ولا نظام بوليسي متطور ولا دولة عصرية، ولا أي شيء، فقط يريدها كما تريد روحه السوداء،

وعليها هي أن تتحمل تبعات هذه القرارات، مع أن المثقف نفسة لا يستطيع أن يحمي نفسه في الشارع، قال:

عليها أن تدفع ثمن حريتها، قلت يا جيمي الرجل والمرأة كلاهما معتقل ومقموع في هذه البلدة، ولا حل فردي للموضوع يجب أن نتحرر كلانا، أخذ يتكلم تاريخيا عن نضال المرأة في أوربا وكيف دفعت ثمناً غاليا لتنال حريتها. تكلمت حانقا على البيئة والبيت والشارع والغرب العنصري المجرم، القذر الذي يدعم حكاماً في منتهي القذارة لكي يكون الشعب أمبوبة لامتصاص خيراته، قال: يا أخي خيرات أيه وهباب، أنت عايش في وهم الدول دي عايشة على دعم الغرب سواء مالي مباشرة زي دعم المحروسة أو باقي الدول العربية، أنت تستورد كل شيء من الغرب الكافر وبعد كده تلعنوه، وتبصقوا على إنجازاته، ماذا قدم العرب لا شيء، شوية قبائل حقيرة لا قيمة لهم في ميزان الدول، الوحيدة اللي دولة وتاريخية ولا علاقة لها بالدول الخرائية هي مصر، مصر الفرعونية، العظيمة، قلت الموضوع له وجهان ولو فضلنا نتكلم لن ينتهي الجدال، ثم استأذنت وأنا فاقد الثقة في منطقي وفي أفكاري وفي هويتي، كنت أشعر أن كلامي عاطفي، إنشائي بلا قيمة أمام منطق واقعي، منتصر، ورغم ذلك أقسمت أن لا أضع يدي في أي شيء يخص هذا الكلب، ومرت الأيام سوداء في عيني فكل الطرق مغلقه ولا أمل في شيء ثم تذكرت أن هناك صحافي يعمل في جريدة الأخبار وكانت لي علاقة طيبة به فتجاسرت وذهبت له وطلبت مقابلته فوافق على الفور واستقبلني في حفاوة ثم كلمته عن حاجتي لشغل وأنني تعبت في شغل الفاعل وأريد أن يتوسط لي للعمل، فضرب كفاً بكف وقال: يا لسوء الحظ. لقد خرجت للمعاش وأنت تعرف أن خروج الصحافي معاش يفقده فاعليته، أحزنني الأمر، وشعرت بالأسي، شربت الشاي ونحن نتكلم في أحوال البلد ثم قال: بس لا قيتها، أنا لي معرفة جيدة بالمحافظ الحالي وكان مديرا للأمن أثناء عملي مندوب الجريدة في المحافظة، وممكن يشغلك مؤقتا لحد ما تتثبت قلت: في عرضك، تركني ثم عاد بيده نوتة جميلة وأخرج

نمرة التليفون وظل يطلب النمرة من التليفون الأرضي وظل مشغولاً الى أن رن فطلب مكالمة المحافظ وظل يتحدث معه في مواضيع شتى وذكريات ثم قال له عن موضوعي، فطلب منه المحافظ أن أحضر في الغد، كانت سعادتي لا توصف، ذهبت في اليوم التالي، استقبلني سكرتير المحافظ، وقد كلفه المحافظ بترتيب إجراءات تعييني، فقال السكرتير، بص يا سيدي، شركة جي أم وان، شركة عالمية تديرها سيدة أجنبية تدعي "جيلدا جريجور سامسا" وهي شركة عابرة للقارات مقرها الرئيسي الولايات المتحدة ولها عدة فروع، في الإمارات، وتشيكوسلوفاكيا، يدير الشركة معها اثنان آخران لا أعرفهم، ولهم حكاية طويلة مش مهم تعرفها، المهم أن هذه السيدة، اقترحت على الدولة إقامة منتجع مخملي في قرية النهر الأبيض، للكبار في العالم، تحفة معمارية من تصميم الأشهر في العمارة، شلالات، أنهار صغيرة، حيوانات نادرة، أسماك بحرية ، أنا لو فضلت ساعة أشرح لك لن أوفي هذا المنتجع حقه، لكن بكرة تشوف، المهم الرئيس وافق فورا وقدم تسهيلات خرافية، حيث المتر تم بيعه بعشرة قروش، وأخذت قروضا من البنوك المصرية، وتم إعفاء المشروع من الضرائب لمدة عشرين عاما، خلافا لكل القوانين، لماذا كل هذه التسهيلات، غير أنه مشروع سياحي رهيب يدخل لخزينة الدولة مليارات الدولارات، هو قبلة لرجال المال والسياسة في العالم وده يجعل مصر مركزا عالمياً، وحديث العالم ومن ضمن المشروعات المذهلة التي اقترحتها، هو بناء مستعمرة للعقاب على أحدث الأنظمة، العقابية، وفيها أحدث الأجهزة، والدكاترة، والعلماء النفسيين، والاجتماعيين مستعمرة عالمية، بمعني، قبلة، لنفايات العالم من المعتقلين في هذه المستعمرة وبها كاميرات مراقبة يتم توصيلها بغرف النزلاء، تسلية مثيرة حيث سيشاهد النزيل بالصوت والصورة طرق تهذيب المواطن بحيث يعود عضوا فاعلا حبوباً لا يهدد البشرية بنزواته أو سلوكه الغير منضبط، سنقدم للعالم إنسانا جديدا، ونحلم أن تكون مصر هذه الدولة العظيمة نقطة انطلاق لثورة جديدة في الإنسانية، خالية من الهمج، والبلطجية، والمنحرفين، وذوى الأفكار

الهدامة، والحاقدين والأشرار، وقد اختيار بالفعل أكثر من ألف معتقل من الدول العربية، وأكثر من ثلاث ألاف من أفريقيا و٥٠٠ من باقي أنحاء العالم، مش بقول لك سجن عالمي، خلق من سيء الخلق والمنتزع عنهم المواطنة، والمشاغبين الأوغاد عملاء الصهاينة، والاستعمار العالمي شريك اليمين المتصهين، وسيشرف على هذا المستعمرة نخبة منتقاة من أكفأ الضباط والخبراء المختصين، وسيكون هناك ممثلون ومشرفون من وزارة الداخلية المصرية".

قطعت الكلام وقلت: ولكنني مدني قال: عارف: في هذه المستعمرة حصلت وزارة الداخلية والدفاع على قطعة أرض كبيرة يشرف عليها أجانب لزراعة احتياجات المنتجع، ولأن القرية تتبع محافظة الجيزة فلنا دور مهم فيها مثلا ستكون مكلفا مع موظف أخر بتسجيل كل شيء يدخل أو يخرج من المزرعة، لا أكثر ولا أقل وعلى فكرة أنت محظوظ، والله هذه الوظيفة يتقاتل عليها مئات، لكن حضرة الصحفي له جمايل لا تعد، لذلك من غدا تكون هنا في الثامنة صباحا لتركب عربية المحافظة الذاهبة لقرية النهر الأبيض، وخلي بالك، الأجازة كل شهر مرة واحدة، وافقت طبعا وعدت للبيت سعيدا، منشرح القلب فها هي الفرصة تأتي لي ولن أتركها، ولكن أمي كانت لها رأي أخر كانت تريد مني أن أبحث عن بنت الحلال الأول، فلو تركت البلد لن يتاح لي الفرصة لخطبة بنت بسرعة، أعرف أن هذه الفكرة خديعة من أمي لأنها تخاف عليّ وتريدني أن أظل جوارها في البيت وهذا لن يحدث، لذلك فررت بعد الفجر وركبت القطار المتجه للقاهرة بلا وداع، وعندما وصلت في السادسة، لم يكن أحد موجودا سوى الخدمة، جلست على الباب انتظر أحد من الموظفين أساله وعندما تقاطر الموظفون أخذت أسأل حتى عرفت التفاصيل وأن البوكس الذي سيقلني يقف أمام المحافظة، خرجت وجدته بالفعل موجودا، ركبت كي أحتمي به من الصقيع ولكن كان البوكس أكثر برودة، فخرجت ودخلت مبني المحافظة، ثم دخلت الحمام وجلست أعمل حمام وظللت فترة طويلة حتى تذكرت أنه من الممكن أن ترحل السيارة دوني فخرجت مسرعا، أجري الى أن وجدتها كانت الشمس قد

بدت تفرش شعاعها الدافئ على الكون فوقفت في مكان مشمس لفترة طويلة، ثم ركبت السيارة واستغرقت في النوم الى أن قمت وجدت السيارة تسير في طريق صحراوي ،فتحت عيني وجدت عسكريا برتبة صول عرفت اسمه يحيى بعد ذلك يجلس بجواري، قال: نام يا بني خد راحتك، إنت باين عليك كنت تعبان، فركت عيني، لم أجد موضوعا أتكلم معه وأنا أقول آه والله، الكرسي الخشب أوجع مؤخرتي بسبب طول الرحلة، قمت ونظرت للخارج، قال:

الوقفة خطر والطريق به منحنيات، والسائق طائش، جلست مستسلما، وقلت أفتح موضوع وحضرتك عملك إيه في المشروع، قال أنا عمود الخيمة اللي لولاها ما استمر المشروع، قلت: أزاي، قال أنا المنفذ لكل التعليمات والإرشادات والأوامر بحذافيرها، لدرجة إن الأجانب مذهولون من درجة الإتقان في العمل، قلت: في المزرعة، ولا في المنتجع، قال: في مستعمرة العقاب، لم أصدق نفسي فالرجل في غاية اللطف والطيبة المفرطة، وحنون، كيف تواتيه الجرأة على تعذيب إنسان، قلت: ولكن هذا العمل العنيف ألا يشقيك؟ قال بطمأنينة: لم تعط لقديس، أنا أرضي الله ورسوله وأنام قرير العين، ظللت صامتا، ثم قال: البدن شرير يا أستاذ، ولو تركناه على فطرته يتقلب لوحش كاسر مؤذٍ، لذلك علينا أن نهذب هذا الوحش ونروضه، نكبح الشر داخله، قلت ولكن الموت أحسن له بدل هذا التعذيب، قال: اللي خلق الروح يخدها، هل نشارك ربنا في قضائه وقدره وقدرته، قلت: لا طبعا، مع أن القرآن قال: إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ ... في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض"

ولكن الحاكم والشرع كانوا يرون أنا لا أحد مطلع على دخيلة الإنسان سوى الله وهو ذاته لذلك كان العدل ألا يقتل للشك في النية، فهؤلاء دعاة فتنة ولكن الرحمة قبل العدل.

ظللنا صامتين لفترة طويلة مذهولا أريد أن أجد لها تفسير أو مبررا عقلياً ولكن دون جدوى، أخذت أنظر الى وجهه وهو يتمتم بالآيات ويراجع من خلال مصحف صغير، عندما ينسي، وأنا أقول: كم خدعني هذا الوجه، كم من السنين وثقت بوجه طهراني بريء وهو يخفي تحت جلده حيوانا كائنا متوحشا متبلدا، خائفا معتوها، نغزني وقد سرحت بعيدا عنه، قلت: هل لهم حقوق ما؟ قال وهو يستمر في القراءة : لا حقوق لهم .

توقفت السيارة بجوار مقهى تملكه سيدة اسمها حسنية، وهناك تعرفت على رجل رث الهيئة، أعور، يعكز، وله لحية صغيرة بيضاء، كان نحيفا جدا وله رائحة نتنة، جلس جواري هو يشرب الشيشة وأنا أدخن وقد طلبت شايا، قلت له: من أهل المكان، قال آه ولا، وأخذ يحكي لي كلاما لم أفهمه، وعرفت بعد ذلك أنه كان محاسباً في الشركة وأصيب بلوثة بعد أن أضاع مرتبات الموظفين وأنه يعيش في واقع مشوش ويخلط الأمور ولكن كان لديه لمعة توقد أو جنون في عينيه، نصاب شوية لكن مسلٍ، من أكثر الكلمات ترددا في حديثة، يجب أن يكون الإنسان لديه أنفة، وكرامة، وأنا رأيته بعد ذلك في مواقف غاية في الحقارة والانحطاط ولكن لا يهم، تركنا المقهى، على أمل اللقاء وذهبت للمزرعة حيث أعمل استلمت الشغل، وظللت أعمل حتى قارب النهار على نهايته، ثم استلم زميل لي وذهبت للنوم في المكان المخصص لنا، كان المكان مريحا، فيلا حديثة البناء، بها ثلاثة طوابق تطل على المزرعة حيث أشجار الفاكهة والزهور والخضار والنباتات النادر، لم أستطع النوم رغم سعادتي الفائقة بالمكان والحديقة المحيطة بالفيلا، والسرير المريح الذي لم أنم على مثله من قبل، وانتابني يقين أنني سأموت هنا، في هذا المكان بطريقة شريرة وأن أحلامي كلها وأفكاري ستذهب هباء، ظللت ساهرا حتى قارب النهار على الخروج من رحم الظلمة، فذهبت للمطبخ أخذت أفتش على شيء حتى وجدت كيسا به بصل فقشرت بصلة وأكلتها كان للبصلة تأثير ساحر على فمجرد وصولي للسرير سقطت مستغرقا في النوم، وعندما صحوت كانت رأسي ثقيلة ورغبت في النوم مرة

ثانية، فأخذت ألعن البصل، وأفكاري الحمقاء، دخلت الحمام وأخذت دشا وشربت شايا قبل الإفطار وظللت في العمل أيام، ثم أخذت أتردد على مقهى ومطعم حسنية وأسمع حكايات خيالية رهيبة من المهندس الأعور قليل منها يتوافق مع العقل وبعضها شطحات خيال عقل مصدوم، الغريب أنني أحيانا أعتبر واقعه نوعا من الخيال، فتثبت لي الأيام أنها واقع صرف، فتركت العمل لزميلي وجمعت متعلقاتي القليلة ووضعتها في حقيبة كنت استعرتها من ابن عمي وضعت فيها، فاكهة وصابونا وعدسا وفولا كانت تعطي لنا كتعيين من وزارة الداخلية، وكان ممنوع علينا الخروج بشيء ورغم ذلك غامرت بالخروج وعندما غادرت من البوابة، شعرت بالخزي، كيف تأتيني الجرأة على هذه الفعلة، ماذا لو ضبطني عسكري وأخرج السرقات من الحقيبة وكيف سيكون شكلي أمام المحافظ والسكرتير وعائلتي والصحفي الذي توسط لتعييني وأصدقائي والجيران والعالم كله.

عندما عدت من الإجازة أصبح من روتين حياتي أن أذهب لمقهى حسنية وهو مكان تجد فيه كل شيء، بداية من العصائر والطعام والمشروبات، والحشيش والمشروبات الروحية، والباحثين عن عمل، والمخبرين، وهو ملتقي طرق، وهي الواجهة وديناميو المكان، سيدة احترت في وجهها، ولم أستطع أن أتبين فيه شيء وجه يحمل كل شيء، الذكورة والأنوثة، الضعف حد الهشاشة، والقوة حد التصلب، الرغبة الجامحة، والتنسك الصوفي، الانفتاح مع الكل وكأنه ساحة، والانغلاق، على الذات، كانت تمثل لي الحلم، الحلم العصي، على التحقق، وظللت أدور حولها، بمزيج من الغضب والحقد، والرغبة، كنت أذهب كل يوم وأتناول مشروباً واحدا والحوام حول حسنية التي تثيرني بشكل جنوني، دون قدرة على الإتيان بأي فعل أو كلمة، فقط نظرات تتفحصها وتتفحص جسدها وجماله المدهش، كان لسمرتها لمعة ولعيونها سحر فاضح، وفي يوم رأيتها تدق يد الطلمبة وفتحة صدر الجلابية مفتوحة وظهر ثديها مكشوفا يترجرج، ارتجفت على أثرها من قوة الشهوة، وفي لحظة يأس اندفعت نحوها وهي تقوم وتتحرك، وأنا أتجه للطلمبة وقد التقيت بها وضربتها بكتفي في ثديها فصرخت بصوت عالٍ

انزعجت من الصوت، جرى نحونا بعض رواد المقهى، فقلت أدافع عن نفسي مقهورا: فيه أيه؟ أنا عملت حاجة! ثم نظر إليّ رجل بدين يدخن في شراهة، وأخذ يهز رأسه في غضب، باين عليها مجنونة .قلت، فانسحب في هدوء وهو يردد، عيال خولات صحيح.

تركت المكان وعدت للسكن بعد أن شعرت بكم المصيبة السوداء التي ارتكبتها بحماقتي وغبائي، أنا هنا غريب ، لا حماية لي ومن السهل التخلص مني بسهولة، لا أعرف من يقف وراء حسنية، هل من المعقول أنها وحدها "كده مليطي"، أم فقط مجرد واجهة لجهة مخابراتية، أو لقطاع طرق ومافيا الأراضي، في النهاية هناك جهة عافية تقف وراءها، وأنا مجرد موظف فقير وتعس، صور تتخايل أمامي أراني فيها مسحوبا من قفاي من قبضايات وقد كتفوني ورموني في الحفرة وأهالوا على الرمال، أو يتم ربطي بسيارة جيب وسلخي على الطرق، أو الغز بمطواة عدة طعنات والقاتل مجهول، عدت مرة ثانية للسكن ولم استطع أن أنام ظللت أتقلب طوال الليل وعندما خطفني النوم انتابتني كوابيس سوداء، حتى صحوت على شمس مشرقة وقوية، اغتسلت وخرجت وقد خفتت مخاوفي واستغربت من جنوني، وكيف أضخم الأشياء الصغيرة ،حتى تستحوذ على عقلي ومخيلتي، ولكي أنسف فكرة قتلي ذهبت للمقهى، وطلبت مشروباً غازي واستقبلتني بحياد وبوجه لا يحمل أي ضغينة أو كراهية، انتابتني سعادة غامرة، ثم عدت مرة ثانية للعمل.

ألفت المكان بعد أن ظللت عاماً في العمل وفي يوم كنت عائدا لقريتي ولم أجد سيارة الحكومة فانتظرت سيارة نقل الأنفار فترة طويلة حتى جاءت فركبت فيها، والصدفة جمعتني مرة ثانية مع المحاسب الفنان، كما وصفته، فقد كان يمتلك كل صفات الفنان، هناك نبل ما على محياه، له خيال مدهش لا يتوقف عن سرد الحكايات وهذا أثار في الإعجاب وعندما وصلنا للموقف، ركبنا ميكروباص لموقف أحمد حلمي، وظل يحكي دون أن يترك لي فرصة للكلام.

(٣)

كنت أذهب للعمل بملابسي القديمة بسبب عدم وجود مالا لشراء ملابس جيدة وعندما قبضت أول مرتب اشتريت طرحة سوداء لأمي، وثلاث غيارات داخلية وساعة أرقام، وكتاب "الدرويش والموت" و"رامة والتنين" أول طبعة، من سور الأزبكية وعندما عدت للبلدة أخرجت "ترينجا" وارتديته، كان من القطن وكنت مستمتعا وأنا أرتديه، لذلك خرجت أمام الباب حتى يراني الجيران في هيئتي الجديدة حتى وجدت الدكتور إبراهيم، يقف في مواجهتي، ولم أكن قد التقيته منذ فترة طويلة وبدون سلام قال: عيب عليك، عيب عليك تبقى زي الغوغاء وتشيع كلام في غاية السوء عن ابني، اضطربت وقلت: له فيه أيا يا مستر؟ فأشاح بيده وقال: بلا مستر بلا هباب، هو عاد فيه مستر، وهرول بعيدا عني وأنا أقول له: استني يا دكتور، لحظة، ولم أعرف فيه إيه؟ وعندما لم ألحقه، رجعت وغسلت وجهي وعدت مرة ثانية لأرى ما الذي جري، أخذت أفكر وأنا ذاهب إليه عن الجرم الذي ارتكبته، فمنذ أن تم تعييني في المزرعة، وأنا منفصل تماماً عن أهل البلدة، حتى أصدقائي القدامى، لم أعد ألتقي بهم عندما وصلت كان موجودا هو والست ماري وابن عمه مهران، وهو فلاح كان د .إبراهيم دائما يسخر منه ويطلق عليه أبو طاقيه طويلة ويقلده تقليدا متقنا، كان في غاية الهياج وفشلت فشلاً تاما في تهدئته، حتى تكلم مهران وقال: ابننا وكافر وإيش دخل البلد في الموضوع، دي مصيبتنا احنا مش حد تاني بلد حشرية، صرخ د .إبراهيم وقال: مش كافر، مش كافر، قال: عليه الطلاق يا د إبراهيم ابننا كافر ولادد علينا، وعرفت من الكلام المتناثر أن أهل البلدة يشيعون بين الناس أن جيمي كافر وأنهم يكتبون على الفيس ويتصلون بـ "مستر إبراهيم ويؤنبوه على سلوك ابنه السيئ، تذكرت في الحال الموضوع رغم أنني قد نسيته تماماً فقد كنت قبل التحاقي بالعمل الحكومي، أذهب لسايبر قريب من بيتنا يوميا نصف ساعة، وقد عملت لنفسي صفحة على

الفيس بوك وكنت أستغرق في المتابعة والقراءة غير منتبه لرواد السايبر من الصغار الكبار وتجاهل تام لكل ما يحدث حولي سواء كانوا يطلقون كلمات بذيئة أو يتشاجرون، أو يرون فيديوهات سكس، رغم أن المكان كان خانقاً مقرفا، والسجائر تعبق المكان وصدري متعب لدي حساسية في أنفي تجعل الدخان يؤلمني أكثر ورؤيتي للأولاد الصغار وهم يرون "أفلاما جنسية" تجعلني في غاية الآسي، ولكن ماذا أفعل وكيف تواتيني نفسي أن أورطها مع مجرمون صغار يستطيعون بهدلتي لذلك، انكفئ على الشاشة أحملق في سيل المواد المتاحة، حتى أطلق على الأولاد "عبده فيس" وذات يوم دخلت سايبر وأخذت أقضي وقتي بالقراءة وسماع الفيديوهات قتلاً للوقت حتى جلس جواري عامل يومية، صديقي منذ زمن وبعد أن رحب بي وأخذنا نتسامر وجدته يقول لي: والنبي على قلبك اكتب جيمي الكافر وأبحث عايز أشوف فيديو الكافر ابن الكافر، قلت جيمي مين؟ قال أبن عمي إبراهيم، الواد كفر خلاص وخرج من الملة، قلت يا عم ماتقلش كده، ما تسمعش إشاعات وترددها، ده ابن عمك، أقول ذلك وأنا أكتب جيمي الكافر على الكيبورد، وبحثت في النتائج كانت كثيرة، أخذت أشاهد الفيديوهات وأنا استغرب على كم الشتائم والتجديف الفج، أغلقت الفيديو وقلت لصاحبي، رجاء لا تذكر ذلك لأحد في البلدة، ثم قلت أن أهل البلدة قساه ولو شاع الموضوع سيسحلون المستر ويدمرونه نفسياً خاصة أن الرجل لا ذنب له، فهو غير مسئول بتاتاً عن تصرفات ابنه الحمقاء قال: لي ممكن تنزل لي الفيديو: قلت لا أسف حذفت الفيديو وخرجت ثم نسيت الموضوع.

-يا مستر إبراهيم أنا عايز تثبت حرف واحد قلته عن ابنك أو أرسلت لأي أحد رابط لأي فيديو من فيديوهات جيمي

وحكيت له بسرعة محاولا مقاطعته وفجأة تدخلت أم جيمي وقالت:

هو كل مراهق يمارس الجنس مع الحمارة يبقى كاتب/ كانت تقصد قصة دغل من مجموعة" جسد في ظل".

أنا اندهشت بجد وقلت: هي وصلت لكده يا أم جيمس

فقال إبراهيم: وزير الثقافة بنفسه بيقول أنا عايز أشوف جيمي، لأنه مثال للشباب الجريء المتنور ،وزير ثقافة إيه وهباب يا د إبراهيم، ياعم متخليش الواحد يقول لفظ غير لائق، ثم أنا مالي أساسا ما يولع يا عم أنت، أنا قلت لك أثبت حرف واحد مما تتهمني بيه وأنا اعتذر فورا وأي حق تطلبه ينفذ . قالت: ماري: جيمي عقلية متنورة أمام جيوش الظلام، يريد لشعبة الحرية والحياة قلت وأنا ضد يا هانم ما ينور زي ما هو عايز، انتم ما لقتوش إلا أنا تعضوا فيه؟

الموضوع ده عارفه من زمان وأنا أساسا ضيف في البلد ولا أعرف أحد، أو اجلس مع أحد وصفحتي على الفيس عامة وهات لي حرف كتبته، مع أن لدي كلام أسحقه بيه وأخليه لا يسوي.

-قال: جيمي لا يسوي، جيمي لا يسوي، الذي يقارن بالأنبياء والصديقين لا يسوي ،وأخذ يتنطط على الكنبة كالقرد، يا سيد إبراهيم، الصديق الأمين طلب منيّ أكتب معه الرواية مشتركة وأنا تجاهلت طلبه

وقف وقال: لن يعود لهذه البلد الظالم أهلها، جمال مفكر عالمي، أيه اللي يخليه يعيش في بركة أسنة.

لم أجد جدوى من الحوار خاصة أنني لم أعد قادرا على تمالك أعصابي وأعرف إنها لو فلتت سأرتكب أفعالا سخيفة لذلك فضلت الرحيل وأنا حانق لا أعرف ماذا أفعل في هذه التهمة المشينة للكاتب الحر، هل نهايتي أن أحارب مثقفاً أيا كان وأطعن فيه؟ لا أنا عبد

الحليم ولا هو هاني شاكر، حاجة غريبة والله، وقررت أكتب على الفيس ما جري مع هذا الهلفوت، كنت غاضباً لكن ماذا أفعل وأنا الطرف الضعيف في مواجهة د إبراهيم ذى اللسان المبرد، الذي لا يخجل، الكذاب، والذي يستطيع أن يجعلني نكتة بين المحيطين حوله، وهذا يمثل لي غاية في الظلم، وجيمي المنتصر بحماية الدولة، ونجاحات في الغرب ويقابل كبار المسئولين في ألمانيا ويظهر في تليفزيونات العالم وأنا هنا مهمش، ضائع في مكان ضائع بين ناس لا تقرأ ولا يمكن أن يكونوا سندا أو داعمين، بل معطلين، لو كان لدي قاعدة قراء عريضة لكانت سندا وسياجا لحمايتي من عصف السلطات وكنت أنجزت شيئا كبيرا، ولكني عارٍ بلا حماية من أي نوع لا مال، لا علاقات اجتماعية، لا شهرة، لا قدرة لدي على النشر، شيء في منتهي البشاعة، المشكلة أن الأفق مسدود، وليس لدي خيال للخروج من الأزمة، المصيبة التالية حيث كنت أتابع الصحف على الإنترنت، فوجدت حوارا مع جيمي، دخلت لأرى ما يقول، عندما بدأت القراءة اتضحت لي مؤامرة خسيسة قادها صحفي للأسف كانت لي علاقة طيبة به رغم معرفتي التامة بعلاقته الوطيدة مع الأمن حيث قام بكتابة موضوع في صحيفته مجاملاً جيمي، متهماً إياي بأنني من يهيج البلد ضده، وأنني أقود حملة التكفير، دون ذكر اسمي، أصبت بصاعقة هزتني فعلا يجامل الألماني دون أن يسمع رأيي أو وجهة نظري، فلست ضد أن يكتب ما يشاء حتى لو كانت أكاذيبا، ولكن أن يسمع من جانب واحد، مع أن من السهل الاتصال بي. أصبت بخيبة أمل وأحسست بالظلم الذي لا أستطيع دفعه فمجرد أن يتم الزج باسمى في موضوع ضد الحرية يجلب لي العار، دخلت على إنبوكس وأخذت أسب له بأقذر الشتائم، وقررت أن أذهب للقاهرة، لأنتقم منه شر انتقام، ثم تدخل بعض الأصدقاء بيننا، وتم الصلح مع الصحافي وقد أراد أن يجمعني بجيمي، مرة ثانية من خلال عقد مصالحة دون الكلام في أي شيء، رفضت الأمر تماما وقلت، لا يمكن أن أعقد صلح دون أن يتم التحقيق في الأمر، فلو أثبت هو أنني أشعت أو تورطت في مؤامرة ضده، أعتذر ويطلب ما يريد، لكن تبويس

اللحي هكذا لا أبدا، وقاطعت د إبراهيم ،حتى رأيته في حفل خطوبة لابن صديق وقد فوجئت به يرتدي حلبابا أبيض وطاقية شبيكة وربى لحية صغيرة، كان يبدو معتزا بها ،فقد كان يملس عليها كل فترة ومحاط بجماعة من الجمعية السلفية فلاحين على موظفين على أطباء، ينصتون إليه في اهتمام ،سلمت على الحاضرين ولم أقترب منه، اقتربت منه وسلمت على واحد من الحضور وأخذت ألقي نكاتا ظريفة ثم سمعته يقول :فإن منهج السلف الصالح كسفينة نوح، من ركب وتمسك بها نجا، ومن تركها هلك. فهذا أسلم المناهج، وأصفاها، وأنقاها، وأحكمها، ثم صمت لحظة وكمل فهو أنقاها، وأحكمها، وأسلمها، والطريق ... ثم سحبني صديقي لكي أكل مع المدعوين، دخلت ثم وجدت الدكتور يدخل ورائي وكان في مواجهتي وأعتقد أنه كان يريد أن يصالحني لأنه أختار موضوعات للحديث قريبة مما أحب، ورغم أني أعرف طيبة قلبه وأنه مثل الطفل يهيج يهيج ثم ينزل على لا شيء ولكني تجاهلته وخرجت من الحفل، رغم أن داخلي لا يحمل له أي ضغينة، ولكن لم أكن أريد أن يمر الأمر بسهولة وكأن لم أجرح، بطبيعتي أتجاوز الأمر لكن لا أنسى "الآسية" مهما كانت الى أن سمعت المنادي ينعى د.إبراهيم وحزنت حزناً شديداً، ولم استطع أن أسير في جنازته، أو أعزي أسرته.

في مستعمرة العقاب

(١)

لا تعرف جوهرك جيدا إلا عندما تتعرض لمحنة، المحنة بوتقة تكشف معدن الإنسان جيدا، لذلك استغربت نفسي بالفعل من قبولي العمل في مكان يمثل انتهاكا صارخا للإنسان بهذا الشكل البشع، كيف لم يحلم بالحرية، ويعتبر نفسه كاتبا، يري في الكتابة روح أنوار وضمير ونزاهة أن يقبل العمل في وزارة الداخلية، مهما كانت المبررات، هذه الأفكار انبثقت في عقلى فجأة بعد أن قبلت الوظيفة ،ومر على هنا أربعة أشهر وعرفت المكان وتفاصيل كثيرة والعاملين وعقدت صداقات، وأصبح في حوزتي مبلغ مالي مغر، كان لدي مبررات داخلية، فأنا في النهاية أعمل في مكان منفصل عن المستعمرة، ولكن كنت مرتابا وأشعر أن كل كلمة عن العدالة والحرية وحقوق الفقراء الخ الخ، ترتد في صدري وتمثل عبئا، كنت مخزولا أمام ذاتي، ورغم ذلك كنت مستمرا في العمل، مع أن من المفروض على الأقل أن أبحث عن عمل أخر وأنا في النهاية لدي وقت كبير، والمكان هنا في كل الأحوال يوجد به عمل صحيح في الزراعة كعامل يومية، لكن يمكن البحث عن شغل مناسب، محاسب في مزرعة، أمن، كما يوجد بعض مصانع العصير والصلصة والكيماوي ،ومن الممكن البحث هناك عن عمل مناسب، وكل يوم أقول لنفسي من الغد سأبحث عن وظيفة ويأتي الغد وأنا مستمر في المكان، أضيع وقتي في تفاهات، كانت رغبتي حارقة في التغيير ،ولكن قدرتي على الفعل صفر، صفر كبير، رغم وجود دافع قوي وقاهر وهو وجود مستعمرة للعقاب بجوار عملي وسكني يصيبني بالرعب، الرعب من تخيلات طرق التعذيب المرعبة، التي تمارس ضد المعتقلين والرعب من وقوعي في الخطأ وزجي في السجن وتعذيبي، لذلك كنت أسير على الصراط المستقيم، أنفذ التعليمات كما دونتها وزارة الداخلية، عدم ممارسة أي جنوح، أو مغامرة من أي نوع، قمعت رغباتي

وأحلامي في النهاية كان مجرد خروجي من مستنقع البلدة والعمل البدني المرهق الى وظيفة سهلة، وكأنني متبطل حقيقي لهو عين الرضا، السير في الحدائق والطرق والاستغراق في الأحلام ،ومسامرة الناس وهذا كافٍ بالنسبة لي، ولكن انقطاعي عن الذهاب للقاهرة خلق لدي مشكلة كبيرة فلو ظللت هكذا سأُنسَي تماماً، ولن تزداد قاعدة القراء ولن أنجز شيئا، ولكن في النهاية مجبر أنا، مقعد لا أستطيع الفكاك، ثم قلت لماذا لا أستغل هذا الفراغ القاتل الذي أعيشه كي أكتب رواية عن مستعمرة العقاب، فكرة لامعة بحق ربنا، ولكن كي تحقق فكرة، عليك أن تكتب، وماذا لو البطارية مفرغة؟ ولا أجد أي رغبة، ولكن ما علاقة الرغبة بالموضوع، هل تتصور أن مارسيل بروست، أو جويس أو هرمن هسه، أو نجيب محفوظ وفكنر وماركيز، وسراماجو يكتبون بالمزاج، هل كنت تعمل بالمباني بالمزاج، لا طبعا، إذا عليك في هذه الحالة، التحايل على العمل، الدوران حوله، والنبش فيه، وضع القلم والورقة أمامك. كان فقط اسم الرواية يتألق في ذهني ،وباقي الموضوع في الخواء الجميل فلأكتب اسمها بقلم جاف "في مستعمرة العقاب" وليذهب كافكا الى الجحيم، هو سجل الاسم في الشهر العقاري، الاسم عنوان لرواية وليست لقصة قصيرة، أحور في العنوان وأجعل الاسم "المستعمرة" فكرة برضه، لا شيء يولد من العدم في الرواية ولا غيرها، هناك إرث ما علينا لو نقلب فيه، ثم هناك كوة أستطيع أن أطل منها على عالم المستعمرة، صحيح أن لدي ذخيرة تبلورت من خلال القراءة والمشاهدات والأخبار، أستطيع أن أخط طريقي من خلال بناء تخييلي، ولكن هذا موضوع جديد رماه لي الصول عبد الشهيد، طوق نجاه لمدخل جديد، ثم فكرت في المغرز الذي أوقعت نفسي فيه كيف أوطد صداقتي بالصول ليفتح لي مغارة على بابا ،بالتأكيد هناك ملفات سواء ورقية أو على هارد الكمبيوتر، وفي كل الأحوال، هناك مادة مبدئية، تدفعني لكتابة رواية كوزمبوليتانية بشخوص محملة بإرث دموي، وأحداث معيشة غاية في الغرابة، واستخدامه سيضيف ثراء بالغا للرواية، يجمعها مستعمرة في مكان ناءٍ في بلد معمل تجارب للرأسمالية المتوحشة، وكلما نمت الأحداث

داخلي زدت حماسة وفرحا، أمل في غد أفضل، ولكن هل من السهل إقناع رجل خبيث ومدرب تدريبا عاليا، هل أنا من الذكاء والدهاء لدرجة إقناعه بأي طريقة لسحب المادة وضخها في عمل روائي وطمس كل معالم من خلال تطوير الشخصيات واختلاق مواقف وأحداث جديدة، لو كنت أعرف أن هناك مستعمرة بمواصفات معينة لطلبت وألححت بإلحاقي بها، ولكن حظي التعس أوقعني في مزرعة لا يعمل بها سوي مهندس زراعي صيني يتكلم" كليل من كلمات اللغة العربية "وكلما تكلمت معه يفتح فاه عن ابتسامة يا باي ويظل يهز في رأسه وكل أسبوع يطلب مني أن أذهب معه لمحل البقالة في أقرب قرية منا، حيث نشتري له زيت ذرة، ومكرونة، وأرز ودقيق، وعندما أذهب لمحل البقالة، أهز يدي لفوق وأنا أقول له زيت الذرة بكام، يعني أرفع السعر يزيد عشرة جنيهات أقول: أدفع فيخرج المحفظة الجلدية ؛فأشاور بيدي مائة باوند، مائتا باوند، ويدفع وهو يبتسم الابتسامة الحقيرة دون أن يرتاب فيَّ لدرجة أنني جعلته يدفع في سلعة ضعف الثمن، البقال كان في غاية السعادة وهو يستلم الفلوس، ويظل يرحب بي، وفي يوم وضع في يدي عشرة جنيهات، فرفضتها وقلت عيب عليك، ما يصحش وتركتها على البنك، ظللت أصحبه فترة طويلة وفي يوم قلت له لماذا لا تعلمني تقنيات الزراعي، أهو تعمل في ثواب، لأني بصراحة عايز أسيب المزرعة وأشتغل قطاع خاص، أخذ ينظر لي في تساؤل بعدم الفهم، ظللت أشاور ،وأمثل بيدي، ولكن دون فائدة، فهو "عامل عبيط "لأن ليس لديه رغبة في نقل معرفته، وماذا سيخسر؟ هل أنا سأنافسه في العمل، ناس بشعة بحق ربنا، ولأن لدي إصرار لتوصيله رسالة واضحة لا لبس فيها، فعند عودتي للبلدة، ذهبت لمدرس لغة انجليزية وطلبت منه أن يكتب لي رسالة للصيني وعند عودتي، دخلت عليه المكتب فكان يضع القهوة على السخان الكهربائي، سلمت عليه وأنا أتصنع البهجة وقبلته وجلست على الكرسي المقابل وانتظرت حتى أفرغ القهوة في الفنجان وناولته الورقة، نظر إليها وأخذ يهز رأسه، ظللت أقول "واي" وهو يهز رأسه دون أن يجيبني فتركته وقاطعته تماما وكلما طلب

مني طلب أرفض ،فيقابل ذلك بابتسامة بلهاء، كان هناك أيضاً عبد الرحمن كتوم موظف هندي ومسئول عن شبكة التنقيط، وهذا مسلم من بومباي يتكلم العربية، وجهه يميل للسواد أسنانه بيضاء مستوية متوسط القامة، كنت أتصور الأخ من السودان، تزوج مصرية بيضاء شعلاء نظرها ضعيف وقصيرة ولكن مكتنزة، ولديها أنوثة مقموعة، لا تكلم أحدا ولا أحد يكلمها بياضها الغريب أصابها باكتئاب خاصة أن لا أحد تقدم لها من أهل البلدة، كان في الخمسين وهي في العشرينات وكلما رآني يقول والله يا اخ عبد ربه أنا لا أعرف لماذا الحيوان الأعجمي غاضب مني، كيف أصالحه، ما أعرف! أمس أخذت حقنة بي ١٢، أخذت فياجرا، قلت له: لماذا لا تذهب للدكتور يا ياباشمهندس، يقول: وماذا يفعل الدكتور، إذا كنت جربت أحدث منتجات العلم ولم يفلح، هذا الأعجمي غضبان مني ورب الكعبة، أنا صحيح لدي صحة ثور، ولكن لو أعرف ماذا يريد مني، أقول له ولكن ماذا تفعل مع المدام، يهز يده ويقولن وماذا أفعل إذا كان الأعجمي لا يريد، إنه أمر الله، قلت ولكن لا يجب عليك أن تتركها لحالها، يقول: هي لم تشتكي، بالعكس هناك نفور لديها من عملية الجنس، يا باش مهندس لا حياء في العلم، أنا هجيب لك الكلام من الأخر ولكن لا تغضب مني بربك، قال: قال قول لن أغضب، قالت:

لقد خلق الله اللسان لمضغ الطعام والكلام وأشياء أخري من هذه الأشياء، أن يقوم بالعمل بدل الأعجمي، ففرقع ضحكة وهو منشكح، وقال: لعنة الله عليك يا عبد ربه، ثم سكت لماذا لا تغير اسمك، لأن هذا الاسم حرام شرعاً، قلت: ولكن لماذا يا باشمهندس تهتم بالتوافه كأن الدول العربية ستتقدم بمجرد تغيير الاسم، ما علاقة تغيير الاسم الذي هو حرام شرعا بالموضوع الذي نتكلم فيه؟ لأن النبي لم يكن له عبد ولكن العبودية لله، قلت: عشان خاطرك أنا هغير اسمي من بكره في السجلات الرسمية، صمت قليلاً وكأنه يفكر في شيء وقال: وهل استقريت على الاسم، قلت اقترح، قال: وماذا برأيك في اسم أبو فهر، قلت أنا استقريت على الاسم خلاص، قلت: عبدالنبي سعيد، عجيني قوي اسم سعيد، فصمت قليلاً وفرقع ضحكة ماجنة

لشاذ وقال، عليك اللعنة، وضربني على ظهري فكدت أقع على وجهي، قلت في سري، حمار ده ولا إيه، والله ثور صحيح، فعاد مرة ثانية للضحك، ثم قال الضحك الكثير يميت القلب، لعنة الله عليك وتركني، وفي الصباح التالي وجدت زوجته تتجه نحوي وعلامة الغضب والشر في عينيها، كانت ترفس مثل الجحش الشموسي عندما اقتربت مني، كان وجهها "مزنهرا" مثل البلحة، وحب عينيها، رايح جاي بسرعة، خبر أيه يا أستاذ، أنت جاي تشتغل ولا تتكلم في المساخر وقلة الأدب، قلت: يا مدام فيه إيه بس، رفعت صباعها الأوسط على أنفها وقالت: الزم حدودك وتأدب مع الباشمهندس، أنت موظف حديث التعيين وكلمة على ورقة وسخة تلاقي نفسك في ستين داهية، قلت ستين داهية، حصلت، عموماً أنا مغلطش في حاجة ولكي راجل يترد عليه، راجل وعليه الطلاق زي الرجالة أن ما أخذت حقي وحق جوزي، ما أبقي أنا مسعدة، وتركتني وذهبت مهرولة، قلت يا دي اليوم الأسود، جلست متكدرا أفر في السجل وذهني تائه تماما وكنت أفكر في الفضيحة القادمة ليس هنا ولكن في المحافظة، ثم أكيد سيصل الأمر للصحفي بلدياتي وهو بعد خروجه للمعاش لم يعد في ذهنه صحافة ولا هباب، لأنها كانت تمثل له فقط مجرد وظيفة لا أكثر فقد كان في المحافظة ينقل نشاط الوزارة التي تنشر في صفحة داخلية هامشية ونادرا ما كانت الأخبار والتقارير تجد طريقها للصفحة الأولى بل كل الأحداث الكبيرة كان يتم تغطيتها وإهداؤها لزميل صحفي وكثيرا ما ثار ولكن كان يهدأ بعد ذلك ويمارس عمله عادي وبعد فترة طويلة انتقل للدسك المركزي، ورغم عمله الصحافي الطويل لم يكتب مقالاً، أو كون وجه نظر سياسة تجاه أي شيء يحدث في البلد، كان مهتما بالجمعيات والحج والعمرة والصلاة في وقتها، وتدبير المال اللازم لشراء قطعة أرض أو سيارة أو بناء بيت أو شراء أدوات منزلية معمرة ومتابعة الأولاد في المدارس فقد كان أولاده يحصلون في الدراسة على أعلى الدرجات وقد توسط بعد ذلك لهم في الشرطة والحربية ووظف ابنته وزوج ابنته في المطار، وأولاد عمه في الوحدة المحلية والمحاجر والمحافظة ووزارة الكهرباء، والري،

والإصلاح الزراعي، وأخوته : ماهر موظف بوزارة الثقافة وحسن بمجلس الوزراء مصحح لغة عربية وسالم متطوع في الجيش. ولم يعد يعمل شيء سوى الرغى لا يمل من الكلام وكون شبكة نميمة من خلال التليفون يترك هذا ليتصل بهذا، وبالساعات في القيل والقال. فبالنسبة له هذه فرصة فضيحة جديدة، أهذي وأكلم نفسي، حتى وجدت المهندس ظله فوق رأسي، رفعت رأسي فوجدته يبتسم ابتسامه خجلي، وقال: أنا أسف لقد سببت لك ألما كبيرا، طريقته الدرامية في الحديث جعلتني أضحك وأنا الذي كنت أجهز ذخيرة من الهجوم الحاد والعنيف، فقلت له: أجلس، قال: لن أجلس إلا بعد أن تسامحني وزوجتي، قلت أنت آه هيه لا، لا يعني لا فوجدته يبكي، قمت وقلت خلاص يا عم، أنا مسامح خلاص، أجلسته وقلت له ماذا فعلت، قال : لقد فعلت كما قلت لي، لقد قلت لها أريد أن أجامعك فوافقت وأنا وجدتها تفتح ساقيها فجلست على ركبي ودخلت برأسي وأدخلت لساني وأخذت ألعق، فقامت مذعورة تصرخ، وعندما فتحت النور ووجدتني ولم تجد أحد غيري فهمت الموضوع، فقلت لها إنني عملت بنصيحتك أخذت أضحك حتى دمعت عيني وقلت: طيب مش المفروض تتكلموا الأول عن الوضع، تهجم عليها زي السلعوة كده، لا غلطان يا باشمهندس، قال: أي نعم لقد ارتكبت خطأ، قلت عندي فكرة ثانية، قال: لا ثانية ولا ثالثة، كفاية لن تثق بي أبدا خاصة ،وأنا اجلس معك. هناك أيضا موظفون من جنسيات مختلفة ولكن لا نراهم فقط تأتي لنا التعليمات من خلال موظف زميل ثرثار بشكل جنوني، من أول ما يقابلني وهو لا يترك لي فرصة لرد، أو أعبر عن رأيي بحرف وينتقل من موضوع لموضوع وكأنه يكلم ذاته، كأن أمامه طوبة وليست بشرا، كنت أريد مرة دخول الحمام ولم يترك لي فرصة للاستئذان لدرجة أنني كدت أتبول على نفسي فتركته وجريت نحو الحمام، وأنا أقول :لحظة لحظة واحدة. وظللت فترة طويلة في الحمام وعندما خرجت لم أجده، فشار رخم وليس كطبيعة الفشار ولكن هو يقلد الأجانب الذي يعمل معهم، فمرة تجده يشرب السيجارة بطريقة معينة ومرة ثانية يتكلم بطريقة

غريبة عنه، ومرة يحكي أساطير عن نفسه، شيء في منتهي الجنون لذلك هذا الشخص الكتابة عنه عذاب، لأن رغم كل هذه الثرثرة لا أعرف عنه شيء، يظل يحكي عن أسرته كلام وعكسه، حتى اختفي تماما من ذاكرتي هو وأسرته، لا تستطيع أن تقبض على شيء، هراء، لذلك قلت له مرة الى الجحيم يا عم. استغرب.

كيف أقنع هذا الجاهل الفاشي بنسخ الملفات، الموضوع خطير، ليس لدي سوي الحيلة والحذر لكي أصل لما أريد. في البداية ذهبت الى المستعمرة التي لا يفصلنا عنها سوي سور ولكن الباب الرئيسي بعيد يحتاج للسير إليه في حدود نصف ساعة، انتظرت حتى انتهيت من ورديتي وذهبت مباشرة نحو المستعمرة، وفي الطريق بدأت أرتب لإدارة الحوار بحيث أصل لما أريد دون أن أثير ريبته، عندما وصلت للبوابة كان الحرس في هيئة مختلفة من حيث الملابس وملامح الوجه، كانوا أجانب بالتأكيد، لذلك تلجلجت وأن أقول في صوت ضعيف أريد مقابلة الصول عبد الشهيد، دون أن يجيب أحد ،ضغط واحدا منهم على لوحة مفاتيح أمامه وخلال مدة بسيطة وجدته، قد خرج إلي وهو في هيئة كئيبة حيث لحيته نابتة وملابسه رثة وهو المنضبط الحريص، استغربت أخذته بالحضن، وأخذت أسأل عن صحته، وصحة الأولاد ،والزوجة أم الأولاد والعمل، تركنا البوابة وخرجنا بعيدا عن المستعمرة ثم جلسنا على خزان مبني بالحجارة والماء تجري فيه، يوصل المياه للمزرعة من خلال ماكينة ضخمة، كان شكل الماء بديعاً، فأخذت أغرف بيدي وأشرب حتى ارتويت، ثم نزعت الحذاء والشراب ووضعت قدمي في الماء، كان الماء بارداً ولطيفاً وأحسست براحة وكأن الماء يمتص الوجع وتساءلت لماذا أنا دائماً متعب؟ رغم عدم قيامي بأي مجهود يذكر، أتصور أنه العامل النفسي، فأنا صحتي جيدة ورغم ذلك أجدني مرتخي الأعصاب، لماذا لا أشد جسمي وأسير بقوة، وانفض عني هذا التهدل المريع.

قلت: مالك

حال منيل بنيله

مشاكل في البيت

لا والله الحمد لله الأولاد بسم الله ما شاء الله يفرحوا القلب الحزين، الكبير خلص كلية الطب ومستقبلة مشرق والثاني في بنك إسكندرية والثالثة خلصت آداب واتجوزت دكتور في الجامعة، ولم يبق سوى محمد في الثانوية العامة والحاجة الحمد لله حجت مرتين وعملت عمرة.

حياة تسير بشكل جيدة دون منغصات ولا دراما، حياة كالسكين في الزبد وأنا كلما سرت في طريق أجد كم من الخراء يجهض أي حلم

ملت عليه وأنا أهمس :يا عم قول فيه إيه؟

نظر إلي وقال: الكلام في الموضوع ده خطير لكن معدتش قادر، الوضع هنا لا يسر يا بلدياتي، أنا بقالي ستة أشهر لم أذهب للأولاد.

ــ ممنوع..؟

ــ المصيبة أن محدش مانعني خالص، الباب مفتوح وفي أي يوم، لكن المشكلة عندي أنا، قالها بصوت مبحوح وتجاعيد وجهه تشي بحالة من القهر والمرارة والحزن، أنا لو فضلت كام شهر كمان هموت من الهم.

بعيد الشر، قول كلام غير ده يا حاج، روق، أنت ربنا ساترها معك والأشياء معدن.

ضر ب كفاً بكف وقال: يا جماعة، أنا مش عارف الناس الأجانب دول جنس ملتهم إيه، المدعوكة دي اسمها مستعمرة للعقاب، وأنا جاي على هذا الأساس، ومتحمس وعندي حزمة من الأفكار اكتسبتها من خبرتي الطويلة في السجون المصرية، وقلت أقضي أخر سنوات

حياتي في عمل يرفع من مرتبتي الاجتماعية، واضع علامة في المشروع لكي يكتب اسمي ضمن المؤسسين كرائد في هذا المجال ولكن تم العصف بي، تم سحقي، أنا اشعر بالإهانه والظلم.

المشكلة فين؟

المشكلة أني أنا الصول عبد الشهيد عمران حسن في هذا المكان مجرد قلوط، قلوط لا أكثر ولا أقل، لا عمل، أصح من النوم أمر على العنابر، ألف في الحوش، أمر على الإدارة عشان حد يطلب مني شيء أبدا، طيب أنا فايدتي إيه؟

كانت الدموع تلمع في عينيه وأنا أمسك نفسي بالعافية من الضحك حتى أن جسمي كان يهتز فعلاً.

أنت متصور أن ده عمل كلشنكان، لا يا حبيبي. نغزني في كتفي فخرجت مني ضحكة ثم سيطرت على نفسي.

-أسف لم يلتفت

العمل ده جزء من إيماني

جزء من محاولة التقرب الى الله

طبعا العمل عبادة

صحيح لكن يتجاوز العمل العادي، أنا قلت لك قبل كده أن جسم الإنسان لازم يُقهر، لازم يتعذب عشان يمشي على الصراط، بص يا سيدي الجسم ده فيه مسام لها فوائد كثيرة جدا، لكن لها شر واحد أن ده منفذ للشيطان يدخل ويحرض الجسم على عمل المنكرات، والأذية، لذلك أنا كنت لما أضرب سجين مجرم، أو عاصي ما كنتش بضربه هو، خلي بالك بس، كنت بضرب الشيطان الماكر جوه جلد الإنسان، بعمل عمل طيب يشيل عننا أخطاءنا يوم الموقف العظيم، ولما جئت هنا كنت عايز أقدم للعالم كله خير، يمكن لما يقع تحت

يدي الأجنبي البعيد عن الملة يمكن نطهره من الشيطان ويفوز ويدخل الإسلام لكن ما أدونيش الفرصة، غريبة لكن أكيد برضو لك دور

هز رأسه في قرف قلوط

ضحكت بصوتٍ مرتفع لفترة طويلة وعندما توقفت قلت: والبرنامج قال مش عارف تعال .. وسحبني من يدي وسار أمامي ودخل المستعمرة دون أن يمنعنا أحد كانت المستعمرة عبارة عن مجموعة من الفيلات فدخل بي في واحدة منهم، كان البناء بديعاً ونظيفاً وكأنه مجموعة من المكاتب يفصل بينهم حائط زجاجي مرتفع، الغرفة بها انترنت وتلفزيون وحمام، وهناك النزلاء يجلسون ،كلٌ كما يريد فبعضهم نائمٌ، وبعضهم يشاهد التلفزيون وآخر يتصفح الصحيفة، وهناك رجل يقرأ في رواية، حياة طبيعية تماماً سرت، أرصد أحوالهم، لم يكن هناك شيء شاذ، أو غريب، ناس نظيفة وكأنهم في منتجع سياحي، قربت منه

- غريبة

يلعبوا رياضة، ويتنططوا، وفيه ويك إند ورقص، – قال بصوت مرتفع مش قلت لك

-ثم همس في أذني وقال تصدق بالله أنا لدي ريبة أنني أنا الموكول بتعذيبه في هذه المستعمرة، وأن كل هؤلاء مجرد ممثلين لا أكثر، أكيد أنا غلطت في حاجة والإدارة غضبانة على وأرادت التنكيل بي فرمتني في هذا المكان ومن خلال مجموعة من أبناء القردة والخنازير والحواة يتلاعبون ويتمسخرون على في هذا السن من عمري حتى أجن عدنا الى الخارج، وأخذت أنظر على تنسيق الحديقة التي تتوسط الفيلات والزهور النادرة والصمت المخيف حتى ارتعش بدني وخفت، وقلت أنجو بنفسي، وطلبت منه أن نخرج قليلاً أو نذهب للمقهى لنكمل الكلام وقال: أنتظر قليلاً حاولت أن أداري خوفي ولكن بدوت أرتاب فعلا من هذا المكان الخالي من السلطة، المفعم بالحياة والموت والقوة والعنف والغباء.

انج بنفسك وقدم طلب معاش مبكر ولن يحث شيء.

بقولك أنا مش قادر أغادر المكان، حاسس أن الناس دي وضعوا لي في الشاي مواد كيماوية ربطتني بالمكان، وخلتني أقوم بتصرفات غير مألوفة بالنسبة لي، خلتني أهتم بالنسوان، ودي حاجة غريبة، أنا بقيت مراهق يا جدع، واحد في السن ده يبقي مراهق، ويمارس أعمال عيال، أنا سعات بتخيل بنتي أو مراتي بيشفوني وأنا في هذه الأوضاع الشاذة، فأعرق وأصاب بدوخة ووجهي يصفر زي الليمونة، أنا طول عمري ملتزم، وحافظ كتاب ربنا، ومحافظ على صلواتي ولا أُؤذي جاري، أو أشرب منكر مع أنه ببلاش، لكن حد الله بينا وبين الحرام، وكافحت مع أولادي في التعليم، أنت ما تعرفش تعب تربية الأبناء قد إيه متعبة، سنوات طويلة تتابع وتحوش القرش على القرش من أجل أولادك، أنا انهزمت يا بني ومحدش قدر عليه غير أولاد الحرام الكفرة اللي لعبوا في دماغي، ساعات أتنطط زي القرد وكل يوم بالليل أقرر الرحيل وفي الصباح أجد ألف مبرر لعدم الرحيل.

لن يحدث شيء، مفيش حد بينج بنفسه في الإدارة، الكل ينجو بالصدفة، بالغير لذلك أنا قاعد في هذا المكان بدون أن أشكو حتى أموت أو تأتي لي النجدة، ولكن أنت تعبان وبرأيي على الأقل تأخذ أجازة أسبوع أو اثنين.

كان شاردا وكأنه يشاهد مسلسلاً أو يري أحداث الساعة، ثم أخذ يتمتم حتى أنني قربت أذني كي أنصت له : كان قلبي صخرا في مواجهة المجرمين، وكنت عندي استعداد لخوض الشجار رجل لرجل بدون سلطة، بدون أدوات مساعدة، كانت يدي، هي رأس مالي وعزوتي في الإدارة، في يوم هاج مجرم مدان، بسبب الحزم في إدخال المواد المخدرة أثناء حراستي، كان مطلوقا كثور، وضرب نفسه بالموسي، وعور ثلاث من المساجين والحكمدار كان بيرتعش ورب الكعبة دخلت عليه ضربته مقص، وركبت فوقه ولويت رقبته لما طلع لسانه

وقضي باقي أيامه زي الكلب، بعد كده حد ابن حرام وشي بي نقلت على أثرها الى سجن العقرب والمحتجز فيه العيال اللي بتحارب الدولة، بعد فترة أعجبني المكان، دكاترة ومهندسين وأطباء، ومدرسين أشكال عجب، لكن كنت فخورا أن كل دول تحت جزمتي ،بيتمنوا رضاي أنا الحاصل على الإعدادية بشق الأنفس، الوقت أنا انتهت حياتي لكوني فار تجارب، وكأني لم أقدم شيء لهذه البلد تصدق وتؤمن بربك، أنا زعلان من البلد دي اللي ما تقدرش رجالتها، أنا صعبان عليه يا أستاذ بلدي اللي أفنيت حياتي دفاعاً عنها تتركني هكذا في متاهة يتحكم في أولاد الأنذال ويمرمغو شيبتي في الأرض، لو على يغور عبد الشهيد، عبد الشهيد ده ملوش لازمة، لكن الرصاصة موجهه لمصر وأشار للزي الميري، لكن تقول لمين؟

ثم صمت تركني وأخذ يدور بين الزهور في حالة ذهول ، يدور في الممرات ثم يتوقف وينظر للسماء، ثم يعود مرة ثانية للسير، ثم يجلس ويقوم عدت مرات ليظهر أن الأمر عادي، ثم عاد إلي وهو يقول لقد عروني، قلعوني البنطلون قدام الأغراب، قالها بطريقة تثير الضحك ورغم ذلك لم أضحك، واحد لطخ زيي كان متصورا أن الكل مراقب في هذا المكان والكل أدوات للفرجة والمسخرة ولكن اتضح لي أن الكل هنا مؤمن وأنا المسخرة، اللي وجعني إني مش عارف غلطت في إيه، عموما أنا حقول لك حكايتي من أول ما وصلت من ثلاثة أعوام الى الآن واحكم أنت، ،يمكن أنا قصرت في حاجة ومش واخد بالي.

(٢)

انتقل للعمل في المستعمرة في الشتاء فكان الجو يناسبه لذلك لم يشعر بضيق وعاش أياما جيدة رغم إحساسه بغرابة الوضع وركنه، فكان يتصور أن المؤسسة في بداية عملها ودوره في الإدارة لم يحن بعد لذلك اعتبر الأمر تدريبا على فترة التقاعد خاصة إنه قد وصل لسن الخامسة والخمسين، ولم يتبق له سوي سنوات خمس سيقضيها في المستعمرة، ليعطيها عصارة روحه وفكره، يتمني أن يكون هذا الانتداب نوعا من المكافأة على كفاحه المرير وحياته الصعبة والذي بذل فيه جهودا جبارة لحماية الأمة من الخونة، لم يكن يهمه المال فهو يحصل على مرتب جيد ونفقاته متواضعة ولديه فائض موجود في البريد، ولكن أن يقبض بالدولار أشعره بالتميز، والعمل مع الأجانب جعله فخورا بنفسه، لقد قضي حياة حافلة قضاها في العمل في أقبية السجون، لذلك عندما رأي المكان بجمال وعماراته وزهوره والبشر الذي يتعامل معه قال:

لقد طابت لي، خاصة هذه الحدائق الباهرة عاش يأكل أحسن أكل ويشرب ما يشاء من العصائر، بعد فترة بدأت الأسئلة حرابا صغيرة تنغزه لماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ لم يجد جوابا، القلق يناوشه ثم يهاجمه، لم يعد يستطيع النوم، صحيح لم يشعر بضغوط مباشرة ولكن العمل في حد ذاته جزءا من عقيدته بعد ذلك في النهاية رجل عمل لم يسترح يوماً في حياته، حتى يوم الجمعة يخلق لنفسه عملا، ولكن قال: أتأقلم مع الواقع في النهاية سأترك هذا المكان وأعود لبلدتي ولن أعمل لنهاية عمري، ولكن مللت القعاد، فأنا لست مشلولاً ؛لدي قوة حصان، لماذا أقعد هكذا، ثم جاء السخام الطين الصيف فتكدر حالي خاصة في يوليو، نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، على هذه البقعة من العالم نتيجة مغادرة الشمس العالم لأسباب تخصها وتركز ضوؤها وحرارتها عليها، لتحولها إلى أتُّونُ، مَوْقِدُ بحجم هذه المكان، تسقط ضوءاً عموديا، دون أن تميل، أو تنكسر حدتها إلا بالمغيب الفجائي، وعندما احتمي بظل البيت، يا سابل الستر. حوائط وسقف

البيت _سكني منفصل عن سكن المستعمرة في منطقة بعيدة ولكن داخل المستعمرة – قَلاّية تبخ صهدا ورطوبة مرتفعة بشكل رهيب جعلتني أخرج عن الملة، وأسب سباباً فاحشاً منتقى تصورت إنني نسيته ، جعلت عاملة النظافة تضحك ضحكة رقيعة، فزاد ذلك من غيظي هذه الكتلة من اللحم العفن أوغرت صدري بغل، فكرت على إثرها في إيلامها بأي طريقة، مثلاً أن أبث سموماً في وجهها بسباب ولا سوط منقوع في الزيت، أو أذهب إليها أضربها ضرباً مبرحاً يجعلها تندم باقي عمرها.

كما إنني أشعر براحة تجعلني أستمر في الحياة، الضرب والأذى ينعشان الروح ويخلقان داخل الفرد شفافية من نوع خاص، هذا ما وصلت إليه وفكرة أن الضرب نوع من الهمجية فكرة رقيعة وبائسة، فداخل الفرد طاقة مظلمة، لا يعرف كيف يصرفها ولكن الضرب، الاعتداء على الأخريين، أو على الحيوان، أو حرق منازل، أو النباتات، الطاقة الشريرة، أساسية في الحياة، لكل فكرة جانب ما خير وجانب شرير تستطيع أن تقلبها وتطوعها كيفما تشاء، عاملة النظافة هي الوحيدة التي يراها في هذا المكان لذلك علاقته بها علاقة معقدة، فحالة الفراغ الذي يعيشها جعلته يفكر فيها كأنثى رغم كونها بدينة فهي تذكره بزوجته، طول حياته يحب المرأة البدينة، عينه لا ترى إلا إياها جسده لا يستجيب إلا للبدينات صحيح أنه إنسان ملتزم ولم يقرب الحرام مرة واحدة ولكن العين زانية وهو ينظر إليهم بنصف عين، والدته أيضاً كانت بدينة، زوجته أيضا تشبه أمه، مرة تسأل بعفوية، هل الواحد يحب جنسياً بالفطرة ولذلك مهما ذهب في علاقته يذهب الى حيث شبيهات أمه، أم العين اللعينة التي تفتحت فوجدت جسد أمه أمامه فتركز في عقله وقلبه، الفرق بين زوجته وعاملة النظافة أن عاملة النظافة لعوب، شهوانية وزوجته فطرية طيبة لا تخرج من البيت أبدا، وهي ترتعب من مجرد مرورها في الشارع حيث تذهب للتسوق، عندما لا يكون موجودا تسير في الشارع وهي تنظر للناس بنظرات توجس وريبة، وكأنهم كائنات متوحشة ستنقض

عليها وتلتهمها، لذلك عندما تأتي من السوق يكون وجها أحمر وهى تلهث من التعب، والخوف الذي يجعل قلبها يدق بعنف، وعندما تجلس ينقطع نفسها تماماً فقد قطعت الطريق بربع المدة التي تقطعها لو كانت معه، وبعد فترة عندما يجف عرقها، تحضر كوب ماء لصبه بين ثدييها وتغسل وجهها وتحكي لي عن مغامرتها في الشارع وتظل تحكي عن عمليات الشراء وكل فرد موجود في السوق، له ذاكرة رائعة تحتفظ بكل شيء وكأنها خزانة هي تتصور أنني سأطلقها لأنها بدينة ومما زاد من شكوكها، وقد حاولت أكثر من مرة إن تمارس رياضة وتتبع برنامج التخسيس لإنقاص الوزن ولكنها فشلت تماماً.

زوجتي تبدو عطوفة ومنكسرة عكس المنظفة" الوسخة" التي تلعب معي بطريقة شيطانية، تحدثني بصوت ناعم، صوت جنسي صارخ وكلم اقتربت أو حاولت مسك يدها أجدها تخرج صوت قبيح وكأن مسها شيطانا، هي لا تطلب مني شيء بشكل صريح ولكن هناك ألف وسيلة لإيصال الطلب الذي يخيفني إحساسي أن لديها رغبة في التسلط عليّ تريد أن تحبطني أكثر مما أنا محبطً وكأنني سأدفع الثمن وحدي، كأنها ستفرغ طاقتها العمياء داخلي، وأنا أجلس محسورا منتظر تحطيم جسدي تحت عبء القهر، لم أعد قادرا على السيطرة على غضبي، وعندما أغضب أصبح كالثور الهائج أدور في المكان دون أن أفعل شيئا، فقط صدري يغلي بعنف، يرتفع وينخفض تحت ضغط الغضب ،ولا أجد أي طريقة لتسريبه، سوى أن تقبض يدي على عنقها وتلويها بعنف ورميها على الأرض، لن يحدث شيء، قد يكون هذا حل ولكن ليس الأنجع في هذا اليوم قررت أن أتجاسر تحركت فعلاً تجاه المطبخ فوجدتها منكفئة تنظف البوتاجاز ومؤخرتها في مواجهتي، أبْ، أبْ . مصيبة لم تكن في بالى، ترتدي جلابية بيضاء منقوش عليها زهورلونها زهرى، وطيور لونها أحمر. الجلابية ملتصقة بالجسم، وساقطة بين الفلقتين فبدت مثيرة، توقفت وقد أثارني اهتزازها الرتيب المنتظم، تراجعت للوراء لكي لا تراني وأخذت أتلصص عليها، وبدت فورة جنسية تتملكني غطت على

كل شعور، كيف أسُرب رغبتين تتملكاني، غضب، وجنس واحدة فقط تعيق تفكيري، لم يحدث لي ذلك من قبل ، دخلت الحمام وصببت على جسمي القليل من الماء المتاح.

ارتديت بنطلوناً وفانلة وسحبت الحصيرة التي صنعتها بيدي وفردتها في مقابل الباب الذي يتسرب منه قليل من الطراوة، ونمت على بطني وأنا أطل برأسي من عتبه الباب وعندما تعبت، انقلبت على ظهري وأخذت أحفر في منخاري، ثم أبرم المخاط الجاف وأضعه على ظفري ثم أقذف به خارج البيت، ثم أعود مرة ثانية، حتى خرج أصبعي بنقطة دم فتوقفت، تبللت الفانلة بالعرق، فخلعتها ورميتها بقوة. وظللت بالبنطلون فقط.

شيء لا يطاق لا أحد يستطيع الاستمرار دون نوم ليلاً، فتحت المذياع الصغير الذي كان رفيقاً طيباً طوال عملي، توقف المؤشر على البرنامج العام حيث انطلق صوت قوي مفعم بالحياة والقوة.

"أيها الحفل الكريم:

"إن قواتنا المسلحة الآبية الباسلة، تستعرض أمام سموكم الكريم، هذا اليوم، وهم يحملون أجمل المشاعر الصادقة، ويعبرون عن عشقهم، الذي لامس شغاف القلوب، لوطن المحبة والإخاء، ها هم يا صاحب السمو قد حملوا أرواحهم على أكفهم، وتباشير الفرح والسرور، تغمرهم وهم يقدمونها فداء وتضحية لوطن الأمن والسلام، ولسان حالهم يقول، أيها الوطن الأشم هذه دمائنا الذكية نقدمها رخيصة صوننا للوطن مستمر في إدارة المؤشر بشكل آلي وذهني في مكان أخر، حتى انتصب قضيبي، توقفت عن تحريك المؤشر وأخذت أهرش بقسوة، ثم توقفت وقد شعرت بالرغبة في التبول، فقمت ودخلت الحمام وحاولت التبول فوجدت صعوبة في ظل انتصاب القضيب. رششت عليه ماء من ألجركن، وأخذت أشتت ذهني حتى

ارتخي القضيب فتدفقت المياه، ثم فتحت صنبور المياه، فنزلت المياه ساخنة، لم يحتملها كفي، فقذفتها سريعا على القضيب، فتألمت بشدة وبعد زوال الألم شعرت بلذة، فعاودت رش قليل من الماء فسقطت على خصيتي فصرخت.

ابتسمت وأنا أرى القطرات الساخنة تنزلق على خصيتي متتبعاً مسارها، محتملاً ألمِا ممضا، ملأت كوبا بالماء المتدفق من الصنبور وأدخلت عضوي بحذر داخل الماء، المياه نار، تعرقت من قسوة الألم فقد شعرت أنه تم سلق قضيبي .أخرجته ونظرت إليه، صعب على وهو مرتخٍ تعس، غمسته في سرعة، فوجدته قد خرج من تشرنقه، الرأس منتفخ، أحمر مزنهرا، وبدا يكشف عن حضوره، شعرت بمتعة وتدفقت سعادة داخلي، عاودت اقتحام الماء بجسارة وبسرعة خاطفة، فانتصب زعقت بصوتٍ عالٍ، شرموطة، وسخة، لبؤة. أخذت أنظر للماء بغضب، وبرغبة في اعتلائها، بخار يرتفع في شكل خيوط متقطعة، تحذر من عقاب محتمل، أخذت أتأمل سكون الماء الصافي صفاء محايد داخل الكوب الإستنلس الذي يعكس أضواء الشمس المتدفقة من الشباك، أفرغت من جركن الماء البارد قليلا من الماء على القضيب فشعر بالانتعاش والرغبة في اقتحام الحصن مرة ثانية، نظرت إليه بعد الارتخاء الذي جري بعد مرور الماء البارد وشعرت أنه يشعر بالبؤس والضآلة، كان ينسحب في كمون داخل الجراب الجلدي، شعرت بالأسى تجاهه. أدخلت خصيتي داخل الكوب وأخذت أطوح جسمي يميناً ويساراً ملتذا وقد غمرني عرق بارد, وبدا يتدفق من داخلي براز عفن ذو رائحة كريهة، وعندما انتهيت سحبت الخرطوم وفتحت الصنبور وأخذت أغسل نفسي، ثم خرجت من الحمام، خاملاً وعندما تمددت على الحصيرة واستغرقت في نوم عميق إلى أن رأيت دخاناً أبيض يتدفق من الخارج داخل البيت شعرت بالاختناق، حاولت أن أجري ولكن لم أستطع فقد كان جسمي ثقيلا جدا، جرجرت نفسي حتى وصلت للباب مددت رأسي خارجا، فوجدت ريحا سوداء مسمومة، تدفق داخل فمي المفتوح حتى لم أعد قادراً على التنفس.

(٣)

بعد وفاة د إبراهيم، وعدم حضور جيمي، الجنازة، وبيع ماري للفيلا وقطعة أرض اشتراها بعد عودته، عادت مرة ثانية لألمانيا، وانقطعت أخبارها وجيمي توقف عن الظهور في القنوات الفضائية، ولم يعد أحد يتابعه، في تلك الفترة بدا حراك كبير في القاهرة وبدا الدعم الغربي للتخلص من الرجل العجوز، واضحة لا لبس فيها، بعد أن انتهت صلاحيته لأسباب لا علاقة لنا بها ولكن يعلمها السي أي إيه ولذلك بدأت تصنع سياجاً حمائي للجمعيات الحقوقية التي نشأة بدعمها لذلك بدا خطابها أكثر عنفاً وثورية، ثم بدأت الدعوات للتظاهر بقوة، فقابل ذلك العجوز بالسماح لجماعة الإخوان بالعمل السياسي المباشر فكانت مفاجأة انتشار لا فتات للإخوان في شوارع القاهرة، وظهورهم القوي في التجمعات والندوات وتبادل حميم من شخصيات داخل النظام في مناسبات تخصهم، وظهور الإخوان، المراكز المالية مولت تظاهرات وجماعة الأدباء والفنانين كان يمولها رجل أعمال معروف بكونه يتابع ملف الكتاب وهو حاضنة لعشرات من الكتاب، يمول نشر أعمالهم، ويدعوهم للسهر في فيلته، الخ.

الجرائد القومية رفعت سقف حرية النشر بشكل غير طبيعي، حتى تحول بعض المقالات لمنشور حزبي، وفي ظل هذا الزخم كان هناك خبر في جريدة الأهرام ببنط كبير عن اختفاء الناشط السياسي جمال إبراهيم في ظروف غامضة، حيث كان في زيارة للقاهرة، وقدمت سيرة مختصرة لحياته لنشاطه الثقافي السياسية وأكثر المواقف والمقولات والأفكار المثيرة والصادمة، وكتب السيد أسامة سرايا مقالا طويلا عن التراث الإرهابي لجماعة الإخوان المسلمين وحمل المسئولية للمرشد بشكل مباشر السيد مهدي عاكف، الموقع الالكتروني لليوم السابع قدم تغطية نارية واستعان بكل كارهي الإخوان من قضاة سابقين، وأمن، كتاب وفنانين، صحافيين في الأيام التالية كان هناك سيل من المقالات، التي تدين بعنف، هذا العمل الإرهابي.

السفير الألماني في القاهرة أصدر بياناً مقتضباً قال فيه نحن نتابع الأمر مع وزارة الداخلية، مدير الأمن يستقبل السفير الألماني ويؤكد له على جدية الدولة ووزارة الداخلية في البحث عن جمال، ويؤكد على أن الآن العصافير في المصيدة ولا داعي للقلق، السيد عصام العريان دخل في مناقشة مثيرة مع فضائية "دريم" عبر خلالها عن رفض جماعة الإخوان للعنف وأدان بكل قوة باسم الجماعة عملية الخطف، تم إعادة بث كل الفيديوهات الذي أظهر فيها جمال تحدياً للتيار الإسلامي عموما، مما حدا بالسيد محمد حبيب لكتابة مقال عنيف ضد هذا الاستفزاز المستمر لثوابت الأمة، وطالب النظام بالرشد، وعدم الانسياق وراء مطالب الغرب التي تريد هدم الهوية، الكُتّاب بتنوعهم، أصدروا بيانا عاصفاً طالبوا فيه باجتثاث الجماعات الإرهابية والجماعات الداعمة، هاجم، وهدد كاتب لم يصدر له عمل إبداعي من عشرين عام بتفجير نفسه في ميدان التحرير احتجاجاً .

ودعا النظام لغلق المدار س الدينية، وإغلاق الأزهر معقل الرجعية والمدافع الأبدي عن ممارسة الإرهاب، وبعد أسبوع لم يظهر جيمي، فطالب الصحافيون بإقالة وزير الداخلية المتواطئ مع جماعة الإخوان، كانت الهجمة عنيفة لدرجة أن وزير الداخلية ارتجف ،واجتمع مع المساعدين وطالب بحل سريع، فتم التوصل لبيان قالت فيه: إن وزارة الداخلية حجر عثرة أمام كل قوي الشر، وأنها تراقب بدقة الجماعات الإرهابية ،وأن هناك عدة خيوط تتجمع ليس بينها الجانب الإرهابي، ثم بعد ذلك بفترة بسيطة ظهر جيمي فجأة وقال: إنه كان يستجم في الواحات ولم يكن هناك شبكة محمول أو نت، ثم ظهر في لقطة تذكارية داخل السفارة الألمانية في حوار باسم ودي مع السفير.

وتم إغلاق ملف جيمي بعودته الى ألمانيا ولكن لعب القدر مرة ثانية ليعود للضوء، وقد حدث ذلك في نهاية حكم العجوز حيث كان الشارع يغلي، مما جعله يشعر بالخطر، ولذلك دعى عددا من أوثق المحيطين به لاجتماع مصغر في قصر الطاهرة، حضره وزير الدفاع والثقافة

والمخابرات، والإعلام، وجمال وأحمد عز وعلى عكس طبيعته الباردة وهزاره السخيف، بدأ جادا وأبويا مع الحضور، وودودا، ومع بداية الاجتماع تكلم وقال: الموضوع واضح لا لبس فيه، الأمريكان مش راضيين عنا عشان كده زقين رجالتهم، يلعبوا معانا وطبعا لو استخدمنا العنف، يهيجوا العالم علينا ولو صهينا، العيال هيكلونا، ثم صمت، أنتظر الحضور استمرار في الحديث ولكن لم يتكلم، ثم قال: إيه رأيكم إزاي نتصرف لحد الهوجة دي ما تمر، أخذ كل من الحضور يدلي بدلوه في الموضوع، واحد أشار للدعاية حيث تقوم الدولة بعمل إعلانات مدفوعة في الصحف والقنوات الفضائية وعلى اليوتيوب والفيس بوك، وأخر أشار لدور للأقباط من خلال البابا شنودة حيث يذهب لعمل فحوصات ويتم التواصل مع الجالية القبطية، والمسئولين هناك، البعض أشار بعمل انتخابات مبكرة والسماح لمنافس بالحصول على ٣٠٪ وبذلك نظهر كدولة ديمقراطية تمارس حق الانتخاب بصورة تنافسية حقيقية، وأخر طالب بتغييرات محدودة وإعطاء دور للسيد جمال مبارك انفرد سكرتير الرئيس السابق، بالحديث مباشرة وقال: يا ريس مقدمناش غير إسرائيل، هي اللي ممكن تكبح جماح أوباما غير كده وقت ضائع، ودلل على قدرة إسرائيل واللوبي اليهودي في التأثير في سياسات الولايات المتحدة، بعشرات الدلائل المقنعة، والشواهد الحاضرة في الذهن.

أشار لوزير الثقافة قال: مش مختلفين بس إيه ممكن تقدمه لإسرائيل عشان تقوم بالمهمة، أنت عارفهم ما بيلعبوش مجاني .

المخابرات قال سهلة، هما لهم طلبات وكل يوم اتصالات ممكن نجهز باقة ورد . وزير الأعلام قال: لازم الزيارة تكون سرية ومن خلال عنصر غير رسمي بحيث لا يتم كشف مضمون الزيارة وإلا ضعنا قدام الجماهير في الوقت مزرٍ، هنظهر وكأننا نستجدي من إسرائيل التدخل لحمايتنا علنا وهذا صعب، خاصة الشارع ملتهب بالحماس. هز العجوز رأسه وقال: معاك حق، لكن كل الاقتراحات دي تنفذ، شنودة، يسافر، إعلانات ضخمة في كل الوسائل

المؤثرة، الاتصال باليهود. قال وزير الدفاع: كل واحد يكتب ورقة فيها اسم ونشوف الأفضل للمهمة.

تم توزيع الورق على الحضور، وتم استعراض الأسماء، فكان الاسم الرابح الذي قدمه وزير الثقافة وهو جمال إبراهيم البحراوي، ذو التاريخ الملتبس، والهوية الملتبسة، والرغبات الملتبسة، وصاحب الأدوار الملتبسة أيضاً، تم الاتفاق مع الوزير ليقوم بالمهمة بالتنسيق مع الأجهزة المخابراتية، في صباح اليوم التالي كلف رئيس هيئة الكتاب بدعوة جمال باعتباره كاتب لحضور معرض الكتاب، وتم الاتصال به ودعوته رسميا للحضور معرض الكتاب وعمل ندوة له لمناقشة كتابة" أقنعة الإسلام، أم المسلمون" الصادر عن دار نشر ميم، الشهيرة، والذي صدر بدعم مباشر من وزير الثقافة، وتم دفع مبلغ كبير كدعم سرى للدار ،وتم عمل الكتاب حفلات توقيع، وندوات في التليفزيون وحوار كبير في جريدة أخبار الأدب، وتم الاحتفال به باعتباره باحث شاب ثوري، لذلك صدم وزير الثقافة من رفض جمال للحضور، دون تبرير، معقول، فقام بالاتصال به في المساء من منزله:

-أزيك

-أهلا معالي الوزير الفنان، كيف أحوال معاليك، حضرتك هذا شرف لا أستحقه

-يا راجل دا أنت مفخرة للمصريين، وإحنا بنتشرف بيك

- الشرف لي معالي الوزير

- زعلان منك يا غالي .

-معقول هو أنا أقدر أزعلك

-أيوه يا سيدي زعلتني، هو أنت لم ترفض دعوة الوزارة مش ده يزعلني برضو

-لو تعرف حضرتك الدعوة دي أسعدتني إزاي، هتعرف قد إيه حزين على عدم تلبية الدعوة،

- يعني علينا نبحث عن المرأة

-هههههههههه أبدا والله دا الموضوع بسيط جدا، أنا أعاني من زمان بسبب الغضروف، وفي الفترة الأخيرة، معدتش قادر خالص

-لا لا وساكت على نفسك ليه؟

- ما هو أنا خلاص أتحدد لي العملية خلاص نهاية الشهر

-لا ألف سلامة، لو عايز أي تسهيلات، أو تتحمل الدولة العملية، القرار جاهر

-صمت قليلاً وقال: هذه بادرة طيبة من فنان حقيقي

-خلاص من بكرة حد يتصل بيك ويقوم بكل المطلوب، لكن لازم تحضر مصر عشان بعض التفاصيل الصغيرة، ولن تتكبد أي مشقة.

عاد للقاهرة مساء الخميس وتم الحجز له في فندق رمسيس هيلتون لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم التالي كان وزير الثقافة في انتظاره، بعد المقدمة التقليدية والشراب، فرد أمامه الأوراق، وقال له كل الأوراق منتهية لكن الجماعة يريدون أوراقا مكتوبة، ودورك توصيل رسالة سرية للإسرائيليين.

-نعم، نعم سيقوم الجانب الإسرائيلي بترتيب الزيارة وتأمينك، من بداية نزولك أرض إسرائيل حتى عودتك..... -

-لا تقلق من أول نزولك ستكون في صحبة عنصر من الجهاز .....

-لا لن يكون هناك ختم على الجواز سيكون هناك بطاقة خاصة للتجول في أرض إسرائيل بحرية تامة وتسهيلات لا تتصورها، ثم من الممكن وضع ترتيبات لعمل عملية الغضروف في واحدة من المستشفيات هناك

-تمام الله عليك يا مبدع

-أنت محل ثقة، ومصر لا تنسي رجالها المخلصين.....

بص دول ولاد كلب عفاريت عندهم هناك مراكز ومستشفيات متقدمة جدا، تفوق الدول الأوروبية، وهما هيعرضوا عليك عدة اختيارات ومراكز، وأنت تختار.....

شوف خط السير هيكون من الأردن من خلال معبر نهر الأردن (الشيخ حسين) ده معبر حدودي بين إسرائيل والأردن مخصص لعبور المواطنين الإسرائيليين والأجانب.

في اليوم الثالث سافر للأردن ومنها للداخل الإسرائيلي وسلم الخطاب لمسئول استخباراتي رفيع، وتم الحجز له في فندق النبي داود وطلب أن ينام في الجناح الذي نام فيه الرئيس السادات فهو كان يعشق الرئيس السادات ويراه عملاقا كبيرا، كما أن شخصيته وطريقته في الحياة كانت تجذبه، وظل هناك شهر يتجول في المدينة التاريخية، ويتحدث مع الناس عرب بالعربي ويهود بالإنجليزية والألمانية واستطاع تكوين علاقات مع بعض الكتاب من فلسطيني عرب ٤٨ وتم عمل ندوة تكلم فيها ساعة، وفي المساء رفع الفيديو على اليوتيوب، بحساب مزيف تحت اسم "عمر أمين" مواطن من عرب ٤٨ وانشأ صفحة على الفيس بوك وأرسل صداقات لناس معينة يعرف جيدا أنها ستهيج وتسب فيه وتكفره، وفعلا وأخذ المواطن " عمر أمين "يكيل المديح لجمال وينشر صور تجوله في المدينة التاريخية وقيادته لفرقة كانت تعزف مقاطع لحنية من أعمال برامز، القومجية، تلقفوا الفيديو وسيل من المقال، وبعض الكتاب أدان تصرفه القبيح، والبعض عمل له بلوك وظل لفترة طويلة، عندما عاد الى القاهرة قابله بابتهاج حقيقي، وأخذه بالأحضان وقال له: والله معلم، تعليم بره بقي، شوف أنا عمري ما شاورت على حد وخذلني أبدا، عارف ليه؟ لأني صياد، أنا صياد وعلى فكرة جوايا حلم مدفون مش قادر أعلنه لو مسكت وزارة الداخلية، أو جهاز استخباراتي كنت أبدعت، لكن الحقيقية وزارة الثقافة لها دور حيوي ورهيب وأنا قدمت إنجازا رائعا، ويكررها وأنا فخور بذلك كلهم في الحظيرة .. وهذا إنجاز لو تعلمون عظيم.

(٤)

أصيب الشركاء بالذعر من الواقع السياسي الملتهب، وزاد تضييق النظام عليهم من خلال كتاب المقالات والجرائد المستقلة والتحريض المستمر على التفتيش في الدفاتر القديمة وتحول مفتشو الضرائب الى كلاب مسعورة تنبش في كل شيء ،وتبالغ في الأرقام رغم كون الشركة قد صفت حسابها الضريبي، صحيح أن هناك تلاعبا كبيرا في الحساب الضريبي من خلال رشوة الموظفين، ولكن الأرقام سليمة والورق مضبوط إلا لو سلسلة الموظفين أرادوا الانتحار والاعتراف بتلقيهم رشوة من الشركة وفي تلك الحالة سيجرون وراءهم سلسلة من السياسيين أيضا، أوهمتهم بموافقتها على كل مطالبهم وبدأت بخطة في نقل ملكية بعض المنشأة لصالح شركاء من كبار الرأسماليين صوريا في مقابل نسبة، ثم سحبت أموالها بطريقة ذكية وأخرجها من البلد وضخها في دولة الإمارات وأمريكا، ومن خلال رحلات مكوكية ودراسة السوق العربي حددت عملها القادم من خلال الدخول في المقاولات، وبناء قرر سياحية وشراء فنادق وأراضٍ من خلال وكلاء، لها كان المقر الرئيس في أبو ظبي لكن كانت تتجول في كل البلاد العربية، وعقدت صفقات في السعودية والبحرين ومصر من خلال إنشاء مستعمرة ومنتجع سياحي، وقد قطعت شوطاً طويلاً في المشروع، وفي نفس الوقت دفعت رشوة كبيرة لخروج "بيتر" من السجن وتهريبه الى مصر، وقد كان وقد تم شراء شقة له في مدينتي، وقد خصصت له خادمة مصرية متدربة تدريبا عاليا وتتكلم اللغة الإنجليزية، والفرنسية، في بداية خروجه كان مهزوماً وضائعاً، بسبب كونه في بيئة ومكان ليس مكانة حتى أنه طلب من "جيلدا" أن يعود مرة ثانية للسجن، على الأقل هناك ناس يعرفها ومشترك إنساني، وحلم، لديه حلم ويريد أن يحققه، ولكن في هذا المكان وحده بلا حلم، بلا رغبات كان فوق احتماله لذلك ظل في عزلة، لا يريد أن يكلم أحدا، أو يخرج من الشقة، ثم بدأ يسرف في شرب الخمر، ويذهب للنوادي الليلة ويظل هناك حتى يغيب عن الوعي، فيقوم السائق بحمله وتوصيلة للشقة، ويتحرش بالخادمة ولأنها كانت

مرتبطة وتحب شريكها، رفضت إقامة علاقة معه ولكنه عرضت عليه، أن تقدم له معلومات وأشخاصا لكي يقدموا له ما شاء من الفتيات، بالفعل أحضرت له أرقام تليفونات قوادين محترفين، وجلب فتاة ومارس معها الجنس، ولكنه لم يشعر بالسعادة. ثم أخذ يتسكع في وسط القاهرة، كان الأمن يتابع نشاطه بعين مفتوحة حيث كان ملفه السياسي على طاولة المخابرات، وهو كان يعلم ذلك جيدا لذلك لم يعد يغادر الشقة، يدخل على ألنت يتابع أخبار بلاده ومدى تغلغل الرأسمالية المتوحشة حتى العظام، في كل مناحي الحياة وسقوط ملايين الضحايا في الفقر والمرض. مما زاد من اكتئابه ،سافر لسيناء عدة مرات واستكشف المكان هناك وقد شعر بحب لهذا المكان حيث المناخ والطبيعة والبحر فأتصل بـ "جيلدا" لكي ينتقل للعيش هناك ولكنها رفضت ،فأصيب بالإحباط والاختناق، وشعر أن حياته الباقية سيظل فيها تحت وصايتها أخذ يقضي معظم الوقت أمام الإنترنت في تتبع الحركات الاحتجاجية المسلحة في العالم، وقف طويلاً أمام الحركات الإسلامية في مصر وأفغانستان وقرأ كل المراجع المهمة ومذكرات الزعماء ورؤيتهم تجاه الواقع والرأسمالية، والسلطة والفقر والتنمية الخ، كان مبهورا بسيرهم وتحديهم للغطرسة والصلف الغربي، كان مفتون بمشهد الشيخ أسامة وأيمن الظواهري وهم يسيرون في الجبال الشاهقة.

كانت رنا تشبه قليلاً "جيلدا"، وهذا لا يعني أن به رغبة داخلية لممارسة زنا المحارم، ولكنها الصدفة، رغم أنها ذات وجه ذكوري، ولكنها جذابة، وداخلها شحنة شهوة قوية، تجعله يدور حولها ويزداد نهما في شرب الخمر، وفي يوم اقتحم عليها المطبخ وحاول أن يمارس معها الجنس عنوة ولكنها رفضت وسحبت سكينا تريد حماية نفسها، فانتزعه منها وقيدها وحملها وهي تصرخ حتى أنه لم يعرف ماذا يفعل وكيف يسكتها فخرج بها الى البلكونة ورماها من الدور الرابع، عندما هبطت واستقر جسدها ممزقا على الأرض، انتبه أن هناك خطأ، اتصل بجيلدا، طلبت منه أن يخرج من الشقة، ويغلقها بالمفتاح ويذهب الى فيلا صديقها رجل

الأعمال "منير سعيد" وهو لديه علاقات جيدة بالسلطة، والداخلية عندما وصل للفيلا وجد رجل الأعمال والسائق وتحدث معه وطلب منه أن يركب السيارة مع السائق ليذهب للساحل الشمالي في فيلته هناك ويظل داخلها لا يخرج حتى يستطيع أن ينهي الموضوع مع القضاء والداخلية وبعد ذلك نرى ماذا نفعل، ركب في السيارة وسار السائق متجها للساحل الشمالي، في الطريق لم يجدوا أي مشكلة فبمجرد أن يخرج السائق كارتا أمام اللجان، يسمح له فورا بالعبور دون تفتيش أو سؤال من أي نوع وعندما وصل وجد مفاجأة لم يكن يتوقعها، وجد أخته جيلدا في انتظاره أمام الفيلا، عندما رآها تبخرت الوحشة والغربة والسوداوية التي تخنق روحه حتى أنه في الطريق فكر في الانتحار، لم يكن خائفا، كان لا مبالياً وهذه اللامبالاة هي التي أنقذته، دخل معها الفيلا، وأغلقت الباب وعاد السائق من حيث أتي، طلبت منه في البداية أن يأخذ دشا باردا لكي يفيق وبعد ذلك نتكلم في ترتيب الأمور، دخل يستحم وهي أعدت الطعام وعندما خرج ألحت عليه أن يأكل ولكنه رفض رفضا تاما وقال: أريد أن أنام وسحبها ودخلا غرفة النوم وتمددا، ثم نام على فخذها، ويده تلتف حول وسطها ثم استغرق في النوم، ظلت "جيلدا" فترة طويلة ثم تعبت وكلما حركت ساقيها لتضع رأسه على المخدة يقوم مفزوعاً، وينظر مذهولا يميناً ويسارا، ولا يعود للنوم إلا بعد أن تضع يديها على ظهره وتمررها بهدوء حتى يستقر وينام، فظلت هكذا حتى استغرقت في النوم هي أيضاً ولم تصحُ إلا بعد الظهيرة. في هذه الفترة كانت الصحف المصرية تتابع الحدث يومياً وبالتفاصيل المملة ولقاءات وتضارب معلومات، وحكايات مدسوسة تنزع التعاطف مع الضحية، حيث تم نشر فيديو لها ترقص في وسط صحبة بما فيهم خطيبها وتم نشر صور يراها البعض فاضحة من على صفحاتها على الفيس بوك، ثم تحقيقات وراء تحقيقات والبحث مستمر ولا شيء غير ذلك وفي هذه الأثناء كانت جيلدا تتابع القضية، وتتفاوض مع سلسلة من الأوغاد حتى أنهت لقضية، وتم وضعها في الثلاجة، ومع مرور الزمن خرج "بيتر" للشارع والمقهى والبار وتجول في المكان وصادق كثير من

أهالي سيناء وفجأة اختفى بيتر من الفيلا وقد اكتشفت جيلدا ذلك بعد أن ظلت تتصل به على المحمول ولكن ما من مجيب، وصلت من الإمارات الى القاهرة وبطائرة الى الساحل الشمالي وحررت محضرا بالواقعة وأجرت اتصالات بصديقها رجل الأعمال منير سعيد وبكل من تعرف وقلبت الدنيا على رؤوس قيادات الأجهزة الأمنية، ورغم قوة البحث لم يجدوا أي أثر حتى أن الأجهزة الأمنية لم يكن أمامها حيلة سوى الكف عن البحث ولا يعلم أي مخلوق إلا دائرة صغيرة أن بيتر انضم فعلا لواحدة من الجماعات الصغيرة الراديكالية المسلحة، بعد أن أسلم ورفع راية الجهاد.

(٥)

لقاء مع فرانز كافكا

لم أفقد اتزاني أبداً في بار، رغم أن لدي رغبة في السكر لكي أخرج باطني العنيف وانتقم من أعدائي، ولكن هناك في هذا "العقل "حذاء لا يريد أن يتزحزح ويجعلني أتخفف من أعباء الحياة، كنت أريد أن أسكر وأحرر ذاتي من المخاوف، ويخرج قاعي الى الوجود الفعلي. أنا أتردد على البار مرتين أو أكثر في الشهر، أذهب لستيلا أو الحرية، أو الكاف دور، وهي أماكن يلتقي فيها الكتاب والفنانون وأولاد الأفاعي من الصحافيين، والحق أنهم أي الكتاب يكونون في البار ناسا غاية في اللطف، والتضامن والأريحية، نقضي أوقاتا طيبة بعيدا عن كل الضغائن والمكائد والشرور، إنه مكان رائع، كانت لدي رغبة في يوم من الأيام في العمل في بار، ولكن المجتمع قاسٍ بطبيعته، وينظر بعدوانية وتحقير لهذه المهن. أنا لا أذهب وحيدا للبار فلست صاحب بيت ولكن أمر سريعا وأمشي ولا أتعرف على أحد في المكان سوى الصحبة التي ترافقني، نضحك ونغنى ونثرثر عن الأدب والحياة وفي ساعة معينة أنتزع نفسي انتزاعاً وأحتضن الجميع في فرح طفولي وأخرج مندفعاً رائقاً قلقاً باحثا عن وسيلة مواصلات تقلني للمنفي.

في يوم كنت في انتظار صديقي المحاسب الفنان، وقد دعاني للقائه في ستيلا، وهي عادة لديه منذ أن تعارفنا، عندما يحصل على مال لا أعرف من أين ؟ يدعوني للشراب ولأني لا أملك ترف دعوته للشراب لأن في هذه الدعوة تخريب المرتب فانا أكتفي بشرب ثلاثة زجاجات بيرة فقط، هو لا يمانع لو شربت عشرة ولكن على رأي المثل " أضع في عيني حصوة ملح "

دخل صديقي برائحته النتنة وصياحه المفتعل وأحضانه الكاذبة ثم بدأ يصب لنفسه من زجاجة البيرة ويعب ويثرثر عن حقيبته المتروسة فلوسا والذي سيكافح باقي عمرة لكي يعثر عليها ويبني القصر الذي يريده بالتصميم الفخم الذي يريد، هههههه سرحت منه هو يتكلم وفجأة وجدت صوت تكسر زجاجة بيرة، قفزة فزعاً فوجدت صديقي يقف كصقر ويضرب الزجاجة الثانية، ويقول: الخدمة مش حلوة، أن محدش يعاملني كده، أن أسحق أي كلب يهين كرامتي، ثم أشار إليّ وقال: الراجل ده صديقي، ولما يشوفني بالمنظر ده يفتكر أنى عرة ومسواش " لم أجد شيئا يستحق هذه الثورة وهذا العنف، فالنادل شخص لطيف جدا لذلك انتابني قلق عنيف وتنبهت كل حواسي وتصورت أن هذا المحاسب الوسخ أمنا مزقوقا على لقتلي أو إصابتي بعاهة مستديمة، أخذت أنظر إليه هلعاً، وعندي توقع أن الزجاجة الثالثة ستكون فوق رأسي، توترت للغاية وأخذت أمسك بكم قميصه وأقول معلش، عشان خاطري أقعد، وهو ينطر يده، ويشاور ثم فجأة جلس على الكرسي وظل فترة ساهماً ثم هرش في رأسه وقال ٢ بيرة يا رومان، جاء رومان بفوطة ومسح الطرابيزة وأحضر البيرة ووضعها في صمت وترك المكان، أزاح زجاجة البيرة في اتجاهي قال بحدة : أشرب .، أخافتني حدته فصببت البيرة في الكوب وأخذت أشرب بهدوء ولكن كنت متعكر المزاج وخائفا، واستغربت من ردود فعل البشر، فهذا الشخص، يكون في لحظة في رقة العذراء، وفي لحظة أخرى يتحول لكائن كريه مقرف، هذا التقلب للنقائض قد يوحي بطبيعة فنية، ولكن برأيي ينم عن طبقات وعي مشوه، أخذت أفكر، كيف أتصرف، فخروجي غير آمن وجلوسي في المكان غير آمن، همست في أذنه وقلت له: أنا رايح الحمام. لحظة، ذهبت وتبولت بتدفق غريب، ثم عدت، كانت جلستنا بجوار الشباك وكنت كاشفاً الشارع، وأنا أجلس لمحت شخصاً أشبه بالكاتب التشيكي فرانز كافكا كان يحدق تجاهي، ثم تجاوزني ، قلت لصاحبي لو سمحت لحظة وجاي، وتركت المكان قبل أن يتشبث بي، خرجت أجري ملهوفا أتعثر بالناس وأعتذر ًحتى لمحته

يسير باتجاه البريد، هو ملامحه انطبعت في ذهني، عين عسلية واسعة تلمع ببريق متوحش، معبرا عن إرادة قوية، ووجه بيضاوي منحوت وأذن كبيرة تثير لدى صاحبها الخجل من هذه الزائدة عديمة الفائدة، وفم واسع وشعر أسود قاتم مصبوغ يواري المشيب الذي يثير داخله الحنق، وأنفه الكبير، تختلط ملامح كافكا بملامحي، حتى اصطدمت بالطوار وسقطت في الحديقة وتلوثت ملابسي، بالتراب ويدي بالطين، قمت غير عابئ، وأسرعت حتى لحقت به وهو يضع خطابا في صندوق البريد، انتظرت ملهوفا، أحاول ترتيب ما سأقول له حتى انتهى، وتجاسرت وقلت مستر كافكا، مستر كافكا، فتلفت ونظر إليّ وقال: نعم، قلت حضرتك الكاتب التشيكي فرانز كافكا، قال:

نعم أنا فرانز ماذا تريد مني؟ ابتهجت بشكل مذهل وقلت: بربك هل أنت مستر كافكا الذي كتب "الحشرة الهائلة" و"مستعمرة العقاب"، و"أمريكا" وغيرها من الكتب الفريدة في السرد، نعم وأخذ يكرر كلامي في ضجر، أخذت أرقص من الفرح والبهجة، وأقسم بربي هو فرانز لا أحد غيره، أعرف أن لا أحد سيصدقني ولكن ورب الكعبة والقرآن والتوراة والإنجيل، لقد رأيت الكاتب التشيكي فرانز كافكا رؤية العين ولم يكن حلما، ولم أكن سكيرا، كيف يمكن أن أسكر في حضور مجنون يستطيع في لحظة أن يقتلني، في هذه الحالة عقلي توقف بعد أن تأكدت من حضوره، له كاريزما ومهابة ولكن برقت في رأسي فكرة :لماذا لا أجري لقاءً معه، عرضت عليه الفكرة فقال، أسف لا وقت لدي، قلت ولكن هي مجرد ثرثرة ولن أخذ منك الكثير من الوقت، قال يا سيد أنا لا وقت لدي وكل ما أردت كتابته وكل شيء داخل تكويني بصقته في كتبي، قلت سيد كافكا هذا المقهى وأشرت في اتجاه عمارة ستراند يقدمون قهوة رائعة لماذا لا نسترح قليلاً وتشرب قهوة فرنساوي معتبرة وتذهب الى حال سبيلك، قال: عليك اللعنة لقد صدتني أيها اللعين؟ قالها وكأنه موظف في شركة بيع المصنوعات يتباسط مع موظف لديه، قلت ولكن من خلال كلامي معك سيد كافكا أنت تتكلم عربية فصيحة، لا ينقصك غير صه يا

عكرمة عليك اللعنة، قال: اللغة هي اللغة يجب أن تكون منتظمة وفاعلة وفي النهاية أداة توصيل.

دخلنا المقهى وطلبت قهوة له وشايا سكره خارج الكوب وجلست بجواره، اكتشفت أنه أنيق ووسيم وراقي في التعامل، سأل عن أمي قلت له، إنها ماتت ولم أبكي عليه بشكل جاد، أو حر بما يليق بسيدة محترمة، ولكن احتاج فرصة للبكاء، البكاء بعنف، قال: وكأنك تتكلم عن أمي ولكن هي مازالت حية ولكن لا أراها فأنا دائما في سفر، من ألمانيا الى بانكوك، الى القاهرة، ما قيمة الحياة، بدون التجول في الجغرافيا، قلت: عليك أن تحمد الرب أن أتاح لك الحرية في السفر، ولن تحس بذلك إلا لو سقطت في جب مثل الذي أنا فيه؟ ابتسم ثم نظر إليّ: ولكن ما دخل الرب بالموضوع مستر...

ضحكت وتذكرت أنني في حضرة كافكا.

أنا دفعت سنوات من عمري في عمل حقير وأزحت كل رغباتي من أجل هذه السنوات القليلة من عمري، ولكن كيف تكون كاتبا لديك تصورات يمينية؟ قلت: وماذا فعل اليساريون في مصر الذين يقضون معظم حياتهم في البار؟ لا شيء هباءً منثورا.

قال: أن لا شأن لي بكل هؤلاء، أن أقولك باعتباري أعرفك أن تتخلص من كل ما يعوق حريتك ككاتب، الأسرة، العائلة، القبيلة، البلد، الدين، لا قبلة إلا الكتابة، ولكنني حر يا سيد كافكا، أنا حر.

هذا وهم، هراء، أنت مجرد إنسان برجوازي تافه، لا تستطيع أن تغادر منزلك، لا تستطيع أن تبصق على المجتمع وتتحرر من كل أعباء وتعيش الحياة لكي تكتب بقوة وعنفوان، هل تتصور يا سيد أن مجرد كونك دودة كتب هذا سيفتح لك بوابة الإبداع، أنت واهم، أرمِ نفسك في الجحيم، وأنكر الكل ودافع عن كرامتك الإنسانية وغادر، كل هذا هباء ولن يبقي

شيء حتى السيرة التي تتصور أن لها كرامة ولا الاسم، لأنه سيتلاشي ويذوب هباء منثورا يا عزيزي.

صمتّ ولم أستطيع أن أرد ،إنه كافكا لا تستطيع أن تدفع بحججك القوية في مواجهته، لا يعرف معني تحديك لمجتمع متخلف ومقموع، المعني هو أن تستهلك طاقتك ويتم تفريغك من الداخل، لذلك كان على فقط أن أنصاع وأمرر كلامه لكي يوافق على إجراء الحوار ؛لذلك قلت واللهِ معك حق فحياتي راكدة وميتة ولكن أؤكد لك أنني سأسمع نصيحتك ولكن هل يمكن أن تجيب على بعض التساؤلات؟

نظر لي نظرة غامضة وقال لي: لماذا لا تأتي معي لأعرفك بصديقة لي، هي فنانة تشكيلة رائعة، قلت: أنا متابع جيد لحركة الفن التشكيلي من هي؟ قال: لا أحد يعرفها من الوسط الثقافي بالمرة، ولم يكتب عنها في الصحف ولم تنل جائزة، تقصد فنانة تلقائية بسيطة، قال لقد درست في الفن في باريس، باريس يا فلاح، قام ونادي للنادل ودفع الحساب، وخرج من المقهى، ولكن يا سيد كافكا بيننا حوار، قال: لتكن الإسكندرية مكانا للحوار يا صديقي، قلت: هذه فرصة بالنسبة لي رائعة أن أتعرف مدينة الإسكندرية المارية وترابها الزعفران، إسكندرية داريل وكفافي وإدوار الخراط، وشادي عبد السلام، وعبد الهادي الجزار، إسكندرية كوزموبوليتانية/ المدينة العريقة، ولكن لدي التزامات في البلدة، ولا يمكن أن أتغيب بدون أن أرتب للوضع، قال: أنا أرى الخوف في عينيك، أنت خائف لا أكثر، قولها لكي تشفي، ضربتني الكلمة في صدري فرجتني، كنت حانقا من سلوكه الفظ تجاهي وتعاليه، قلت: أن لست خائفا مستر كافكا ولدي جسارة تجعلني أذهب للجحيم بدونك أو وحدي، ولكن لا أحب الابتزاز والتعامل الماكر، لماذا لا تعتبر أن التزامي تجاه أسرتي نوعا من النزاهة، صرخت أنا لدي التزام تجاه أسرتي، أرجوك أن تتفهم، اقترب مني وقال: عليك أن تودع الفن وتعود للمقبرة، قالها وتركني وسار في شاعر "صبري أبو علم"، حلقي جف فتناولت كوب ماء

؛وشربت وسرت وراءه وتذكرت أنني نسيت شنطة بلاستك محشور بها كثير من الكتب حصلت عليها من المركز الإعلامي بالهيئة المصرية للكتاب، فعدت مرة ثانية، التقطت الكتب وجريت حتى لحقت به؛ فحاذيته ، ثم استدار وأشار لسيارة تاكسي، كانت الساعة تقترب من العاشرة والنصف، ركبنا وانطلقت السيارة بنا حتى وصلنا لرمسيس، لا يعرف السيد كافكا أنني لم أركب القطار من قبل وأنني في غاية التوتر ولكن كنت أستميت في إخفاء اضطرابي، دخلنا محطة القطار فكان الزحام والفوضى والضجيج وأصوات الميكرفون التي تعلن مواعيد القطارات وقد اصطدمت أكثر من مرة وأنا أتلفت باحثاً عنه حتى وجدته، يقف في طابور ليقطع تذكرة ثم عاد وسرنا حتى وصلنا للمحطة المخصصة لقطارات الإسكندرية، كان الجو باردا، لدرجة أنني لم أعد قادرا على الكلام، وجسدي يرتعش في وسط هذا الفضاء العاري، لم يكن على المحطة سوى ثلاثة أو أربعة من العمال، وفي يد أحدهم شوال، والثاني مقطف، أخذت، أسير حتى أصل لنهاية الطريق، القطار الواقف على الرصيف المقابل لنا كان على أهبة الانطلاق، وكان مزدحماً سألت عن وجهته عرفت أنه ذاهب للصعيد، كان الزجاج مغلقا ومضاءً، استنتجت أنه مكيف، فتمنيت أن يكون القطار بمثل هذا القطار مكيف، اقتربت منه وقلت له: فاضل كم دقيقة لمرور القطار قال نصف ساعة، وفعلا بعد نصف ساعة وجدت قطارا قديما درجة مائة يقف قبالتنا، قال: أركب، ذعرت كيف أركب هذا القطار والأبواب مفتوحة والشبابيك، وملابسي خفيفة، قلت:

سأتجمد ولكن قفزت وانطلق بنا، كان الهواء البارد يضرب في العظام ؛فأنكمش ويهتز فأتمايل وأنظر باحثا عن أي ساتر يقيني هذه البرودة القاتلة، وقلت أن هذا اليوم كارثي بالنسبة لي بسبب كوني مريضا بطنين قوي في أذني يزداد بصورة كارثية عندما أتعرض لمناخ بارد. على في الفترة القادمة أن أستعد لهذه الموجات العاتية من الوشيش والطرق، والضرب، والطن وكل أنواع الأصوات الشريرة، أما الأكثر إزعاجا بالنسبة لي هو عندما أنام، أهوال يوم القيامة، من هذيان

وكوابيس سوداء، أحلام مزعجة، كيف احتمل كل ذلك وهذه البرودة تنفذ في شراييني. حركة احتكاك عجلات القطار بالقضبان تصدر صوت مزعجاً يوترني ويصيبني بالخوف، لماذا وافقت على الركوب مع هذا المتعنت؟ والى متى سأستمر أعيش في المنطقة الرمادية، لا أنا أملك إرادتي كاملة ولا أستسلم كفرد تافه إمعة يقبل الضيم لكي يطفو على السطح، ثم ما أدراني أنه يخفي تحت هذا الوجه البريء مجرما عتيدا؟!، سيقتلني بدم بارد في أي لحظة، اقتربت منه وأخذت أتأمل في ملامح وجهه، أحاول استنطاقه، ما يواري تحت هذا الجلد الأملس، الخالي من التعبير، قال لي: اجلس تحركت في قوس واسع ثم جلست بجواره والتصقت به فأحسست ببعض الدفء، فقد كان يرتدي بالطو رماديا ثقيلا: ولكنك يا مستر كافكا تعيش عكس ما تكتب، فحس المغامرة داخلك كبير بشكل لا يصدق، وكتاباتك تدور في إطار ذهني قال: فكرة كتابة الذات فكرة رومانسية سخيفة، عملية الكتابة معقدة لأصحاب الأرواح الكبيرة، قلت معك حق، ولكن ما هي ظروف كتابة رواية "الحشرة الهائلة" وهل صحيح أنك كتبت بتأثير "مستر سامسا"، خاصة أنك استعملت نفس الأسماء نظر إليّ غاضباً وقال: كيف تنصت لهراء عجوز خرف، مأفون، هذا الشخص الأحمق، كان يتطفل على في المنزل ويظل يثرثر في حكايات لا أخر لها، وفي يوم زارني وعندما دخل وجد الرواية مكتوبة بجوار الآلة الكاتبة، ذهبت لأحضر له قهوة وعندما عدت، وجدته مستغرقاً في قراءة الرواية، جريت وخطفت الرواية فانزعج وأخذ يتوسل لي كي يكمل الرواية، فتركته صاغرا وأنا أغلي من الغضب بعد ما انتهى من قراءة الرواية ظل يمدح فيّ :أنت علم، أنت عظيم، هذه رواية تعتبر من درر السرد في العالم ثم قال ولكن لي ملاحظة بسيطة هذه الأسماء الذي اخترتها لا تعجبني فهي في النهاية رواية إنسانية ولكن من يقرأ هذه الرواية سيحصرها في نطاق ديني كهنوتي توراتي ، استغربت من هذه الملاحظة الذكية وقلت: وماذا يمكن أن تكون الأسماء، فقال، أسماء أسرتنا يا سيد كافكا، أنا أمنحك تفويضا باستخدام أسماء أسرتي، وفعلا لدي في المنزل ورقة بخط يده بموافقته على

استخدام أسماء أسرته في الرواية ثم صمت وأنا أيضاً، ظللت جالساً في وضع رحمي ناظرا من الشباك لمساحة متموجة سوداء تغطي الكون، والقطار يقف على المحطات فلا ينزل أو يصعد أحد، حتى توقف في محطة اعرفها فقد كانت محطة البلدة التي اسكنها، قلت بابتهاج هذه بلدتنا، رد بحنق، تقصد مقبرتك، قلت ولكن هل كنت تمر على بلدتنا في رحلتك الى الإسكندرية، قال: أبدا هذه المرة الأولى لي، ركبتها اضطرارا، فعند نهاية الخط سننزل ونركب قطارا آخر، قلت لا مشكلة. استمر القطار في السير حتى نهاية الخط، نزلنا وانتقلنا لرصيف آخر وبعد فترة توقف قطار وركبنا وسرنا، القطار أكثر حداثة، ويتمتع بصفات لا توجد في القطار الأخر، فقد كان الزجاج مغلقا بإحكام، وبه ستائر جيدة، وينطلق بسرعة فائقة، ويهتز اهتزازات رحمية جعلت جسدي يسكن والدفء جعل النوم يخطفني، أغفو فيسقط رأسي على صدري فأنتبه،أو أميل يسارا أو يمينا فأقوم، النوم حلو وفي النهاية استسلمت ووضعت رأسي على الكرسي الأمامي واستغرقت في النوم، حتى وجدت كافكا، يخرج من جيب الجاكت خيطا رفيعا مما يستخدم في الصيد، ويلفه على قبضة يديه ويقوم، حاولت أن أبتعد، أن أترك الكرسي وأجري، ولكن رجلي مغلولة، حاولت أن أصرخ مستنجدا بأي من المحيطين ولكن كانوا هناك لا مباليون، لف الخيط حول عنقي وأخذ يشد والخيط يغوص في لحمي رقبتي حتى وجدت رقبتي تسقط أمامي فصرخت، فانتبهت فوجدته ينظر لي مستفهماً ثم قال: ما بك: قلت لا شيء تنتابني كوابيس لا أعرف لها سببا، قال:

اذهب لطبيب مخ وأعصاب، لعلك تعاني من مشاكل في الدورة الدموية، قلت: عندما أعود من إسكندرية سأذهب لطبيب، قال: أن الكاتب يكتب بجسمه، قلت هذه الكلمة سمعتها من الكاتب المصري إبراهيم أصلان عندما أجريت حوارا معه. أخذ يهز رأسه وقال: على النقاد أن ينتبهوا لهذه الجملة ويرصدوا التحولات في عملية السرد صعودا أو هبوطاً مع الحالة الصحية للمبدع، بالتأكيد سيكون هناك اكتشافات مذهلة وكشوف فارقة، ولكن أين هؤلاء النقاد ؟ قلت

إذا كنت أنت تشكو من غيبة الناقد المبدع، فما بالنا نحن ولدينا بعض السماسرة الحثالة، ضحك وقال: أنت حانق وتنتقم بلسانك شبيه المبرد، ثم أخرج مفكرة وبدأت في الكتابة بخط جد رائع لدرجة أنني قلت: إن للخط قوة ميتافيزيقية ومن حق السحرة أن يستخدمون الكتابة في السحر وتغيير المصير أو كوسيلة للإيذاء، أو جلب منافع، أي خط في أي لغة يكمن داخلها طاقة جبارة، ولكن من يعرف أسراره، ويستغل إمكانياته.

الساعة تقترب من الثالثة صباحا وقد أُنهكت ولم أعد قادرا على المقاومة فأغمضت عيني لكي يستريح ذهني، وعيني، والقطار يخترق الأفق، حتى وجدت يدا تهزني فقمت وجدت نور الصباح يفترش الأفق، قال وصلنا، خرجت كانت أشعة الشمس قوية وجموع الناس تتدفق في المكان، كنت تائهاً، مرتبكاً، عيني عليه ؛أتتبعه كطفل مع أمه في مولد، حتى توقف تاكسي بمحاذاته، ففتح الباب وأنا جريت وفتحت الباب فزعق فيّ السائق، هُو هُو يا بلدينا، مش شايف الخواجة راكب، قال: معي! ركبت في الكرسي الخلفي والسائق مرق بسرعة بالسيارة في شوارع المدينة، مررنا على مطعم أسماك فشعرت بالجوع، وفكرت أن أنبهه لرغبتي في تناول الطعام ولكن كنت خائفاً أن أتورط في دفع الحساب، خاصة لو وقع اختياره على مطعم يقدم أطعمه غالية الثمن، كان ما معي من مال يكفي وجبة فول وطعمية، وبيض لا أكثر، لذلك أجلت المبادرة بدعوته لي، شغلت نفسي بالنظر لتصميم العمارة، والإحساس بالمناخ حتى وصلنا لحي هادي، توقف التاكسي ونزلنا أمام عمارة قديمة، صعد وأنا وراءه حتى توقف أمام باب شقة مكتوب على الباب " منير حبيب واصف" و"أجابي كلياكينو"، قلت أعرف بس إحنا هنا ليه؟ قال: لحظة وأقول لك، أخرج آلة صغيرة وعالج قفل الباب ودفعه؛ فانفتح باب الشقة، تسللت ورائه كانت الشقة مظلمة، بعد لحظات أضاء النور فظهرت الشقة، عارية تماما من الأساس، يغطيها الغبار والعنكبوت والطلاء تقشر، والبلاط متسخ، تركته ودخلت الحمام تبرزت وخرجت، كان يقف وجها تجاه الشارع ينظر من الشباك ساهما، ثم التفت إليّ وقال:

هذه الشقة كانت يسكنها فنانة ،ظلت طوال حياتها مسكونة بالفن، هي فنانة يونانية جاءت في مصر أوائل الأربعينات، كانت منذ طفولتها مهووسة بالفن، تظل ترسم على الحائط، على الورق، على الخشب، وعندما وجدها الأب مغرما بالفن، ذهب بها للمرسم للفنان سيف وانلي، وكان عمرها في ذلك الوقت لا يتجاوز الثانية عشر، ذهب والدها لمرسم الفنان السكندري سيف وانلي لتعليمها الرسم، وعندما رأى الفنان لوحتها "التلميذتان" أعجبته وشعر أنه أمام موهبة فطرية، وقد وافق على تبنيها فنيا، وهي كانت مبهورة بلوحاته وعندما كان يسافر سيف للخارج كان يحمل معه مستنسخات للوحات فنية ومجلات وكتب فكانت تستعير هذه الكتب خاصة أنه كانت تجيد الفرنسية والإنجليزية بطلاقة، وبعد مرور عام على وجودها في المرسم بدأت لوحاتها تبتعد كثيرا عن رؤية سيف، حيث كانت لوحاتها يلفها الغموض والشخوص تخرج من رحم الألوان مزيجا مختلطا ما بين البراءة والوحشية، كانت تميل للون الناري والأسود وتخلطهم بشكل مدهش، حاول سيف في بداية الأمر أن يكبح جموحها، خاصة في النسب فهي لم تكن تبالي حتى من يري لوحاتها يتصور أنها فنانة ريفية فطرية، ولكنها كانت عنيدة، ذلك عندما لم يجد فائدة أهملها وهي شعرت بهذا الإهمال، فتحررت وقطعت شوطاً بعيدا في تكوين لوحة فنيه تخصها، وفي لحظة قررت الانقطاع عن الذهاب للمرسم، وأخذت ترسم لوحات على شاطئ ستانلي، رسمت فتاة وحيدة تنظر الى البعيد، بوجه أسود، وفستان أزرق، وأسرة إسكندرية، في تلك الفترة بدت تختلط بالمصريين بعد أن كانت حياتها محصورة داخل إطار الجالية اليونانية، وبدأت تتابع التطورات السياسية، وكان انحيازها كبيرا للحركة الوطنية الهادرة في ذلك الوقت، ورسمت مئات من الاسكيتشات لمصريين فلاحين، وموظفين، وماسحي أحذية، وفنانين، وبائعي خضار وبقالين الخ، في ذلك الوقت كانت تراسل المدرسة الأهلية في باريس لتعليم الفن، وفعلا جاءها خطاب بموافقتها على الانضمام للمدرسة، لم يكن الأب في ذلك الوقت يعرف شيئا عن الموضوع، وعندما علم قال: لم لا. واستطاع تدبير

المبلغ المطلوب وسافرت لباريس في ١٧ /١/ ١٩٣٥م عندما وصلت باريس ذهبت للسكن في فندق لا لويزيان بشارع السين بحي سان جيرمان دو بريه، ظلت في باريس عاما لم تستطع أن تجد منفذا بلوحاتها في المجتمع الباريسي خاصة في ظل نجوم مثل" بيكاسو" و"مودلياني" ومونيه وغيرهم وتأثرت بالحركة التأثيرية المزدهرة على يد مونيه ورسمت لوحات "فتاة تدخن في المقهى"، و"فتاة تنتظر حبيبها"، و"نادل يصب القهوة في الفنجان"، و"سيدة باريسية فاتنة"، وعجوز يركب دراجة، عندما عادت أقامت معرضا لهذه المرحلة وتم تدشينها كفنانة موهوبة لها أسلوبها الخاص، وتم تعينها في مدرسة الفنون، في تلك الأثناء حدث حريق كبير في العمارة الذي يسكنها والدها وخرج بحروق شديدة مات على إثرها ونجت من الحريق والدتها والصغير وليم، فقررت والدتها تصفية أعمالهم في القاهرة والعودة لليونان في ١٩٥١، ولكن أجابي رفضت تماما ترك مصر وأخذت تسهم بقدراتها المتواضعة حتى قامت الثورة وكمثل كل الحالمين كانت تري في الثورة فجرا جديدا لحياة سياسية حرة وعدالة اجتماعية، وتقدم علمي ولكن لم يحدث شيء من ذلك وكانت قد وصلت للثلاثين ولم تتزوج بعد، ولكن تعرفها على منير حبيب واصف المحاسب ببنك إسكندرية التجاري والذي انفصل عن زوجته بسبب فشلهم في إنجاب طفل واستحالة العشرة خاصة أن الزوجة كانت ترى في عدم إنجابها موتا محققا، وتم الزفاف بعد ذلك، منير كان منطويا على ذاته وفكرة العقم لديه أصابته في مقتل، فكان يعيش في عزلة شديدة، فقط يذهب للمقهى كل يوم أحد ويظل ساعة ثم يعود، عاشا في هدوء، وتآلف روحي، "إجابي" لم تكن جميلة، فقد كانت قصيرة القامة، عيناها بها جحوظ غير محبب، لذلك كانت تحتفل بالجمال، الرجال الوسيمون، النساء الفاتنات، رسمت الحصاد، في حمام النساء، غانية عارية في بستان، سيدة ثرية تنظر من الشباك، ظلت ترسم دون أن تقيم معارض أو تشارك في الوسط الفني، كان منير يشتري لها لوحات ومنحوتات من كبار الفنانين ويضعها في هذه الشقة حتى تحولت لمتحف، ثم أصيب منير بجلطة في المخ ومات على إثرها، وظلت

"إجابي" وحيدة، توزعت حياتها بين الشقة وأعمالها الفنية، وشراء المتطلبات الأساسية، حتى وافتها المنية في حضور الشغالة التي كانت تساعدها في المنزل عندما علم الجيران برحيلها تم نهب محتويات الشقة تماما ولم يكتفوا بذلك بل بيعت اللوحات لفنان شاب سكندري استطاع أن يحذف توقيعها ويثبت توقيعه عليها ولم يعد لها ذكر داخل الحركة التشكيلية.

ثم نظر إليّ وقال: تفهم إيه من هذه القصة قلت لا يوجد عدالة، قال: نعم لا يوجد عدالة لذلك هون عليك واكتب بأريحية ولا تنتظر لا من الحركة الثقافية ولا من المجتمع ولا من الإعلام، اكتب لنفسك فقط.

خرجنا من الشقة الى مطعم سمك؛ أكلنا وظللنا نتسكع في المدينة الى قرب المغرب فعدنا في القطار وبمجرد أن جلس على الكرسي غط في نوم عميق واعتبرتها فرصة جيدة لكي أنام ثم تذكرت الحوار، وماذا بحق الشيطان، أحاول تجميع أي سؤال يمسك في العضم العاري لنصوص غير المتداول ولكن لا شيء ذهني خارج العمل، أحاول استدعاء سرد كافكا طبيب ريفي ، الدودة الهائلة، الانمساخ، القصر، المحاكمة، التحول، أمريكا، في مستعمرة العقاب الخ تبخر كل شيء، قلت سأغلق عيني وأنساه، وضعت يدي على عيني فأظلمت الدنيا ولم يبقَ إلا صوت القطار والاهتزازات الخفيفة وكأنها هدهدة ،حتى استغرقت في النوم فوجدتني في بيت فلاحي وأمامه مساحة واسعة أمام البيت وهناك كانت شجرة توت كبيرة وارفة، ظلها رطب وجميل، كنت وحدي في المكان حتى خرجت منه فتاة جميلة ترتدي ملابس على أحدث أنواع الموضة ووجها فيه نبل وكبرياء استغربت جدا فقد كانت "سهي"، فتاة أعرفها ارتبطت معها في عمل مؤقت في بداية حياتي وكانت دائما توصل لي رسالة أنها مهتمة بي ورغم ذلك لم اكن أوليها اهتماما داخل ذاتي كنت أستبعدها بقوة، لم تكن تناسبني ولا أنا أناسبها، حياتي وحياتها مختلفة تماما، ثم انقطعت عني ولم أعد أراها وتزوجت زيجة جيدة، وعشت حياتي وهي عاشت حياتها، وقد رأيتها بعد ذلك مرات محدودة كلما رأيتها أجدها مزدهرة وتتألق،

جسمها تفتح، ووجهها نّور ببهاء وكبرياء، اندهشت وهي مقبلة على مبتسمه ثم سلمت على وقالت تفضل ووضعت يديها على كتفي في حنان، أزيك.. عامل إيه كويس، طمني عليك، دخلت البيت كان مبنيا على الطراز القديم، مكونا من دورين من الطوب اللبن ومعقودا بالخشب، وباحة البيت واسعة غير مسقوفة، والبيت مقسوم لصفين نصف قوس ويوجد طيور تتهادي والبعض منها يشرب من خزان مخصص لهم، دخلت وجلست على السفرة، فوجد أصنافا متعددة وشهية، طلبت منى الجلوس وأخذت تطبطب على وتقول "كّل والله لتأكل"، عندما مددت يدي للأكل تركتني ورأيتها تستقبل وفدا رجال ونساء أجانب وعرفت ذلك من ملابسهم، ووجوههم، أخذت أأكل ،كان الطعام وكأنهم محمض، أأكل ببطء، ولدي رغبة في التقيؤ ،وعيني تتبعها حتى لم أعد أراها، فجأة وجدت الشمس تغيب عن المكان والمكان يظلم رويدا رويدا ،حتى أظلم تماما، انتبهت، نظرت بجواري وجدت "كافكا"، يشخر بقوة، وأنا انتابني اكتئاب شديد، واستغربت لاكتئابي ما الداعي؟ ولماذا أسودت الحياة في عيني بهذا الشكل؟ وما أهميتها في حياتي لكي أكون بهذا الغم والتعاسة؟ هي في النهاية فتاة، امرأة، أم، عابرة، متى أوليت للنساء أهمية؟ تمر وتمر وتمر، ولا شيء في النهاية، اللعنة، كيف أدير حوارا مع روائي من أعمدة الرواية الكبار الذي أثروا على البشرية بهذه الروح السوداوية العميقة، وكأني ناقص هذه ، كي تبث داخلي طاقة سلبية، أنا نفسي طاقة سلبية، روح من الفحم المتنقل، أشع بالتعاسة والقرف والكراهية، والعقم والسقم، كيف يحتملني العالم، يجب أن ينتبه لذلك ويتخلص مني كنفاية، كمادة مسرطنة، كوباء .

أخذ يهز فيّ فنظرت إليه في يأس وقال: ما بك قلت لا شيء قال: لماذا تكلم نفسك أيها الأحمق، قلت: لأنني أحمق يا سيد كافكا، لماذا تهتمي بين في النهاية هل تريد أن تجري الحوار أم لا لم أعد أطيق هذا التعالي. نظر إليّ ثم قال: عليك أن تفكر في محاور الحوار حتى عندما تطرح أسئلتك ،قلت دعني أسال من الذاكرة.

قال: اتفضل

أخذت أبحث عن سؤال لم أجد، فارغا، مشوشا، لا أدري ماذا أفعل، قلت: رجاء دعني أركز قليلاً وأستدعي عوالمك كي أبلور ما أريد قال: بأريحية: خذ راحتك.

تركت مكاني وبحثت عن كرسي منعزل في القطار حتى وجدته، جلست وانكفئت ،ووضعت يدي على عيني لكي تستريح، ثم أخذت أدعك فيها، ثم بدأت أفكر في عوالم كافكا المدهشة وما الذي يجعل نثرا سرديا يصمد أمام الزمان، يثير اهتمام العالم كله، أخذت استعيد سروده واحدة وراء الأخرى حتى وجدت صوت القطار يرتفع بشكل مزعج، كان يقرقر ويتمايل، انزعجت وقمت انظري حولي وجدتنا نسير بين صحراء جدباء موحشة ورياح قوية تحمل الرمال الناعمة وتضرب في القطار والشبابيك حتى لم أعد أرى أحدا من الركاب، أخذت أجري وأقفز بين العربات حتى أصل للسائق الأخرق الذي يسير بنا في طرق مهجورة، أجري وأنا خائف من سقوطي ولكن لم يكن هناك حل أخر، فأنا في كل الأحوال ميت سواء جلست في مكاني أو جريت لأغير أي شيء في هذا القطار اللعين، العربات تكاد تنفصل عن بعضها متهالكة ورغم ذلك القطار يسير بسرعة جنونية، فكرت هل السائق لا يخاف على نفسه؟ هل هو انتحاري قرر أن يقضي علينا لسبب مجهول، لسبب يعرفه هو فقط، وصلت لباب عربة السائق أدرت مقود الباب وجدته يتحدث مع الكمساري وهناك عدة ركاب يحيطونه وينصتون لحديثه بلا مبالاة ،لما يجري للقطار، قلت: وقف الزفت ده؟ أخذت اصرخ، وقف الكمساري وكان يتمتع بعضلات قوية وجسم متين ونظر إليّ وقال: هو هو إنت أيه اللي دخلك المكان ده، المكان ده غير مسموح لك نهائي أن تدخله، أنا هعمل لك محضر وأسلمك في أول نقطة، كنت مذهولا وخائفا وتصوري الشخصي أن القطار سيصطدم بأي شيء أو سينقلب وكل الركاب سيذهبون للجحيم الأبدي، أخذت أزيح بكل قوة في الكسماري: وقف الزفت ده، طيب نزلنا، وقف القطار، لم يكن أحد مباليا، ثم قام السائق وقال: الواد ده مقرف، ورخم وسحب خيط

ينتهي ببكرة من سقف القطار زحف القطار لمدة طويلة ثم توقف، نزلت جري من على السلالم الى الخلاء، كان الجو مخيفا، رمال صفراء وريح قوية، ورؤية تكاد تكون منعدمة وسماء رمادية قاتمة، تشع بكائنات مخيفة، أخذت أفكر بسرعة هل أعود بالقطار وعندما أخذت قرار صعود القطار مرة ثانية، وجدت القطار بسرعة جريت وراءه ولدي أمل باللحاق به ولكنني فشلت، جلست على الرمل وأخذت أفكر فيما أفعل؟

(٦)

اعتقدت في بداية الأمر أن سردي المُلغم بالمحظورات الثلاثة، هو العقبة الكؤود في عدم نشر نصوصي في المجلات الثقافية، ورفض نشر المجموعة القصصية الأولي "جسد في ظل " في مؤسسات الدولة كما أن خيار الدفع مقابل النشر، يعرضك لشبهة عدم الموهبة، مما أدى مع أسباب أخري لسقوطي في منطقة سوداوية. وضع يصعب وصفه، مزيج ما بين الخواء والكراهية. وقت ضائع لا أستطيع استغلاله، لدي اختيارات لا أُحسن توظيفها، لدي إمكانات لا قدرة لي على تفعيلها. مناخ مسموم، يبدد الطاقة، لم أستطع التعامل معه، أو اختراقه، صحيح لا أحد يكتب في بداية حياته عملا استثنائيا، ولكن في النهاية ما أكتبه ليس رديئاً لدرجة بناء سور، صحيح أن لا أحد أخذ قرارا بمنع هذا الريفي من النشر لأسباب استراتيجية، أو لأسباب خاصة بالأمن القومي، ولكن يبدو لي أن هناك نظاما ما، آلي، مثله مثل ماكينة فرز البطاطس المعطوبة، عن السليمة، وأنا لسوء طالعي كنت مجرد بطاطس متعفنة، أو بيضه فاسدة ذات رائحه كريهة، لا أحد يريد أن يستقبلك، أو يطبطب عليك ويقول لك" لا تقلق"، المشهد كان طبيعياً جدا لدرجة أنني صدقت أن المشهد مثالي، وأن المشكلة لدي أنا يائساً مرة، ومره ألومها على التحرر المبالغ فيه، وكلما نظرت للقصة مقررا تعديلها، لا تطاوعني نفسي ، وأظل حائراً وظالماً نفسي. كنت أتآكل من الداخل، أنهش نفسي، لست قادرا على التسليم بفشلي وعدم إتقاني كتابة النص السردي، ولا خيال لدى لتغيير مفهومي للكتابة، فالجبرية لا تضيء ذهنا ولا مخيلة، ولا أيضاً الاستسلام للحالة الفطرية.

وصلت لحالة مأساوية حتى جمعني لقاء مع شاعر بعد ذلك سيكون صديقا حميما وأخا، في مقهى" زهرة البستان" كنت أراه يدخن النرجيلة بتلذذ، ويجلس مع شلة من الأدباء، لم أكن مختلطا بأحد منهم، المقهى خالٍ من الكتاب الذي أعرفهم، لذلك سلمت عليه

في ود وقلت ممكن أقعد قال: اتفضل. جلست، وعرفته بنفسي، وخلال مدة وجيزة أصبح صديقي فهو ودود منفتح، نبيه، على دراية واسعة بالمشهد والثقافة الرفيعة، حكاء بارع مدهش لدرجة أنني قلت له: لماذا تهدر طاقتك في الحكي شفاهيا؟ وهذه العوالم فريدة وتستطيع أن تنجز أعمالا في غاية الأهمية، لم يعر الأمر أهمية وقال: أنا أكره الكتابة ولا أكتب إلا تحت ضغوط عنيفة وتخرج مني الكتابة كطلقة الرصاص، ثم أن لا شيء يضيع، كل شيء جوهري يستحق التخلق من العدم، يأتي دوره لا تقلق، أحسست خلال المقابلة، أن شكايتي ليست من فراغ، وأن هناك بطاطس وبيضا فاسدا يقصي، ويتدحرج بقوة في وسط البلد المريب/بيض فاسد، يطلق رائحة نفاذة وقوية لذلك لا أحد يريده، كان يتكلم وأنا يتجمع داخلي لعنة كبيرة أريد أن أبصقها في وجه أولاد الكلب.

ظللنا نتناقش في الكتابة عموما والكتابات المهمة والكتابة المعطوبة، كان مدهشا ولدية معلومات غزيرة وذهن متوقد لامع، وله رؤية راديكالية في الكتابة والحياة.

قال: دول أولاد وسخة مجرد سماسرة وعملاء للأمن، لا تعيرهم أي أهمية، واكتب.. ما يبقي هو الكتابة غير ذلك خراء، هؤلاء سنوات وسيختفون الخدم، والمرتزقة في البالوعات باعتبارهم مجرد نفاية، استمر.

كشف لي المشهد بوضوح، كلامه كان بالنسبة لي بارقة أمل، حررني من الخوف، خوف الطغاة في مكاتبهم، الخوف من الفشل، فالمشكلة ليست في الكتابة، ولكن في الفساد والانحلال الخلقي، لذلك قررت أن أصدر المجموعة على حسابي في دار نشر صغيرة "المتاحة " ليس لها لوبي داخل الجماعة الثقافي، أو اشتباك مصالح مع الصحافيين، لذلك اعتمدت ذاتياً على توزيعها على الكُتاب والصحافيين والنقاد، على أمل أن يقرأ ناقد، أو كاتب كبير

المجموعة ويكتب مقالاً، أو يوافق على حضور ندوة لمناقشة الكتاب ويتم تدشيني مبدعا واعدا، ولكن تم تجاهلها تجاهلاً تاماً، إلا نذر ضئيل من أخبار .

كنت غاضباً أكثر من كوني يائساً، لذلك اكتفيت بالقراءة، وكتابة نصوص جديدة، كما أن المجموعة تسري بطريقة ما بين يدي قاريْ ما شاء من شاء، لن أيأس قد جأتني فرصة للقاء الأب الروحي للرواية الحديثة "فرانز كافكا" وهذه فرصة لم تؤتَ لأحد قبلي لذلك جهزت أسئلة قوية وذهبت إليه في العنوان الذي كتبته وراءها أخرجت الورقة وحفظت العنوان ونزلت في المنيل ،أخذت أسأل حتى وصلت للعمارة صعدت الدور الثاني حيث يسكن ؛ودققت الجرس، خرج إليّ وسلم على وأخذ يقول لى: تفضل تفضل . ثم أدخلني المكتب، كانت غرفة عادية ، رأيت قليلاً من الكتب وراديو اسطوانات قديم وكان يضع عليه موسيقى كلاسيك لا أعرف بالضبط وخجلت أن أسأله، وجدته يدخل يحمل شايا وبدا عجوزا قصيرا ولكن كان هناك في وجهه علامة نباهه وذكاء وروح حية، وضع لي الشاي وأخذت أساله: سيد كافكا، تقول الهوى يمكن اقتلاعه أو إحباطه، لكن الكتابة هي أنا... أن أجن طوال الليل كاتباً، هذا ما أريد! وإن أفنى هكذا، أو أفوز، هذا أيضاً ما أريد "ثم يشاع أنك أوصيت بحرق أعمالك؟

هذه كذبة كبرى وليدة خيال شاحب من مستر برود الأحمق "على فكرة؟ هذه صفته التي كنا ننعته بها" هل تتصور من قضي عمره يشيد عالماً نثرياً، يأتي في نهاية عمره، ويضعها في يد أخرى لينال مجد حرق عوالم وشخوص وكد وابتكار وفرح ونشوة وموت وغناء وألم، هكذا، ولكن سيد "برود" يريد أن يلقي هالة قدسية على شخصي المتواضع ولا يعلم أنني ضد هذه الهالة القدسية الزائفة، أن إنسانا بسيطا يحب فنا نثريا اسمه الرواية والقصة القصيرة، لا شيء أخر لا أوهام في الموضع، أنا مثل فلاح بسيط ،أو نجار، أو سائق شاحنة، هل رأيت فلاحا يوصي جاره أو صديقة ليحرق حقل القمح الذي كد في زراعته، هذا كلام مناف للعقل والمنطق، ثم لماذا لا أنال المجد بنفسي وأحرق ما جنته يداي، ثم إن هناك مبررا أخلاقيا

يمنعني من أن أحرق هذه الأعمال، هؤلاء السادة النبلاء المعذبون في أرجاء الرواية، هل تريد مني أن أمزقهم، وأقول لهم، كفى أذهبوا الى الجحيم، هذه الشخوص مثلها مثل أي كائن حي بالنسبة لي، شخصي حيوات إنسانية تعاني وقبرهم يضاعف معاناتهم.

هل تحب الحيوانات؟

مستر كافكا: أنا المحاور وجئت لكي أجري معك حوارا لجريدة خليجية وليست لدي أوهام، فقط مبلغ مالي يدور ماكينة الحياة القاسية، ومزيد من توسيع قاعدة القراء المخروقة في هذا الوطن.

ضحك كافكا وقال: عليك اللعنة ثم أكمل، حياتك البائسة تجعلني أكمل هذا الحوار البائس هههههه. ثم وضع يده على يدي بشكل سوقي رخيص وكأننا عمال في منجم على مقهى في حي شعبي، عليك أن تعقد أواصر صداقة مع الحيوانات والطيور والغابات والبحار والأنهار والزواحف السامة، يجب أن تتفهمهم وتقضي وقتا في تأمل حيواتهم بدلا من هذه العين المفتوحة على آخرها على الإنسان، الإنسان كائن شائه ممزق، كئيب لذلك أبتعد عنه قدر استطاعتي، هل تتصور أنني كتبت عن الحفار كانعكاس لحياة الإنسان بتعقيداته وغموضه، هذا غير صحيح ولكن أنا أكتب عن مشاعر هذا الحيوان عن أحلامه، عن خوفه ورعبه، كتبت عنه من باب التضامن فقط والاستبطان الروحي.

-الكتابة الكابوسية، الكتابة المظلمة الكئيبة تيار في النثر القصصي والروائي التصق بك ؟

ــ لا أنكر أن كتابتي عبرت عن واقع مظلم، ولكن من يرى في كتاباتي هذه الصورة فقط فهو مجرد مغفل، تحت هذا السرد " القاتم "تسري روح مزدوجة، من السخرية والتهكم، وهناك

الجانب الفكاهي في الموضوع، ولكن هؤلاء قراء لا يعنوني بشيء، فهؤلاء مجرد كتبة ودعني أستخدم تعبيرا ميتافيزيقيا "تغيب عنهم البصيرة "

-ولكن قد يرى البعض في كتاباتك نوعا من الاستغراق في اليائس والتشاؤم والعدمية.

ــ المقاومة ضد العدمية، الشخوص في روايتي لا تستسلم بل تظل تقاوم الى الأبد، حتى وهي على حافة المقصلة هناك فعل مقاوم، في رواية "المحاكمة" يناضل جوزيف كاف من بداية الرواية حتى النهاية حيث يقاد الى المقصلة ويلوحون له بالمطواة لكي ينهي حياته فينظر لهم في تحدٍ ويرفض الانصياع، لذلك لا يجدوا مفرا سوى أن يقوموا بإنهاء المهمة، هل تريد مني أن استخدم المجاز واللغة الإنشائية الرخيصة، والجمل الحماسية، الكاتب يعبر عن مأساة الكائن في هذا العالم، هل قرأت المحاكمة، أو القصر، فنان الجوع، أنت لا تقرأ جيدا هناك غضب، وعناد وفعل مقاوم من أول سطر في السرد، البطل في سردي يعرف جيدا حجم التهمة الملقاة عليه، ولو لدي نزعة تشاؤم لكان أطلق على رأسه الرصاص، أو لم أستمر شخصياً في الكتابة، الكتابة فعل احتجاج ومقاومة، مقاومة البلادة، اليأس، العنف، الضغوط الهائلة من جميع الجهات .

ــ هل مستر كاف إنسان متدين وهل تتفق مع الرأي القائل أن كتابات كاف ؟ رسالة دينية مبطنة وأمثولة لبحث الإنسان عن الله .

دعني أردد وبكل تصميم مقولة ــ ساراماجو : نعم، ملحد كليا، وبسبب ألف مبرر. وسأذكر فقط واحدا منها. منذ الأزلية التي سبقت خلق الكون، الإله لم يفعل شيئا. ثم، ولا ندري لماذا، اتخذ قرار خلق الكون، وقام بذلك في ستة أيام، وفي اليوم السابع استراح. وما زال مستريحا إلى الآن، وسيستمر مستريحا إلى الأبد. كيف يمكن أن نؤمن به؟ أنا مجرد رجل بسيط، أكتب عن أشياء ملتصقة بي ولا يعني الجانب اللاهوتي، بالمطلق، كتبت قصة قصيرة

عن طفل يذهب للمدرسة كل يوم يمر بقناة عميقة وهو لا يعرف العوم ووسيلة العبور مجرد ماسورة صغيرة، ومطلوب منه أن يمر دون أن يسقط، عندما كتبت القصة كتبتها عن واقعة محددة، دون أي نوع من التخييل، كنت أجلس يوميا لشهور أتتبع هذا الولد الصغير وهو يعاني في الذهاب والعودة، وأحيانا التلاميذ يقومون بقذفه بالطوب حتى يرتبك ويسقط في النهر، ظللت استبطن مشاعر هذا الطفل، وأريد أن أكتب ولكن لا جدوى، الكتابة هي الوحيدة الميتافيزيقية، ودِيني الوحيد تجده هناك في الموسيقي، لدي إله الفن، لدي بيتهوفن، باخ غير ذلك كله تفاصيل تافهة، كنت أرى الولد يمر وهو يرتعش وأنا أتصبب بالعرق خوفاً ورغم ذلك لم أكتب شيئا، وفي يوم كنت أختلي بنفسي ومجلاتي القذرة لتسهم في الحفلة السرية، وإلا يبرق داخلي طوفاناً من السرد، ومشاهد تتألق داخلي قذفت الصور، وانسللت بهدوء، دون جلبة لكي احتفظ، بالعوالم طازجة، حتى أخرجت الآلة الكاتبة، وكتب أول سطر وتحررت العوالم الى عالم الضوء والحياة، الذي أعرفه هو خاص بالكتابة، عندما أردت أن أكتب عن الحب والحياة والمرأة، اختلقت "ميلينا"، وهذا لا يعني أنها ليس لها وجود ماديا واقعيا، ولكن رغبتي في الكتابة جعلتني أنسج هذا العلاقة، هل تتصور إنسانا يحب يكتب يومياً للحبيبة، يظل يكتب، لكن الخوف من العالم المفترض، الخوف من عدم الفناء، هل تتصور مدى معاناتي يا سيد....عندما أنتقل للعالم الآخر وأجد هناك أبي، وهتلر، والنازيين والفاشيين وكل هؤلاء القتلة يستقبلوني بجحيمهم، هل تتصور حجم هذه المعاناة، أن تنتقل لتعاني وتعاقب وتضيع مرة ثانية وثالثة ورابعة الخ الى الأبد ولا منقذ لك فأنت مقذوف أبدي في الجحيم.

-هل تريد أن تقنعني أن كافكا اليهودي الذي عاش بدايات الحداثة وفي جغرافيا ملتهبة بأهوال الحروب، استطاع أن يقصي الهوية ببساطة؟

-كلمنا عن الدور الملتبس للأب في حياتك.

ــ الأب هو الأب، لا تستطيع أن تعبر بدقة عن علاقتك به، ليس هناك وجه واحد للأب لذلك يختلط على الأمر دائما تجاهه، ولكن قل لي: هل كنت تحب والدك وهل عبرت عن هذه العلاقة بدقة؟

-دعك مني يا سيد كاف، أنا مجرد كاتب عربي مهما تجاسرت فسيظل الخوف والنفاق الاجتماعي جزءا من كينونتي، لذلك همشت الأب والأم من دوائر التخيل، جعلتهم ينزوون هناك حيث لا يراني أو أراه أو أجعلهم متنا في أي شيء، لم أفكر فيهم يا سيد كاف، فلو فكرت فيهم وأمعنت في استبطان هذه العلاقة، وخلطها بالتخييل كما أفعل، فسأوضع على المقصلة من المجتمع خاصة القرية التي أعيش فيها موجة اضطهاد لا مثيل لها، ولا طاقة لي على مواجهة جموع الكراهية والترويع، أنا في النهاية مجرد كائن هش، لا أحتمل أي ضغوط فأشار لي لكي أصمت وقال اقترب منيّ

هذا كلام فارغ لا قيمة له، انس، اكتب ما تريد دون افتعال أو انتقام أو سطحية أو إرضاء أي طرف، أنت أقوى من كل هؤلاء، هؤلاء يتم التلاعب بهم من شذاذ الآفاق، ولن يروك إلا بعيون البهلوانات والنصابين والحواة، وأنت لست في الدائرة، أنت في الهامش وهذه فرصة عظيمة كي تكتب بدون ضغوط، بدون رقيب ما، - ولكن العزلة قاسية يا سيد كافكا، هل تتصور أي قلق أعيشه وأنا اعرف أن كتاباتي لا تري.

-أنت تضحكني، العزلة فن عليك أن تتقنه وتتمتع به، يغيب عنك التأمل في حياة أخرى تدوس عليها ولا تراها، داخلك ضجيج عليك أن تقصيه.

-هل كنت داعما لإسرائيل والصهيونية وإقامة وطن قومي في فلسطين؟

- مرة ثانية، أنا ملحد وأمقت رجال الدين ولا علاقة لي بالفكرة ولا بالهوية اليهودية، أنا إنساني، لست يهودياً ولا ألمانيا ولا تشيكيا، أنا فوق القوميات والطوائف والأحزاب، وتعاطفي

مع الشعب اليهودي تعاطف طبيعي مع المهزوم والمضطهد، هل تتصور لو أي جماعة إنسانية أخرى تنتمي للإسلام، أو المسيحية أو البوذية تعرضت لما تعرض له الشعب اليهودي، هل تتصور أننا سأقف مع الجلاد ضد الضحية، هذا كلام في غاية الغباء.

-ولكن إسرائيل.....

ــ لا علاقة لي بالأوغاد، ليس معنى أننا دعمت حق شعب في الوجود أن أتحمل تبعات ما تقوم به فليذهبوا للجحيم.

(٧)

كنت في مأمورية خاصة بالعمل في المحافظة ،وبمحض الصدفة البحتة وجدت "مقدم شرطة "يجلس في مكتب العلاقات العامة في ركن بعيد عن الموظفين ويقرأ في رواية "الطوق والإسورة" للكاتب يحيى الطاهر عبدالله، انتابتني مشاعر مختلطة ما بين الدهشة من وجود ضابط يقرأ روايات والفرح من هذه الهواية التي قربتني بمسئول كبير في الشرطة إضافة لكونه ضلع نافذ في المكان، يرتدي بدلة رمادية وقميصا أزرق فاتحا و"كرافت" كحليا، ويضع قدما على الأخرى، ويستغرق في القراءة غير مبالٍ بضجيج الموظفين، أخذت أنهي الأوراق المطلوبة، وكان الموظف ينهيها وأنا جلست على الكرسي واهتملمي منصب عليه، وعيني تتبعه وبي رغبة في التعرف به، ولكن بالطبع في مثل ظروفي يجب أن يتردد في الأقدام، فأنا في النهاية مجرد موظف صغير وهو رتبه كبيرة، لذلك أحجمت عن المبادرة بالتعرف به، كان طويلاً وذا وسامة ورغم سنه الذى القارب على الخمسين إلا أن صحته كانت جيدة، تجاهلته وبدأت أتكلم مع الموظفين حتى انتهيت من الأوراق وقبل أن أترك المكان وجدتني أقول "أرتاح شوية "بصوت عال، ثم سحبت كرسيا وجلست أهرش في رأسي، ثم وأنا أنظر بنصف عين تجاه الضابط وجدته يقوم فابتعدت بنظري تجاه الموظفين ثم وجدت شخصا يضع يده على كتفي، نظرت فوجدت المقدم فوق رأسي سقط قلبي وأنا أنظر إليه، ووجهي شاحب وغير قادر على الكلام حتى قال :إنت عمال تبص كده بتشبه عليه؟

ــ أبدا والله مفيش حاجة أصل ...

ــ لا أصل ولا فصل خش في الموضوع

ــ أصل أنا استغربت أني أشوف حضرتك بتقرا لشاعر القصة القصيرة عمنا يحيى الطاهر عبدالله

انطلقت منه ضحكة قوية من القلب، وقال: هما ضباط الشرطة دول أيه يعني مش بني آدميين، من كوكب عطارد قلت أبدا والله يا فندم، الموضوع ...

قال : ولا موضوع ولا حاجة مرتبك ليه، أنت أكيد كاتب

قلت آه والله

قال: إنت كاتب

قلت: أيوه بكتب قصة قصيرة ورواية

قال: واسمك إيه؟

قلت.....:"

قال: آه ثم أخذ يهز رأسه، وبتعمل إيه في المحافظة؟

قلت: موظف .

قال: كويس أن خلصت الشغل

قلت: ايوه خلصته

قال: خلاص يللا بينا.

قمت معه وأنا في غاية الإنهاك من المشوار الطويل الذي قطعته من مستعمرة العقاب حتى المحافظة، ولم أكن مركزا بالمرة سرت وراءه وفي يدي الملف ونزلنا من مبنى المحافظة حتى وصلنا لسيارته، السوداء الفخمة، وجلست بجواره ،وفتح التكييف وانطلق بالسيارة فشعرت براحة وبرغبة في النوم، أخذ يسألني عن ماذا أكتب ورأيي في أهم الكتاب والصحافة كنت أرد باقتضاب ثم فجأة قال بحنق : أولاد الوسخة الشراميط كل ما أنزل كتاب، أو أحقق بعض النجاحات يقولوا ده ضابط شرطة، ما هو ده عمل في النهاية زيه زي النجار زي

المهندس، زي المدرس، زي الفلاح، فيه دولة من غير شرطة، قلت في النهاية المحك الأساسي في الآداء، فلو أداؤك سليم لا شأن لأحد بك، ثم اللي عنده كلام يدينك يعلنه غير ذلك سلوك منحط، أشار بيده العشر في مواجهتي، هو ده الأساس، أنت تعرف عني إيه عشان تديني؟ ثم دي وظيفتي، وزعلان إني بكتب طيب أنت كاتب بتشتغل شغلنا ليه؟ وتبلغ عن زميلك ليه؟ هما طبعا بيطعنوا فيّ من وراء ضهري، لكن قدامي بيقولوا شعر في أعمالي، حقراء ورب العزة، تقارير ومخازٍ لا تتصورها.

كان خفيف الروح بدرجة لا تصدق، ولديه نوع من السذاجة تظهر من كلامه ويصعب شرحها، واستغربت كيف يعمل في الشرطة المصرية المشهورة في العالم كله بكونها سلخانة يقوم على نظامها مرضى ومعاتيه، فكرت في سؤاله عن حقيقة ما يدار في مستعمرة العقاب، ولكن خفت أن يكون أمناً قومياً وأذهب للجحيم لذلك كتمت على الموضوع، وأخذت أنصت له، كان يتدفق بالحكي ولم يترك لي فرصة للتعبير عن نفسي وعن كتاباتي وكلما فتحت موضوعا قمعني وأخذني في موضوع مختلف يحكي فيه عن أمجاده وكيف أن الشاعر الكبير يعتبر سرده القصصي، والروائي الملهم ويقدر أعماله، ثم توقف بالسيارة أمام مطعم، وصعدنا للدور الثاني وطلب وجبة له وطلبت أيضا وجبة قريبة مما طلب واختلفنا في الخضار فهو يحب الملوخية وأنا أحب الفاصوليا، لم يترك لي فرصة للكلام ثم سأل عما أكتب قلت له الرواية والقصة القصيرة، قال: كويس لما نتقابل أبقي هات لي أعمالك وأنا أهديك أعمالي ويهمني رأيك قلت أكيد، أنا تذكرت أنا قريت لك قصص متناثرة في مجلة "أدب ونقد" بعنوان: ليل الفقير وقريت لك قصة في مجلة الثقافة الجديدة، كانت قصة "الغول في المنديل" على ما أتذكر، ضحك مبتهجا لسه فاكر دي قصص من بداياتي، ورغم ذلك يا أخي لسه محتفظة بطزاجتها، وجمالها، لما قريتها أمينة النقاش، قالت: قصة تحفة خدها يا حلمي نزلها في العدد الجديد، أمينة دي ست ذوق وراقية جدا، لم أرد وأنا الذي احتفظ بكراهية سوداء تجاه كل المثقفين، ثم سأل عن طبيعة

عملي في المحافظة، قلت: له والله انا بعمل في المزرعة الملحقة بمستعمرة العقاب، قال: مكان رائع استغل الفرصة دي واكتب، ده مكان رائع والله باحسدك عليه، القاهرة جحيم بأهلها، قلت والله أنا تعبت من بعد المسافة وكنت بتمني أنتقل لمكان قريب من بلدي في الوحدة المحلية، أو شركة المياه، قال خلاص فكر في المكان اللي أنت عايز تروح فيه ونسق مع الناس هناك وأنا أشوف الموضوع، قلت استبينا، انتهينا من الطعام ونزل حاسب وخرجنا وسار بالسيارة الى وسط البلد، ركن السيارة ودخلنا مقهى، ومن أول دخولنا كان الاهتمام مبالغاً فيه، حيث أحضر النادل الشيشة، الباشا، وناوله مبسم وأحضر لي شايا وهو شرب كانز سفن أب كان مبجلاً في المكان ظللنا في المقهى حتى تعبت ولم أعد قادرا على الاستمرار فاستأذنت منه ورحلت فنادى عليَ: استنى واختفى فترة وعاد حاملاً كتبا في يده وناولني إياها، فكانت مؤلفاته، شكرته وحملتها وعدت للبيت وفي الصباح التالي عدت للمستعمرة، وعندما انتهى عملي، بدأت في قراءة المجموعة القصصية، كانت عبارة عن مشاهد واقعية بسيطة استقاها من الواقع المعيش وكان يبدوا فيها منحازا للإنسان البسيط، وفي الغالب مفتعلة، لم أستطع إكمال المجموعة بعد ذلك قرأت باقي الأعمال، واخترت رواية متماسكة وقررت الكتابة عنها، طبعا لولا معرفتي به ولولا آمالي في الاستفادة من علاقاته ووظيفته في المحافظة، ما فكرت بالكتابة عنه بالمطلق، ولكن هكذا طبيعة البشر تظل تتكلم بالمثاليات وعندما تختبر تبيع بلا تردد، وأنا لست استثناء، قد تكون الفرصة فقط لم تأتِ بعد للبيع، ظللت أدير المقال داخل ذهني ثم بدأت في الكتابة ثم وجدت ما كتبته بائسا، فظللت أقرأ في كتب النقد ثم تركت كل ذلك وكتبت أول جملة مفيدة ثم وضحت الرؤية لي تماما وأنهيت المقال في خلال نصف ساعة، ثم اتصلت به من خلال التليفون الأرضي في المزرعة وأخذت أحدثه عن عوالمه الروائية وأخبرته بانتهائي من مقال عن الرواية، كان سعيد بكلامي عن شغله واقترحت أن أرسل المقال لمجلة أوراق وهي مجلة عربية، ولكنه قال: أنه يفضلها مصرية وإن كان المقال في النهاية يخصك

وأفعل به ما تريد، أرسلت المقال لمجلة مصرية فنشر في سرعة البرق، سعد بالمقال وأنا أيضا فقد كان للمجلة شهرة قوية في الوسط الثقافي، ولكن حزنت على أحوال الثقافة في مصر كيف أصبح على أي كاتب كي يجد طريقة للنشر أن يستند على كفيل ما؟! عندما ظهر المقال اتفقت معه على مقابلة في وسط البلد، وقد استقبلني بحفاوة، وفي نهاية السهرة قال لي تعالى المحافظة بكره واكتب طلب نقل.

سعدت بهذا الخبر الذي سيخلصني من جحيم المستعمرة خاصة أن شركة المياه وافقت هي أيضا على نقلي وهي قريبة من البيت، وبالفعل عندما وصلت للمحافظة وجدته في انتظاري، أخرجت الطلب وناولته إياه فأخذه وتركني وظللت فترة أدور في الحجرة حتى خرج والقرار ممضي وقال: أنت على ذمة شركة المياه، بعد ذلك تحاشيت اللقاء به فهو في النهاية ضابط شرطة عامل، وكفاية شبهة فكيف يستقيم الأمر وأنا الكاتب المعارض للنظام، الأكثر راديكالية يكون صديقه ضابط شرطة فسيتم استغلال علاقتي به، وتشويهي كلما كتبت ضد النظام ، سيقولون هذه الشجاعة لا تعطي إلا لمحمي من جهاز ما وأنه مزقوك ضمن جبهة ضد جبهة أخري، كما أنه رغم الحميمة التي يقابلني بها والتي لا تدل إلا على صداقة حقيقية ولكن بحس الكاتب أشعر أن هناك كذبة في الموضوع، أشعر أن هناك تظاهرا ما، أن عقله وحواسه وروحه معلقة بطبقة عليا، تضم إعلاميين، وصحافيين وسياسيين، ناشرين، كوادر بيروقراطية داخل حقل الثقافة ورجال أعمال، وفنانين تشكيليين وموسيقيين، ونقاد وكتاب رأي، ومبدعين صف أول مشهورين، بعيدا عن قيمتهم، وإن علاقته بالهامش ملتبسة داخله، لا يعرف ماذا يريد منهم قد يكون التعاطف الإنساني، أو قد يكون روح طيبة وحنونه بالفعل ولديه جوهر نقي مرتبط بالمهمشين والفقراء، وأهل الله في هذه الحياة، وأنه لا يجد نفسه إلا وسطهم، وأنه أبعد ما يكون عن السلطة والمجتمع الطافي على سطح الحياة في مصر، ولكن ظروفه ما جعله يختلط بهذه الطبقة، أو توظيف الهامش ذات التكاليف البسيطة لصالح تكوين

لوبي يستفيد منه في علاقته بالسلطة، أو المؤسسات الثقافية، أو المنافسين له داخل جناح السلطة، وهذا تفسير له أساس في الواقع المعيش ؛فجيل الستينات في مصر، كون لوبيات لحصد هبات ومكانة، منهم الكاتب الصعيدي، الذي فتح بيته لمبدعي الجنوب والقرى رئيس تحرير المستقبل الذي كون شبكة مصالح جهنمية، وهذا الكاتب الذي حصد كمية لا بأس بها من الهبات بفضل التسول، ينزل على المقهى من صباحية ربنا يعيط، أنا مظلوم، أنا جيل الستينات بيحاربني، أنا ماخذتش شيء، كل الفرص ضاعت، وهو يحصد من ثلاث جهات ثقافية في مصر، هيئة الكتاب المجلس الأعلى للثقافة ومكتب الوزير، وهو أيضاً استغل الهامش وصنع اسمه على جثة الهامشيين، قد يكون استفاد من هذه التجربة وأراد أن يبني قاعدة واسعة راسخة، تحميه في حروبه وتطلعاتهن وهذا تفسير قد يكون صحيحا وقد يكون خاطئا، إن الهامش ليس خالصا، ولكن له أمراض وتطلعات وعقد، وتشوهات، قد تفوق السلطويين، ومشكلتهم الأساس أن لديهم عنف داخلي رهيب ولا قدرة لهم على توظيف هذا العنف لأنهم كائنات هشة محطمة، ولكن في الجيتو الداخلي للهامش، عندما تحدث تعدي تجدهم يستنفرون قوتهم بقوة مذهلة، ويقطعون هدوم بعضهم بشكل شنيع وإن تحقق لأحدهم مكسب ما تجد الغل والكراهية والعنف غير محتمل، وساعتها يتم تصريف هذا العنف بشكل مباشر، أنا نفسي تعرضت لعنف الهامش آلاف المرات، وكنت في بداية الأمر أصدم، ولم أكتشف جنونهم وسخافتهم والضغينة والكراهية وعدم الواقعية والكسل والتوقف عن الإبداع والعمالة للأمن في مقابل هبات قليلة من السلطة لتوفير الحشيش والضرورات الأساسية البسيطة، في النهاية هل خلونا من هذه الأمراض؟ بالطبع جزء أساسي من هذه الأمراض مترسخ لدي ولكن لدي رغبة في تجاوز هذه الأمراض.

أحيانا أتعاطف معه بسبب أن لديه عقدة الاعتراف به ككاتب، فقد كان الوسط الثقافي ينظر إليه باستعلاء، أو يضعه في مكانة محددة، ثم رغم ما يدعيه طول الوقت بكونه ضد

سماسرة الأدب ،فله حدود وعلاقات ومحاذير تظهر عندما أقول وجهة نظري تجاه أوغاد المثقفين، فأجده يعترض كلامي ويظهر جانبا إيجابيا، مثلا ولكنه كاتب كبير ابن الإيه أو معلش أصل مريض وربنا ما يحكم علينا، إنت عارف لسه مركب دعامات، لا بص أصل ده نشأ في ظروف غاية في السوء والله يصعب ع الكافر الخ الخ .

في يوم كنت على المقهى أتجاذب أطراف الحديث مع صديق عن أحوال الثقافة والمثقفين وجاءت سيرته فقال لي بجدية: إيدك! مددت يدي، فسلم على وقال: وشبكة العشر الكرام صاحبك لسه على قوة الأمن وعين على المثقفين، انزعجت جدا من الكلام فهو في النهاية صديقي وهذا كلام معيب ولا يصح، اعترضت بلياقة وقلت: النظام ليس بهذا الذكاء، عشان يجيب واحد بالنباهة دي، قال لي: إنت تتصور مثلاً إن واحد يعمل شبكة العلاقات دي كما تراها بالمزاج، لأنه حابب كده، قلت: يا أخي أنا مصدقه، هو مشكلته إنه يريد أن يكون نجم في الأدب والثقافة. قال: ده الطبيعي ثم في النهاية ده بيصب في ده، وده بيصب في ده، وفي النهاية النظام عامل صيغة كل يدور في ساقية بطريقة معينة ينتج في النهاية المشهد اللي أنت شايفة، قطاع من المثقفين تم تجندهم تحت دعاوى التنوير ومحاربة التيار الظلامي الإرهابي، وصدق هذا الفصيل نفسة واشتغل يدق على السندان وهو عارف إنه مجرد مسلح بأجر، والدولة تعرف إنهم مجرد كوادر بيروقراطية لا أكثر، وأنها تقوم بتوفير نحتاية لكي تستمر العجلة في الدوران، وعندما يتوقف المدد المادي، يضع السلاح في الجيب ويرفع شعار الثقافة ليست بخير، فيعرف القائمون على الثقافة، أن الباشا يحتاج لمدد، ويقوم شخص مقرب ما "ضابط الايقاع"، بتدخل سريع، ويفض الالتباس وتعود المياه لمجاريها، وتصبح الثقافة بخير وسعادة، لذلك تفشل كل الخطط لأنه في النهاية لا أحد يخوض معركة لتصب في صالح الدولة البوليسية، ويكون صاحب موهبة أو صناعة أو نقد، الموهوب الحقيقي هو من يخوض معركته هو ضد التيارات الظلامية، وضد الدولة البوليسية، لا ينفع أبدا، أن نقول بلاش الكلام الآن عن

الديمقراطية في ظل معركة الدولة مع الإرهابيين، لأنك لا يمكن أن تهزم منطقا يقينيا وأنت تتجاهل منتج الإرهاب نفسه بسبب غياب العدالة والحرية والديمقراطية، والتنمية والفساد والطغيان وغياب الأفق السياسي وتكلس بل غياب الحياة الحزبية وسيطرة القلة بعيدا عن أي مشروع وطني على الحكم وشيوع النفاق والتدليس والسرقة في كل مكان وننتظر هزيمة الإرهابيين، ستضمر التنظيمات المسلحة عندما يكون هناك أفق حر يتحرك فيه المجتمع غير ذلك وهم لا أكثر. قلت ولكن هناك تجارب مسلحة لفرض التنوير وقد حققت نجاحاً ملحوظاً، قال: طيب وانت متصور أن هؤلاء الحثالة يعرفوا شيئا عن التنوير؟ كله تغير في اللغة لا أكثر ، ماذا استفاد المثقف من هذه المعركة، لا شيء، فقط ساعد الدولة في إحكام قبضتها بعنف على المجتمع عموماً، والمثقف خصوصاً، لماذا المثقف؟ لأنها تعرف خطورته ومكره وغدرته وخيانته، خرجنا من المعركة وقد تغول الإرهاب والنظام البوليسي.

(٨)

عندما انتقلت للعمل في عملية المياه، أُسندت لي وظيفة تحصيل فواتير الاشتراكات، وكانت عملية غاية في السهولة، لأن التحصيل في القرية يكون مرتين في العام، وهي في الغالب مبالغ هزيلة تتراوح بين ١٥ الى ٣٥ جنيه ولا أحد يعترض ول أعترض أحد لا أبالي به فليس لنا سلطة قطع المياه أو إجبار صاحب المحل، الغريب أن الفقراء هم من يدفعون وكبار الأثرياء لا يدفعون حتى أن البعض يتراكم عليهم استهلاك عشر سنوات، وما من فائدة ترجى وأنا أتعامل معهم بشكل رسمي أستاذ فلان أو يا حاج فلان وأقدم له الوصل والله دفع خير لم يدفع ألف خير، لا أبالي وفي ذلك الوقت كنت تقدم لفتاة لخطبتها ولكن بنت من جيراننا ذهبت لها ودست سمومها ناحيتي وقالت أشياء كنت أتمنى أكون أنا فاعلها ولكن للأسف لم يحدث شيء من ذلك ، الغريب أن هذه الفتاة أخرجتها من ورطة كبيرة بحسن تصرفي لكن ماذا تقول؟ ، المهم بعد فترة بحث طويلة لم أجد الفتاة المناسبة، حتى يئست تماما، ورميت فكرة الزواج وراء ظهري، واكتفيت بالذهاب لعملية المياه بالجلابية ولعب الدومينو حتى ناداني زميل وقال لي لماذا لم تتزوج بعد؟، قلت والله الموضوع معقد، لو أعجبتني بنت ورأيتها مناسبة يفشل الارتباط لألف سبب، قال طيب إيه رأيك في فلانة، قلت والله هي مؤدبة وذوق صحيح هي مش مهتمة بنفسها وجمالها محدود لكن في النهاية لازم الواحد يتزوج، قال:

خلاص اعتبر الأمر منتهيا، وفعلا خلال شهور بسيطة تم الزواج ونشرت روايتي الثانية في سلسلة أصوات التابعة لهيئة قصور الثقافة ونالت استحسان عدد لا بأس به من النقاد والمبدعين وأجرى صحافي حوارا معي وتفتحت سكك ما كنت أتوقع أنها ستفتح أبدا وبعد إنجاب زوجتي المولود الثاني حصلت على عضوية اتحاد الكتاب وكم كانت سعادتي غامرة عندما وجدت صفة روائي مطبوعة على البطاقة، وقد حصلت بها على امتيازات كثيرة وحتى رئيسي في العمل بدأ

يعاملني بشكل مختلف ويناديني بحضرة الأديب المحترم مفخرة البلدة ،وعندما مات الحاج سعيد البحراوي أخو د إبراهيم ذهبت الى الجنازة وتذكرت د. إبراهيم وسالت دموعي وبعد انتهاء الجنازة ذهبت في المساء للعزاء وأنا جالس والمقرئ يتلوا آياته وجدت شابا صغير في يده ورقة وقلم يقول لي:

رقم تليفونك يا أستاذ، أعطيته رقم التليفون الأرضي وأنا في غاية الانزعاج وبدأت الوساوس القهري تضرب بقوة داخلي، وعندما صدق المقرئ، قمت وأنا أتوجس خيفة مما سيحدث، وصلت للبيت ساهما، سألتني زوجتي عما بي، قلت لا شيء قالت:

لا فيه إنت لما تكون زعلان بيبان عليك. قلت والله ما في حاجة وسحبت كتاب من المكتبة وأخذت أقلب أوراقه، حتى رن التليفون، اختطفت السماعة ورفعتها وأتنصت وجدت صوت ماري استغربت، قلت فيه حاجة يا هانم، قالت:

جيمي أرسل لك طردا معي، هل تمر على قبل أن أسافر لتحصل عليه، قلت: حاضر يا هانم أنا مسافر غدا وبعد غدا سأمر بالليل، وأغلقت التليفون، تنهدت وأنا أشعر بارتياح فوجدت وجه زوجتي مقلوبا، قلت مالك، قالت من دي، حكيت لها ما دار بيننا، أخذت تضرب كفاً بكف وتقول إحنا في أخر الزمان واحدة تتصل براجل متزوج، لكن العيب مش عليها العيب عليك اللي شجعتها، قلت لها:

إنت مجنونة والله، حد يقول الكلام ده، دي ست كبيرة في السن كمان هي زوجة صديقي، أنا طبعا فار دمي ولعنت الزواج واللي عايزه، وهي أخذت تقرض في أظافرها، والتزمت الصمت، قلت يا ست متعمليش موضوع من لا شيء، طلعي الأوهام دي من دماغك، قالت:

أوهام، والله الكل عارف أن ستات بره لبو وشراميط، هي دي لو مش وسخة، كانت بعتت الطرد مع أي حد وليه التماحيك بقي.أنتِ متصورة أني عايز أروح، ثم نظرت إليها ورأيت

وجهها مشمئزا، فضحكت، ثم تمالكت نفسي وقلت بجد أنا مستغرب منك إزاي تغاري من واحدة قاربت ع السبعين، قالت:

نعم أنا أغار من واحدة شعرتها بيضا، فضحكت مرة ثانية، وقلت بصى قفلي على الموضوع، ونمت وأعطيتها ظهري، وبعد فترة وجدتها استغرقت في النوم فأخذت أفكر في الطرد الذي أرسله جيمي وكيف يكون الحوار بيننا في غياب أبدي لإبراهيم وكيف أتناسي كل الإساءات التي رموني بها، واستعدت الأيام المريرة التي عشتها بسبب غطرستهم واتهاماتهم المشينة مع أن المعركة لا يجب أن تكون معي ولكن مع جيمي نفسه أولا ومع عائلته ثانيا هم الأكثر عنفا تجاه د إبراهيم وجيمي ولكن ماذا أفعل وأنا الطرف الضعيف في الموضوع، د.إبراهيم كان يريد أحدا يفش نفسه فيه ليرتاح ولم يجد سواي، طار من عيني النوم وقمت من على السرير، خرجت الى البلكونة وظللت فترة ثم نمت ومر اليوم ولم أستطع تجاهل دعوة ماري، فذهبت في الميعاد فوجدت معها فتاة في الثلاثين شديدة الشبه ب د. إبراهيم وزوجة الحاج سعيد وأطفال أعتقد إنهم من أحفاد الحاج سعيد جلست قالت ماري: ابنتي سوزان، وبعد التعارف تكلمت سوزان بصوت خفيض لدرجة أنني قلت لها أنا سمعي ثقيل، تضرج وجهها بالدماء فبدت فاتنة، قالت:

هل صحيح أنك كاتب، قلت نعم محاولات بسيطة، قالت ومن تحب من الكتاب قلت: هرمن هسه وكافكا وبورخس وماركيز ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وعبد الحكيم قاسم القائمة طويلة قالت: لقد اخترت كافكا لأطروحتي لدرجة الدكتورة قلت:

رائع، سعيد باختيارك، وعنوان الأطروحة، قالت "المصادر التاريخية والمعرفية واللاهوتية في نصوص كافكا"، قلت هل تعتقدين أن نتاجه انعكاس لتصور لاهوتي كما يروج البعض، قالت:

نعم له ميول دينية قوية لا يمكن إغفالها ولكن ما المدى هنا يكون أهمية جدية البحث، قلت لها أعتقد أنه كان يوظف التراث الديني كمادة أدبية لإثراء عالمه الروائي إضافة للطابع عن شخوص موسومة بالطابع الكابوسي، القمعي المدمر للأصولية اليهودية، وهذا حقه تماماً كيف تتجاهل توحش السلطة الدينية ورغبتها المتأصلة في السيطرة على روح البشر وإخضاعهم، النفس البشرية معقدة يا عزيزتي وداخلها وحش هستيري يرغب في استخدام العنف بدرجة لا يمكن تخيلها، من أشخاص مثلنا في وقت مسالمة لأسباب تخصنا، ولكن مجرد انفتاح طاقة العنف يشعل الخيال ويتألق بصورة مذهلة، قالت :لن أختلف معك ولكن الحق أن الدين نزوع إنساني فطري لذلك يجد استجابة فورية داخل النفس ولم يشذ كافكا عن الطبيعة البشرية فمهما ادعى عن إلحاده والنزعة الإنسانية العالمية يظل الجذر الصلب مشبعا باليهودية. قلت قد يكون ولكن برأيي هو كافح من أجل الابتعاد عن هذا الجذر وقد استطاع فعلاً تجاوز هذا الجيتو لرحاب إنساني، وإلا ظلت دائرة القراء محدودة، ولكن لأنه إنساني. قالت هذا هو العطب الكاشف للأصولية، فالرسالات الدينية بطبيعتها عالمية وتخاطب بذكاء المناطق الضعيفة في الكائن، الجذر الأصولي الصلب، ذلك تجد أتباعا في كل العالم وتبجيلا رسوليا، كانت وجهة نظرها مقنعة، ولم يكن لدي ردود مقنعة، ثم قالت عموما هذه خطوط أولية وأنا أفحص شغله ويومياته ورسائله، وكل ما يتاح لي وعندما أنتهي من الرسالة سأرسل لك بالميل، النتائج الذي وصلت إليها مترجمة للعربي، شكرتها وشربت الشاي وذهبت سوزان وأحضرت الطرد وناولتني إياه، قلت بصراحة مش قادر أسامح جيمي لأنه كان سبب قطيعتي مع د إبراهيم، ردت ماري وقال: يجب أن تعذر جيمي، جيمي عاش طفولة مضطربة مع د إبراهيم، قلت لما هو عاش طفولة مضطربة، إحنا الطفولة دي مرت علينا من غير ما نعرفها أساسا، أنا وأنا عندي خمس سنين قبل ما أدخل المدرسة كانت أمي تحمل لي الحمارة سباخ من الشونة وتركبني فوق الغبيط وهي تسير بي، ولو الحمارة جعانة تروح نازلة في أي برسيم أو ذرة غيط أي فلاح وأنا أعيط

وأضرب فيها وهي ولا هنا، وتنتهي يا أما الفلاح يجي جري ويضربني، أو يفضل يضرب الحمارة لحد ما يبعدها عن الزرع، يا الحمارة توقعني بالغبيط، وتجري ع الغيط وأنا أعيط وأجري ورآها، وأخذ علقة سخنه من أبي، وبعد كده يحمل لي الحمارة نقلة تراب للشونة، وهكذا طوال النهار ولما كبرت شوية ودخلت المدرسة هربت من أبي وذهبت مع العيال في أجازة الصيف للعمل عند النصارى في فرز البطاطس في النوالة، أو جمع البطاطس في المقاطف وراء المحراث، أو تنميش الحشيش والرجلة ورميها على حافة الترع ،أو حمل سبائط الموز ويبدأ العمل السادسة صباحاً وينتهي الساعة الرابعة مساءً طفولة إيه المضطربة يا هانم، أنا كنت أصحى الخامسة صباحاً للعمل بالحمارة في الجبل عند الناس وكان هناك مقطوعية لكل حمارة، وكنا لازم نخلص المقطوعية والتنافس بينا كعيال كان رهيبا لمن سينتهي من المقطوعية أولا وكم بكيت بسبب مكر الحمارة وتركها خط السير، والدخول في أشجار البرتقال، أو التين وكادت أكثر من مرة تزهق روحي، أو تخلع لي عين بسبب، انحرافها المفاجئ ودخولها بين أغصان الأشجار الجافة والحادة، أو الصراع مع العيال طول الوقت فيمن يسيطر على الأخر وتحتاج أن تتجلد وتقاوم حتى لا يستهين بك العيال وتصبح مطية لهم، وخناقات كثيرة جدا خضتها مرغما، ضربت وانضربت/ وأيام كثيرة كتمت بكائي حتى أفارق العيال وانفجر بعد ذلك في العياط، الشارع قاسٍ وبوتقة محنة للفقراء والحالمين، أشارت لي ماري بالسكوت وقالت:

أنت لا تعرف شيئا يا عزيزي عن حياتنا لذلك لا تحكم، لقد عشنا أياما مريرة فقد كان إبراهيم يعاني هناك بشكل لا تتصوره حتى أنه دخل المصحة ليقضي ستة أشهر يعالج من مرض نفسي، وظل حتى أخر أيام حياته يتناول أدوية لكي يسيطر على حالته النفسية، مشكلة إبراهيم أنه كان منقسما على ذاته بشكل مريع، لديه رغبة حارقة في الاندماج والذوبان ولكن داخلة يصعب ترويضه ؛فداخله عنيد صلب لا يريد بالمرة أن يتغير، ظل يلح على لكي أسلم بطرق شيطانية حتى استجبت في النهاية فكان يريد منىّ أن أصلي أو أكون نموذجا للمرأة

المسلمة، الملتزمة والمحبة، المشكلة أنه لم يكن ملتزما، كان يذهب للبار ويأكل لحم الخنزير ويصلي الجمعة فقط، ثم يقول لي أخاف عليكِ من عذاب القبر يا ماري، أقول له لا تخشي شيئا إن الله غفور رحيم "فكان يعود ليقول: إننا نموذج سيء للأولاد، وعندما تركت المنزل وأخذت جيمي وعدت لمنزل الأسرة أصيب بانهيار عصبي فظيع، كان يضغط علينا وأنا كنت أحبه لأنه روح طيبة، مسكين إبراهيم، المشكلة أن جيمي كان أيضاً عنيدا مثله، وداخله فنان لذلك كان يقوم بتصرفات فوضوية بشعة فكان يقسو عليه ويرغمه على حفظ القرآن والأحاديث وإتقان العربية بصورة مثالية، ويظل وراءه يتبعه أينما صار كان يخاف عليه بشكل هستيري، ولم أكن أملك القوة الكافية للوقوف في مواجهته، كان الأمر فوق العقل، عندما يكون جيمي في رحلة تخييم، يظل يطارده بالتليفونات بحجج واهية، يريد أن يطمئن عليه، ولكن هذا الظل كابوسي على الولد، كان يُقابَل بتصرفات غريبة، يمارس رياضيات خطرة، يراهن على من يقوم بعمل خطر، بل جرب شرب الماريجوانا، وعندما علم إبراهيم كانت مصيبة سوداء، كان في حالة جنون وهو يصرخ في وجه جيمي، تريد أن تحطم مستقبلك، تريد أن تنام في الشارع، تريد أن تكون مدمناً شريرا، مع أن جيمي أقسم لي أنه لا يحب الماريجوانا ولكن فقط للتجربة وأنه لن يعود لتعاطيها، أما رغبته غير الطبيعية في تفوق جيمي فشيء يدعو للرثاء فعلاً كان يجلس معه ساعات لكي يتقن كل شيء بصورة مثالية. ثم صمتت قلت: لا أحد حتى الآن يعرف الطريقة المثلى للتعامل مع المرأة والأطفال. فضحكن وقالت: سوزان سيظل الشرق غير قادر على فهم المرأة حتى تتحرر المرأة ساعتها ستتخلى عن أقنعتها المتعددة. قلت :صحيح حتى تتحرر المرأة ؛فسنظل في مصيدة عنكبوتية، في ليل مظلم. ثم سحبت الطرد وغادرت.

(٩)

بعد انتهاء لقائي بماري، انتابني هاجس، ماذا لو داخل الطرد فخ لي، إهانة من أي نوع، علبه شيك وداخلها براز مثلاً، أو رسالة مهينة، فتحت الظرف البلاستيكي بقوة فتمزق ،وسقط منه كتاب فخم، التقطته ونظرت إليه كان بعنوان " الجانب المظلم للإسلام" وتحت العنوان د. جمال إبراهيم ،أغلقت الكتاب وقد عرفت مضمون الكتاب وقررت ألاّ افتح الكتاب، وعندما وصلت سألت زوجتي عن سبب خروجي وأنا الذي لا أخرج من البيت إلا نادرا، كذبت وقلت عند صديقي، ومرت الأيام وفي يوم أقلب في المكتبة فوجدته، فتحت الكتاب ودخلت نمت على السرير وأخذت أتصفحه، وكما توقعت فقد كان الكتاب يدور حول :

١- الإرهاب والتشدد وهجوم شنيع على تيار الاسلام السياسي وإلصاق أي عملية إرهابية بهم حتى لو في الاسكيمو، واستدعاء شواهد من التاريخ مثل قتل القاضي الخازندار، ومحاولة اغتيال جمال عبد الناصر الخ، مع تحميلهم ردة المجتمع وتخلفه، في الزى، الختان، اللحية، الجلباب، الحجاب، زيادة عدد المساجد، العنف ضد الأقباط، العنصرية، والسخرية منهم والتشكيك في انفتاحهم وإيمانهم بالديمقراطية ومطالبة الدولة بإتباع طريقة أتاتورك في القضاء على الوباء الإسلامي، وقد ألحق ذلك بثلاث مقالات " بعنوان "في مديح الأتاتوركية "وطالب بحذف الحرف العربي واستخدام اللاتيني.

٢- تحرير المرأة من حيث التخلص من كل ما يدل على التبعية، مثل تغطية الرأس الميراث، الختان، الطلاق، وسن قوانين تحمي المرأة مثل ما يحدث في الغرب أو في دول عربية مثل تونس.

٣- شن حملة من خلال ٤ مقالات عن الرموز الإسلامية، مثل البخاري والأحاديث عموما، صلاح الدين الأيوبي، القدس.

٤- انتهاك الثوابت الوطنية مثل العلاقة مع إسرائيل والتطبيع الكامل ومديح لدور السادات السياسي وهجوم كاسح على حركة حماس، وتشويهها باعتبارها الذراع القوية لحركة الإخوان والذي أرسلت قوة من ٨٠٠ مقاتلا، لمساعدة جماعة الإخوان في اقتحام السجون وتدمير البلد واللعب في الأمن القومي من خلال الإرهاب في سيناء، الوقوف بشكل أبوي مع كل ما يخص الأقباط ونفاق "اعتبره" رخيصا للكنيسة ودورها السياسي والاجتماعي.

كما كتب عدة مقالات عن الإسلام الخطر واستخرج كل آيات الجهاد واعتبرها آيات تحض على العنف، ويجب تعطيلها، بحثت عن أي نقد لدور النظام السياسي في كل هذا الخراب لم أجد ولكن هو متسق مع نفسه، وهذا لا يمنع أن هناك خطوطا لا يختلف عليها أحد مثل حرية المرأة ولكن في النهاية حرية المرأة تخلف المجتمع لن تحل إلا بحرية وديمقراطية، وعدالة اجتماعية، ولكن أن يكتب في مقال طويل في أخر مقال عن لا وقت للديمقراطية مع الإرهاب ويدافع عن الاستبداد وفي نهاية الكتاب كان هناك قصة قصيرة بعنوان " الحائر" وهو يتتبع حياة ولد من الثانية عشرة وهي فترة عودته من ليبيا مع عائلته والقصة الحقيقة تحفة ولولا الترهل لكانت من أهم ١٠٠ قصة قصيرة صدرت في الوطن العربي وفيه يكشف عن واقع القرى القاسي وكيف يمسخون بعنف الروح البريئة فعندما عاد إبراهيم سعيد عبدالعال للقرية واختلط مع العيال في الشارع لم يكن مرحبا به لأنه مختلف عنهم فهو يرتدي بيجامة مخططة وهم يرتدون قمصانا من الدمور أو جلابية قديمة وكان نظيفا أبيض يسرح شعره ولا يسب أحدا ولا يلعب استغماية ولا يراهن أحدا على الذهاب للمشرحة، فقط يجلس على المصطبة ينظر لأقرانه وفي يوم كانت العيال متأثرة

بشكل هستيري بفلم "بدور "بطولة نجلاء فتحي ومحمود ياسين ومجدي وهبة وأرادوا إعادة تمثيل المشاهد المؤثرة في الفيلم، وتوزعت الأدوار على درجة سطوة وقوة العيل والشبه فمنهم من أخذ دور محمود ياسين، وعيل أخذ دور الشرير مجدي وهبة وأخر أخذ دور المعلم رضا وظل دور "بدور" لا أحد يريد أن يمثله، وكلما عرضوا الدور على عيل يقول لا يا عم خلي فلان، الى أن قام إبراهيم فجأة وقال: أنا أقوم بدور "بدور "قالها بابتهاج وفرح الكل سكت وبص له وكأن هناك اتفاق مسبق، تحركوا جماعة وأحاطوه وأخذوا يصفقون على إيقاع واحد "بدور الحلوة أهي" وأخذوا يدورون حوله وهو صامت حاول أن يخترق السياج ولكنه لم يستطع بسبب السياج الصلب، يضرب فيهم بيد ولكن ضرباته لا تؤثر فيهم وعندما زاد الهياج أخذ يبكي، فقلبوا الأغنية الى "هيعيط، هيموت هيقلد الكتكوت"، بتكرار حماسي وقوي الى أن صعب عليه ولد وكان الأقوى والمهيمن على العيال قوي فضرب السياج بيده وقال بصوت حازم: والله انتم عيال ولاد كلب، وإللى يكلمه لأموته من الضرب".

وسحبه من وسط الحلقة وطبطب عليه وأصبحوا بعد ذلك أصدقاء وفي يوم طلب منه أن يذهب معه للغيط، قال له: الدنيا حر، قال: احنا نمشى في الضل، هتركبني الحمار، قال له، طبعا أمال إيه ؟ ونشوي ذرة، فوافق على الذهاب معه، كان الغيط بعيدا ؛ودرجة الحرارة مرتفعة جعلت وجهه أحمر موردا، فكان يضع يده على كتفه وينهمك في حكاية عن مغامراته في البحر وكيف استطاع أن يعبر الى الضفة الأخرى عوما، ثم يقرصه في خده، فكان يشعر بضيق ولكن كان خجلانٍ أن يرفع يده، وعندما ملس بيده على مؤخرته، غضب وقال: والنبي انت بايخ" ورجع، فجري وراءه وقال: معليش ما تزعلش ورحمة خالي رجب ما هي حاصلة تاني، وأخذ يسايس فيه حتى وصل للغيط فدخل حقل الذرة وقال: تعالي، تردد إبراهيم قليلاً ثم دخل وراءه، عيدان الذرة كثيفة وحواف الورق حادة فكانت تجرح في رقبته حتى توقف،

فأخذ يحثه على السير ولكنه رفض فسحبه وقال: الذرة هنا غير ناضج، جوه الكيزان إيه روعة، أخذ يدفعه للأمام ثم بدأ يتحرش به ويضع يده على مؤخرته فكان يبتعد عنه وعندما أصبحا في وسط حقل الذرة رفع الجلابية في مواجهته، وقال له عندك واحد زي ده، كان عضوه منتصبا، قال: والنبي لا أقول لأبوك، حاول أن يمشي فأخذ يتوسل له لكي يمسك عضوه، فرفض ولكنه كان خائفا فمد يده ومسك عضوه فاحتضنه، وأخذ يقبل فيه ويرفعه، وهو يحاول أن يتخلص من قبضته القوية ويصرخ، ولكنه لم يفلت لأنه قوي سيطر عليه وعراه وضاجعه وإبراهيم يبكي وعندما انتهى أخذ يتلاطف معه ويعتذر له ويقول له أوع تقول لحد، وفي المساء كان معظم العيال تعرف في الشارع إن سين خسر إبراهيم، لم يعد يخرج من البيت ويذهب للمدرسة ثم يعود للبيت لا يخرج من البيت حتى عاد للهجرة مع والده مرة ثانية لليبيا وهناك عمل في ورشة نجارة مع الأسطى مكرم وهو قبطي من مصر ولأنه كان لديه ميول فنية برع في النجارة ،فكان المعلم مكرم يطلب منه العمل في الشغل المعقد، وهو كان يستغرق وقتاً طويلاً في العمل حتى يتقن الشيء حتى أصبح يجذب العملاء فكان الزبون يأتي ويقول معلش يا اسطى مكرم خلي إبراهيم يعمل الشغلانة دي، والمعلم مكرم لم يكن داخله ضغينة من إبراهيم، ولكن كان يرتجف من فكرة تركه الورشة، الى أن قامت ثورة ضد العقيد القذافي، وقد بدأت بسلسلة احتجاجات سلمية في بنغازي ولكن لم يأبه، فأبوه سعيد، ولكن أمه كانت عندما تري المشاهد في الأخبار كانت ترتجف وصممت على العودة بأولادها، وأنت عايز تقعد، اقعد بروحك، استجاب في النهاية وقام العميد الذي يعمل عنده في المزرعة بتسهيل الإجراءات، حتى عادوا بالسلامة لأرض الوطن، وقد جمع كل الفلوس المتاحة وأعطاها لزوجته مع فلوس إبراهيم الذي كسبها من الورشة، وهو ظل في ليبيا آملا أن تنتهي هذه الهوجة ويعود القائد العظيم، كان مقتنعا أن الزعيم سيسحقهم كالجرذان، ومع تقدم الوقت بدأ ينزعج لقد أشعل الخونة الحريق في جميع المحافظات ومناطق ليبيا وبدأت قوات سواد ليبيا

كما ينعت قوات فجر ليبيا لتصل لورشفانه وتتقدم نحو الحشان لذلك ذعر من تلك الاحتجاجات خاصة إنها تطورت بسرعة غير عادية وتحولها لثورة مسلحة غايتها إسقاط نظام العقيد كان الأب ناقما على الثورة الليبية ويراهم شوية مجرمين خونة عملاء لدولة إسرائيل، وكان يتساءل بينه وبين نفسه، ماذا يريد المواطن الليبي أكثر من ذلك، أحسن طعام وأرخص الأسعار الدجاجة بدينار، والعيش بملاليم والجبن الشيدر والرومي، الخضار، الفاكهة ببلاش، يعني مدلع الشعب أخر دلع، عايز عربية بتروح تسحب عربية وتسدد أقساطها، كانت أيام غاية في السوء ولكنه قرر أن يجازف ويظل في ليبيا مهما حدث هو في النهاية يعتبر ليبيا بلدة الحقيقي الذي نعم فيها بالسكن المريح والطعام الجيد والأجهزة المنزلية، ثلاجة وبوتاجاز وتليفزيون ٢٠ بوصه وطبق عليه ثلاث أقمار وفيديو وغسالة فول أوتوماتيك، ومال في البنك يقيه شر تقلب الزمان من مرض، وغيره وراحة، يعني أنا شغلتي إيه في المزرعة غير ضغط على زر الماكينة تشتغل، أضغط مرة ثانية على زر الماكينة، وكل أسبوع أذهب لتعبئة براميل البترول من البنزينة، ولو حصل عطل في الماكينة اتصل بالمهندس، يعني شغلانة يعملها عيل صغير، نام في نكد وصحي في نكد وعندما اشتد الضرب واقترب الثوار كيلو من المنطقة التي يسكنها كانت تظلم الدنيا في عينيه ،ولكن لأنه كان يعمل في مزرعة عميد في الجيش الليبي ومن قبيلة كبيرة أيضا، وهم مدججون بالسلاح، ولا يمكن لأي قوة أن تقترب من أرضهم، وعندما اشتد الضرب اتصل بالعميد ولكنه لم يرد عليه، أتصل بوالده لم يرد عليه، أخذ يمر على الإخوة المصريين والسودانيين وباقي المهاجرين واتفق مع مجموعة من المصريين على الهرب الى الجبل، هربا من الحرب بين جيش القبائل وفجر ليبيا على أمل استقرار الأوضاع، ولكن لم يحدث تغيير بل زادت الحياة صعوبة ، فقرر الهرب للزاوية حيث تجمع كبير للمصريين هناك وعندها تحزم بالمال الذي جمعه طوال بقائه هناك وسار بالليل من خلال طريق تحاشى فيه كلا الفريقين ،وبعد مرور ساعات في طرق جبلية، تم القبض عليهم من مجموعة من الأطفال

المسلحين الذين انتشروا في ليبيا بعد انهيار نظام العقيد، بشكل رهيب، من سرقة وقتل، دون وجود رادع، وعندما عرفوا إنهم مصريين ترفقوا بحالهم وطلبوا كل من معه فلوس فليخرجها وإلا القتل، الكل أخرج الفلوس إلا هو وقال: ما معي، أنا راجل مسكين، لسه جاي ليبيا ولم أقبض أجري، وكاد أن يفلت لولا واحد منهم قرر أن يفتشه، أخلع ملابسك، هكذا كان أمرا، لم يجد بدا من خلع ملابسه وهو محاط بمسلحين بالبنادق الآلية، خلع الجلابية والصيديري وعندما ر فض تقدم واحد وضربه على ذراعه بقوة كسرت الذراع ،فبكى في هذا اللحظة تمنى أن يكون ذراعه فديه لمرور الفلوس ولكن أبدا تقدم أخر وأخذ يمزق في الفانلة ،فوجدوا الفلوس فشد واحد منهم الأجزاء لقتله ولكن تدخل واحد منهم وقال: أترك هالكلب! وتركوا القافلة تمر، تخلى البعض عن قطعة من ملابسه وناولها لسعيد، وسار بجوارهم مكسور الروح والذراع، ويئن كلما حرك ذراعه، يئن، كان الألم شديدا وبعد عذاب وصلوا مدينة الزاوية وهناك تم تجبيس يده على يد طبيب، وكل من عرف بحالهم كان يساعد حتى توفر لهم مبلغ من المال دفعوه لليبي، لكي يخرجهم من المطار وقد حدث وعادوا لمصر.

(١٠)

التحق "إبراهيم" بورشة للنجارة في البلدة ،كصبي بأجر ضعيف وكما فعل مع الأسطى مكرم قبل ذلك كان يعمل ببطء ودقة وذلك لم يعجب صاحب الورشة، فكان يريد منه إنجاز عمل سريع، خاصة أن الطلبية المتفق عليها كان تختا مدرسية، لذلك كان ينهره صاحب الورشة وأطلق عليه بطيء بطين، والوصف كان اختصار لإبراهيم فهو يأكل ببطء ويتحرك ببطء ،صحته الجيدة وجسمه القوي، حتى تم طرده من الورشة، فظل بلا عمل فترة وكان يقضي معظم وقته في البيت وفي العصرية يذهب لمشاهدة مباراة كرة القدم في مركز الشباب، وهو يرتدي كل يوم "ترنج" مختلفا ،وكان يحلق لحيته ويسرح شعره فيبدو وسيما وفي يوم لم يجد أحدا في الملعب إلا شلة محدودة فقرر أن يعود ولكن وجد شابا يناديه، التفت ثم وقف في مكانه، تحرك الشباب نحوه وسلموا عليه، وقال شاب منهم لماذا لا تختلط بنا، لماذا تظل تقف وحيدا كده قال: أبدا مفيش، قال شاب زميل هو كده إبراهيم طول عمرة منسون، تضرج وجه بالدم وقال: احترم نفسك، فقال: أقسم بالله أنت ما لك في النسوان، والكل عارف كده، أنت ناسي سين كان بيعمل فيك إيه؟ تعرق وأخرج منديلا وأخذ يمسح وجهه، الذي يتكلم كان من عائلة كبيرة في البلد وهو يعرف ذلك، لذلك كظم غيظه، وقال: عن إذنكم، رد وأحد منهم، أنا مش قلت لكم، ده مخصي، رد أخر ياعم احنا رجالة، أقبل التحدي قال له: إزاي، قال أخرج عضوك.

توتر أشد التوتر وقال: معلش أنا مش هقدر، قال: أخر بصوت عالي مزيج ما بين الحقد والبهجة المفتعلة، يا أخي اعتبرني مرة شرموطة وهتركبها، يله يا عم، كاد أن يبكي أنا مش عارف أنتم بتتكلموا كده ليه؟ قال أصل فيه رهان على مبلغ كبير، لو أنت نجحت في استخدام العادة السرية، أنا هفوز لو لم تعرف فلان هيفوز، رد أخر أقسم بالله ما هيعرف، أنا عارف أصله مخصي، روح يا عم . لم يجد مفرا ففكرة وسمه بالمخصي، أو المنسون وإشاعتها في

البلدة سيدمر حياته، وستتحول حياته لجحيم، وسيكون عرضة للتحرش، والعنف اللفظي والمعنوي ولن تقبل به بنت في البلدة، أخرج عضوه وأخذ يلعب فيه وهم يلتفون حوله على هيئه قوس حتى قذف، فمسح يده وعضوه بالتراب وتركهم والتف فقام واحد منهم وغرس صباعة في مؤخرته وقال: ولو برضو.. شاذ، فاستدار وبكل الغضب والغيظ وضربة بيده فأسقطه على الأرض وأخذ يضرب فيه ويشيل فيه ويرميه على الأرض حتى عدمه العافية، دون أن بقوم أي شاب من الواقفين بفض الاشتباك، أو ينحاز لطرف من الأطراف كانوا يبتسمون مبتهجين وكأنهم يشاهدون مباراة لكرة القدم، وعندما استسلم ولم يعد يدافع عن نفسه، تركه إبراهيم وعاد للبيت، في المساء وجد سعيد غفيرا يدق الباب ويطلب منه الحضور فورا لدوار العمدة، ذعر فهو إنسان مسالم لم يذهب أبدا لا لعمدة ولا النقطة ولا المركز ويسمع شتمته بإذنه ولا يرد، حاول معرفة السبب من الغفير ولكن الغفير قال أنه لا يعرف أي شيء، فارتدى الجلابية وذهب لدوار فوجد كبار رجالة عائلة السعدي وهم أكبر عائلة في البلدة ولهم شبكة علاقات مع السلطة وعمدة البلد دائما منهم، أخذ يسلم عليهم وهو يرتجف ووجه ممتقع، ثم جلس في مكان وجده فارغ، قال العمدة: إنت لك عيل اسمه إبراهيم يا سعيد؟ قال:

أيوه يا حضرة العمدة، قال: ابنك ما قلقش حاجة، قال: أبدا حاجة زي أيه ؟ قال:

أبنك اعتدى بالضرب هو وتلات عيال معاه على ابن الحاج عبد الغفار، قرفص على الكنبة، وضرب على صدره، ابني أنا، إزاي، قال له، ربي ابنك يا سعيد إنت راجل غلبان والعيال كانوا رايحين يؤدبوا ابنك لكن أنا قلت لا سعيد يربي ابنه، ابعت لابنك وعلمه الأدب، قال: حاضر، تم إرسال غفير لإحضار الولد وبعد مدة دخل الولد فاستقبله أبوه وقال في وسط الجمع: أنا أسف بالنيابة عن ابني إبراهيم وأخذ يضرب فيه بالكفوف على وجه، ثم استدار واعتذر للحضور ومشي، في الطريق قال إبراهيم، أنا هسيب البلد مش هقعد في البلد دي تاني، لم يسمعه أبوه لأنه كان سارحا في مكان أخر، لماذا فعلت ذلك؟ كانت أيدي أتقطعت قبل ما

أضربك، أنا كنت مرتب أني أقول له اعتذر لهم وأشتمه شويه وخلاص إيه اللي خلاني أضربه وسط الناس كده؟ ارتبك ولم يكن يعرف كيف يداوي هذه الغلطة، هو لم يضرب ابنه مره قبل ذلك، وعندما عاد للبيت عرفت أمه بالذي حدث فأخذت تزعق فيه، وهو لم يرد عكس طبيعته، فهو لا يقبل أبدا أن ترفع امرأته صوتها عليه، بل كان يدور عقله في مكان أخر في حياته التعسة، شريط سينمائي يمر أمام عينية لا يذكر فيها أي فرحة، دائما يسقط في برك من الوسخ والنيلة بشكل قدري، لا حيلة له، هل كان يعرف أن مصيره وهو شاب وهو الذي يمتلك قوة بدنية وثقة ووسامة سيتعثر بهذا الشكل، لا يعرف ما الوقت بالضبط الذي ارتبك فيه واهتزت ثقته في نفسه، هل عندما دخل الجيش وأصبح أسيرا وقوانين عنيفة ولا مجال فيه لا للرجولة ولا للجدعنة، حيث ضرب ضابط صف حتى كاد أن يقتله بسبب نصرته لبلدياته والكارثة هو شهادة بلدياته عليه لصالح صف الضابط مما أدى لدخوله السجن لأول مرة، ودخل الحر الغرفة السوداء حيث قوانين أخرى لا يفهمها، حيث ظل طوال فترة سجنه في شجار يضرب ويضرب، لم يكن ينام، لم يكن يصدق أبدا أن هناك بشر بهذا التوحش والعنف، ظل هكذا أكثر من واحد وعشرين يوما، حتى تعرف على صول جديد على الكتيبة من بلدة مجاورة، أثناء الخروج الصباحي حيث يقوم المساجين بأعمال في الكتيبة مثل الكنس ومسح الحمامات وغيرها من الأعمال الذي يأمر بها القائد، توسط له الصول حتى تم إخراجه من السجن ووضع المدة في الشهادة واستلمها جيد بدلا من ممتاز، بعدها لم يعد يتدخل في خناقات أو يستخدم القوة البدنية وذلك كان أكثر تحطيماً له، لأنه كان كثيرا جدا ما يتعرض لاستفزاز ويريد أن ينهي المهمة باليد كما تعود طوال حياته، ولكن هنا يعرف النتيجة، خاصة أنه فلاح وسيظل في هذا القبة المعدنية ثلاث سنوات ولو" فقد مدة" تبقى مصيبة سوداء، انزوى وكان يريد أن يختفى، يتلاشى، حتى تنتهي مدته، ووثق صداقته مع الصول، ورغم هذه الصداقة ورغبة الصول في مساعدته ولكن لم يكن قادرا على مساعدته في الأجازة بسبب قلة العساكر في

المعسكر حيث كان بعيدا عن القاهرة، كان يتفجر بالطاقة وعندما كان ينزل أجازة كان يجد المشاكل في انتظاره حيث زوجته عنيدة وأسرته أكثر عندا وكان كل واحد منهم يريد أن يفرض إرادته بالتعنت والجبر ولذلك كانت تنتهى الأجازة دون أن يقضيها معها فكان يعود محملا بالحقد والكراهية والإحساس الطاغي بالظلم، حتى فكر في اقامة علاقة جنسية واختار قريبة من زوجته كان على علاقة بها قبل الزواج ولكنها رفضت وذهبت لزوجته وأخبرتها وأبلغت حماتها بالموضوع، فذهبت حماتها إليه في البيت، وأخذت تلطم على وجهها، عايز توسخنا يا حسن، عايز توسخ عمة الرجالة، وأنا اللي كنت حطاك في معزوة ابني ، خرجت الوالدة من غرفتها وعندما عرفت بالحكاية، ضربت ابنها بالقلم على وجهه وقال: يا حقير يا سافل، وطيبت خاطرها. كان يعود كل أجازة يائساً ولولا طَبْطبة الصول ودفعه للصلاة والحديث معه بحديث السلف الصالح وقصص ابتلاء الصابرين لكان انتحر، ويظل في المعسكر فترة طويلة مكتئبا حتى يطيب جراحة، يظل ما بين ٤٥ يوم الى ثلاثة أشهر ويعود مغسولا من الكراهية والحقد، محبا لكل البشر، محب حتى لأعدائه يقرر بينه وبين نفسه أن يميل مع الريح ويتجاوز كل المشاكل، ويظل يجهز داخله الكلمات التي يريد أن يقولها لزوجته سواء كانت هيامه بها ويطعم كلامه بمقاطع من أغاني أم كلثوم وعبدالحليم وصباح وغيرها من الأغاني وهو العاشق الجسور والوسيم الذي أوقع عشرات النساء والفتيات في غرامه، وكل مرة يجرب كل الطرق، كل الحيل حتى تستجيب زوجته لكلامه ولكن لا فائدة ،فهي كانت صلبة بشكل غريب في مواجهته، فما تريد أن تقوم به تفعله بدون أي اهتمام بالعواقب والتي لم تكن سهلة أو بسيطة فقد يكسر لها ضلعا، أو ذراعا، أو يضربها ضربا مبرحا، ورغم ذلك تنسي ذلك وتقوم بنفس التصرفات، رغم كونها تحبه، ولكن هكذا هي شخصية معقدة متمركزة حول ذاتها ولا تحفل بأحد، داخل الأسرة سوى أولادها التي كانت ضعيفة أمامهم، فلم تضرب أولادها أبدا، وتحتمل منهم أي شيء، وعندما أنهى مدة التجنيد، قرر الذهاب للسعودية، وظل هناك تسعة

أشهر وعاد نهائيا وعاد بمبلغ بسيط، وظلت زوجته في غيبة أكثر من سته أشهر في بيت أبيها غضبانة وعندما ذهب لإحضارها طلب الأب منه مبلغاً كبيرا من المال، كتعويض مصاريف أثناء غيابه، وقد وافق ودفع المبلغ وعادت زوجته ولكن كان يحس بالقهر، لذلك ضربها ضرباً مبرحاً، ثم صالحها وطيب خاطرها، وظل سنوات على هذا الحال، حتى قرر أن يذهب لليبيا، وظل هناك سنة وعندما عاد قرر أن يأخذ زوجته معه كي يتجنب مزيدا من المشاكل كما أن حالته هناك أصبحت مستقرة، ذهبت معه لليبيا ولم تكن هناك مشاكل إلا هذا الهوس بالشراء سواء اللحوم والخضروات والفاكهة، أو شراء الملابس، كانت تستهلك معظم الأجر ولكن لم يكن مهتماً فهو في النهاية يحب الطعام ويسعد بكونها جميلة وترتدي ملابس غالية الثمن ولكن عندما عاد مع الثورة وضاعت فلوسه شعر بكونه حمار فلو كان يفهم وله عقل لحول كل الفلوس الذي يكسبها الى القاهرة واشترى بها أرضا. كانت نفعته في هذا الوقت، ولكن صحته ضاعت وعمره فات ومطلوب منه أن يبدأ من جديد طبعاً كان من الممكن أن يكون أجره من العمل في المزارع كعامل أجري مع عمل ابنه ،ولكن ها هو ابنه بلا عمل في البيت ولدية أربعة أبناء ولا واحد فيهم قادرا على العمل كما أنهم في المدارس المختلفة، وخروجهم تدمير لحلمه القديم بتعليم أولاده تعليما عاليا، حتى لا يصبحوا مثله قليلى الحيلة.

ظل طوال الليل عينه لا تغفل وتدور بقوة، تدور، تدور، ثم تعود لتدور، وكل لحظة يتهم أحدا ويريد الانتقام منه، وعندما قامت زوجته لتدخل الحمام وجدته يجلس في المدخل واعقاب السجائر متناثرة ذعرت ثم حاولت أن تستفهم منه عما جري، ولكنه لم يرد أن يخبرها، أخذت تتوسل له، حتى دخل وفي الصباح ذهبت لبيت أبيه وقالت له عما جري، خاصة أنه يرفض الذهاب للعمل أيضاًن ارتدت والدته الجلابية السوداء، وذهبت لبيت ابنها لتعرف ما جري، عندما رأته ضربت على صدرها، مالك، حاول أن يبتسم ولكنه لم يستطع،

أبدا تعبان شوية، جسمي مهدل لكن كويس، ـ كويس إزاي هو أنا معرفكش يا بن بطني، مين اللي مزعلك يا خويا.

أخذت تلح عليه لكي يأكل وتتوسل حتى أكل بضع لقيمات بطعمية، ثم قام ودخل غرفة النوم ورقد وسحب عليه اللحاف، كانت عيناه تلمعان وخائفا خائفا من آلاف الأشياء ،جلست جواره ترقيه من الحساد وتملس على جسمه، أخذ يتثاءب، فعرفت أنه محسود فأرسلت واشترت بخورا وشبة وبخرته، حتى استسلم للنوم واستغرق فيه وأخذ يشخر، نزلت الأم من على السرير، وذهبت للزوجة التي كانت تغسل المواعين وأخذت تحقق معها عن سبب الزعل، حكت لها عن كل شيء منذ عودتهم من ليبيا وضربة للواد قدام العمدة، لحد ما أنتِ شايفه. ثم أشارت لها نظرت وجدته واقفا على الباب وجهه أسود وعينيه حمراء وتائه، قامت وقالت له: اقعد يا حبيبي .. تعال.

قال لها: أنا مرتاح كده . ثم جلس، فيك إيه يا ضنايا ؟ثم انفجرت في البكاء، بقى ده حسن الحليوة اللي لما يلبس الجلابية والقفطان ويمشي يقول للأرض اتهدي ما عليكي قدي، قال: أنا ما أنا كويس أهو ياما، هما شوية زعل وبكرة يروحوا لحالهم، قومي يا بت اعملي أكل عشان أمي تتغدى معانا. ثم نام على حجر أمه وظل فترة ثم استغرق في النوم، وعندما جهزت الزوجة الطعام، وقالت لحماتها تأكل ولكن لم تستطع وضع لقمة في فمها، بل كان سيل من الدموع ينزل منها، سحبت الجلابية ومسحت دموعها، وعندما تحركت، قام: فيه إيه؟ ولا حاجة قالت الزوجة، أمك مش عايزه تاكل. قال:

ليه كده يا أمي، قالت:أنا هاكل بس تاكل معايا، تقدم وقطع لقمة ووضعها في فمه، ثم نسي وظلت اللقمة داخل فمه، نظرا إليه فتنبه وأخرج اللقمة من فمه ووضعها على الطبلية قام دخل الغرفة ونام مرة ثانية، ثم دخل الأب وحكى له ماجري، أخرج ورقة الدخان ولف سيجارة

وظلا صامتين ثم قال: خايف يكون المرض اللي جه لابن عمي السيد اللي صابه المرض في عقله ،وفضلنا نجري بيه هنا وهناك، نفخت الأم وقالت: بعد الشر، السيد كان بيهيج زي الثور ويضرب اللي يقابله، هما شوية الزعل، ربنا ينكد عليهم البعدا، هو أكيد حد ساحر له، وفعلا مع أذان العصر أخذت حسن وذهبت به لشيخ في قرية أتريس له قوة جبارة في أإبطال السحر ،وقلبه على الفاعل وفعلاً اكتشف أنه معمول له عمل وموضوع في مقبرة نصراني، وأخذ يقرأ له القرآن وعمل له حجاب وعدة وصفات وعلاجات وعندما عاد كان واهناً بشكل مزرٍ، وعندما استحم بالوصفة ودلك جسمه بالزيت، شعر بانتعاش وطلب الأكل، فرح الجميع وشكروا الله ،وعاد الأب والأم للبيت وفي منتصف الليل قام من النوم وقال: أبويا ظلمني! الزوجة قالت:

قلت لك، وأنت طول عمرك ماشي بدماغك، أهو، أنا مش عارف أعمل أيه، ثم ترك البيت بعد أن نبتت في ذهنه فكرة صمم عليها، وهي أن يحصل على ميراثه الشرعي، خبط على باب بيت أبيه، وعندما خرجت أمه قال: أبويا ظلمني يا أمه، قالت وسوست لك، وسوست لك الحية، قال:

دي مراتي يا أمي، خرج الأب منزعجا، وجهه ممتقعٍ ،إنت عايز أيه يا وله، قال:

أنا عايز حقي، قال له:

حق أيه يا أبو شخة، أنا عايز حقي في الميراث، ميراث إيه؟ ياد أنت مخبول، عايز تورثني وأنا حي، صمت وكأنه تذكر أن أباه حي، فانسحب وسار عائدا يفكر في ما قال، وأحس بالخجل، دخل البيت وجلس على الباب يدخن، عندما شمت الزوجة رائحة الدخان، فتحت الباب وقالت: قاعد بره ليه؟ عملت أيه مع أبوك؟ قال: ولا حاجة وأخذ يضحك ثم دخل وأحضر راديو التسجيل وشغل "يوسف شتا"، وكلما جاء تعريض بالمرأة في أي وضع يقول: آه والله، معاك حق يا شيخ شرميط، بدت هادئة عكس طبيعتها وقالت: وماله يا خوي شراميط

شراميط الله يسامحك، قال: يسامحني هو اللي عملتيه في شوية إنت دمرتني، أهرب من نصيبي فين، وشق الجلابية، فقالت يا حزني يا حزني، دخلت أيقظت إبراهيم من النوم فجري ناحية أبيه ،وهو مش مركز فقابله بالقلة في رأسه : إنت جاي تضربني، صوتت أمه، الواد مات، وأخذت تلطم على وجهها، الدم نزل من على رأسه على وجهه، وسقط على الأرض، ثم قام وذهب للحمام غسل رأسه ودخل غرفته مرة ثانية، كان الفجر قد أذن، فذهبت الزوجة وأحضرت الأب والأم: شوفوا لكم صرفة، هيموت العيال، وهو كان يزوم ويهز رأسه، لم يجد الأب حيلة سوى الذهاب لبيت ابن عمه لإحضار روشتة الدكتور نزيه لمعرفة العنوان، وعندما عاد قالت الأم روح أنت الغيط وأنا هروح معه أنا وإبراهيم وأخوه هنداوي، هتقضوا عليه، قالت: سيبها لله، العربية وصلت وفضلوا يتوسلوا له، وهو يقول أنا سليم مفيش أي حاجة، أمه شوية وأخوه لحد ما استجاب وركب العربية، وعندما وصلا للعيادة كان الدكتور غير موجود، ولم يكن هناك سوى مريضات، وعندما دخل الدكتور وكان ضخما ويرتدي جاكتا وشعره أبيض ووجهه مقلبظ، قال: يانهار أسود هو ده الدكتور، أنا مش كاشف، بقى البغل ده هيعرف يكشف ولا ينيل، أنا ماشي، قام فتشبثت به أمه وقالت: للموظف الذي يحصل الكشف دخله بسرعة الله يغيتك، عندما جاء الدور ودخل ونظر الدكتور لعينه شعر أنه اقتحمه وعرف ما بداخله

ـ مالك يا حسن؟

معرفش يا دكتور تعبان، واستغرب إبراهيم لأنه المرة الأولى الذي يعترف بكونه تعبان ، أخذ إبراهيم يشرح حالة أبيه ،وما جرى له، نام على الشيزلونج، وأخذ يكشف عليه ويضرب على ركبته بالعصا، ثم كتب الروشتة، فيها أدوية " انفرا نيل"، "تريبتزول"، و"أركاليون ٢٠٠ "

قرر له جلسة كهربائية على المخ، دخل، وعندما بدأت الجلسة ،كان يسمع هدير الجهاز ثم زومات وتكتكات، جعلته يبكي، وعندما أخرجوه كان منهكا تائها، وينظر نظرات عشوائية، نزل يستند عليهم حتى خرج من العمارة وركبا السيارة ولحظة أن ركب السيارة ظل نائما حتى وصوله، وعندما فتح باب السيارة ،ابتسم لأول مرة منذ مدة طويلة، كانت البيت محتشدا بالأحباب الأقارب والجيران والأصدقاء، ثم بعد أن اطمئنوا عليه غادروا المنزل ،وقد أحضرت أخته الطعام فأكل وأخذ الدواء، ونام وهو جالس وفي يده الكوب، سحبت الزوجة من يده الكوب وأحضرت مخدة وتم إراحته عليها وتمديده، ظل نائما حتى العشاء، ثم أخذ الدواء ونام وظل أسبوعا كذلك، حتى انتعش وعاد ذهنه يقظا، ومرحا وكأنه لم يسقط في هذا البئر الأسود الذي حطمه، عاد للعمل مرة ثانية ويمارس حياته بشكل طبيعي وفي يوم تأخر الرجل الذي يعملون تبعه عن دفع أجرته بسبب غيبة سيادة العميد في المصيف، فضربه ضربا مبرحاً وتم كتابة بلاغ للعمدة، وتم استدعاؤه من خلال الغفير، سلم وظل طوال الوقت يبرر الموقف وأنه السبب لأنه يتعنت معه، والعمدة يقول له:

ولكن أنت ضربته، كان العمدة يعرف الظروف النفسية التي يمر بها فأخذ يطيب خاطر الرجل حتى تصالح معه، وبعدها لم يعد أحد يطلبه في أي عمل، فكان يقضي يومه في البيت أو على المصطبة وكان إبراهيم قد بدأ يأتي له أشغال بسيطة، تصليح أبواب، تركيب كالون، عمل وتد لجاموسة، بدأت الناس تطلبه وهو نشط، وذكي، وطيب، لم يكن يحصل على أموال كثيرة ولكن كان يصرف على البيت، ولولا الدخان وعلاج أبيه المكلف كان استطاع توفير مال كافٍ ليعيش بشكل جيد ويبني بيتا ويتزوج ولكن كل الكد يذهب في بلاعة، الذي كان يؤرق إبراهيم هو اختلاط المبالغ فيه مع ناس كتير وزيارات الأقارب في بلدان مجاورة ويدخل في صدامات، أو يصبح ضيفا غير مرحب به، أو يدخل نفسه في مواضيع لا تخصه بالمرة وعندما مرض أبوه بسرطان الحنجرة، أظهر شهامة لم تكن غريبة، عليه فهو في حالته الطبيعية كان مثالاً للنبل

والحساسية والذكاء، كان يدور بالأب على المستشفيات، ويسهر معه ويعطيه العلاج، وظل معه حتى انتقل الى الرفيق الأعلى ،وظل حتى أخذ العزاء وبعدها سقط في جب أسود يتخبط، ويمارس عنف ضد أولاده بشكل هستيري. الغريب أنه بدأ يتسامح مع زوجته، التي كان يراها مصدرا للشرور، في يوم دخل على إبراهيم في الغرفة حيث ينام وكان متعبا بشكل رهيب فلم يستطع أن يقوم ورد عليه وهو نائم فثار ثورة عارمة وقذفه بالقلة الفخار، ثم بعد ذلك أخذ يسأله بتحاسب على الشباك والباب بكام؟ استغرب ابنه وقال: زي الناس؟ ــ يعني إيه زي الناس.. قول لي كل الناس بتقول إنك بتحاسب بملاليم مش صحيح الكلام ده؟

ــ وكمان بتكدبني يا ابن الكلاب يا وسخ . ونزل ضرب ومرمطة وزوجته صوتت وفضيحة بين الجيران وعادت أمه مرة ثانية رغم معاناتها وعذاباتها طوال عمرها ،ورغبتها في قضاء باقي أيامها في هدوء وسكينة، ولكن كانت تعرف أن الغم يتبعها أينما سارت، عندما نظرت في عينيه تأكدت أنه وقع في الفخ، فأخذت تتوسل له وتطبطب عليه حتى وافق أن يذهب للطبيب، عاد الدكتور وكتب له نفس الروشتة القديمة مع إضافة علبتين، وخمس جلسات كهرباء، وبعد أن دخل للتحضير لجلسة كهرباء، قال الدكتور للأم: خلي بالك إن لم يلتزم بالعلاج لفترة طويلة هيحصل له مشاكل كتيرة جدا وزوجته لو مش أصيلة هتلعب بيه الكورة، قالت: إزاي يا دكتور.. وضح لي هيحصل له إيه؟ قال: من غير توضيح زي ما بقول لك، يلتزم بالعلاج في مواعيده، فاهمة قالت حاضر. ظلت الأم تذهب وتعود معه حتى بدأ يتعافى ،فرمى العلاج، كانت مشكلته أنه كان يشعر بالعار من المرض، وأن فكرة قبوله بكونه مجنون في العرف العام، كانت بالنسبة له شيء فوق احتماله، فوق تصوره عن نفسه، فقد كان حاد الذكاء.

عندما تصور أنه شُفِي ولن تحدث انتكاسة مرة ثانية بدأ يطالب بحقه في الميراث، وبدا متمركزا حول ذاته ويريد كل شيء ويترك الفتات، أخوته كانوا مسالمين ولكن كان هناك

حدود للتنازلات، وهم لم يكونوا يريدون أن يكون بينهم وبينه احتكاك أو جوار فقد نالوا منه الكثير ويعرفون مدى جشعه، ولكنه كان يريد أن يضع في كل مكان مسمار جحا، حتى البيت الضيق والذي لا يتجاوز تسعين مترا كان يريد أن يحصل فيه على غرفة ؛وبرر ذلك بكونه يريد أن ينام فيه عندما توجد خلافات مع زوجته/ كان يستهلكهم ليل نهار، ويحضر أقارب وغرباء محاولا الحل ولكن دون فائدة، ثم بدأ يطلب ميراثا إضافيا لابنه إبراهيم أيضا وكانت كارثة الكوارث، واستند على أقوال ناس أشرار يوسوسون له، كان لديه طاقة رهيبة، وكل يوم اقتراح وكل يوم مناهدة ولا يتعب والكل كان يعرف أن نهاية هذا التوحش، انتكاسة مرة ثالثة أو رابعة، وفي يوم انفردت أمه بأولادها دون إبراهيم وعرضت عليهم أمرا أن يوافقوا على التقسيم كما يريد ،وهي ستعوض خسارتهم بكتابة ميراثها من أبيها لهم هم وتستثني إبراهيم من الميراث ،وقد وافقا على الميراث وعرفا بعد ذلك أن الأم توصلت لهذا الاقتراح بعد أن رأت الشر في عين ابنها ضد أخويه، وقد أبلغت الزوجة بنيته في قتلهما بالمطواة قرن غزال الذي كان ينظفها أمس ويسنها، بعد توزيع الميراث تنازل الأخوين أيضا عن نصيبهما من الجمل وقد كان شراكة بينهم، حدثت له انتكاسة ولم يجد حوله سوى أمه التي كانت تذهب به وقامت بعمل علاج على نفقة الدولة، وهذه الأمور البيروقراطية أنهكتها لأنها كانت تسافر يوميا لإنهاء الأوراق وعمل أشعة وتحاليل حتى بدأ يفيق ويمارس حياته الطبيعة ولكن في يوم قرر أن يسافر لليبيا ،الأم تبكي والأولاد ،وهو حاولوا بكل طريقة ولكنه حجز بالفعل للسفر "سلكاوي" من خلال عمليات التهريب وفي يوم حمل حقيبة وسافر ولم يعد أحد يعرف عنه شيء، ظل غائبا تسعة أشهر، لا أحد رآه من المصريين هناك، ولم يرسل خطابا، أو يتصل بالتليفون، حتى فقدوا الأمل نهائيا، ثم دخل عليهم في منتصف ليل شهر يونيو، عاد ولم يكن معه سوى مبلغ متواضع وبدأ عليه علامات المرض ولكنه كان مسالماً لا يؤذي أحدا فقط صامت، يجلس يستعيد حياته، ثم يحلم بفرصة تغير حياتها، سيل متدفق لا يعرف كيف يوقفه، سيل عشوائي،

ينتقل من موضوع لموضوع حتى أنه كان يستغرب من هذه الذاكرة اللعينة، كيف تجمع كل هذه الأحداث والذكريات، والأحلام المتكررة، والأفكار الشريرة، التي يرغب بتحقيقها ضد كل من ظلمه في هذه الدنيا، المشكلة الأعظم سوداوية في حياتها، هو هذا الخوف الجنوني، هو هذا الخوف الذي يزحف عليه، يجتاحه، يخاف من الطبيب، من أمه، من أخويه، من الشارع، من ابنه، على ابنه، على أمه، من الجيران والأصدقاء، كان الخوف يفتك به، يدمره من الداخل، سرطان ينهش فيه، وكل يوم يقرر أن يتغلب على الخوف، وفكرة قتل أخويه كانت ضمن رغبته في مقاومة الخوف واستعادة السيطرة" .من هؤلاء الذي ارتجف منهم ومن مؤامرتهم الخسيسة ضدي، أنا من عملت هؤلاء الكلاب، أضعت شبابي "

ثم يتذكر فجأة جيرانه الأوغاد، الذي جرسوه في كل مكان لأنه أخرج الطبنجة الجديدة الذي اشتراها وأطلق عدة أعيرة في الفضاء وهو داخل البيت غير المسقوف، الجيران روعوا والنساء أخذت تصرخ وتصوت، ولكن لم يكن يريد تهديدهم، فقط يريد أن يفرح بهم، أبيه جاء وأخذ يضرب فيه أمامهم، طول عمري أبي ظالمني وصغرني قدام اللي يسوي واللي ميسواش، كان يحرك شفاه وملامح وجهه تتلوى وتتغير ويظهر عليه السعادة، أو الغضب، أو اليأس، وعندما ينظر إليه إبراهيم ويحاول أن يخرجه من سيل التذكر، فيرد عليه: يا عم أنت مالك ومالي، ما تسبني في حالي يا عم أنت، روح صلح لك كرسي ولا باب، أنت أيش عرفك أنت. ثم ينتقل لليبيا، ويتذكر عندما عاد من ليبيا وكان في سفر للقاهرة يجدد جواز السفر ووجد معاملة سيئة في المواصلات العامة لدرجة أنه وقف في الاتوبيس وقال: والله البلد دي حرام فيها العيشة، أنا عايش في بلد غير بلدي والناس في غاية الاحترام وبيقدروني كمصري، وعمر ما أحد داس على طرفي أو قل بقيمتي وأحنا هنا الواحد يتعامل معاملة الكلاب، على الطلاق بالثلاثة دي أخر زيارة لي للبلد الوسخة دي، ونزل في أقرب محطة وأكمل مشواره بتاكسي .

أخذ يلعن الكلاب الذين دمروا ليبيا، ثم تذكر القذافي وبصق في الهواء فنزلت الريالة على صدره، وفاتح لي صدره، وزنقة .. زنقة وبيت بيت، كان في مخيلته يرسم الخطط الجهنمية للتصدي والخلاص من الأوباش، ودائما الخطط تنجح ويراهم معلقين على أعواد المشانق، تتأرجح ،ينخرها الدود والريح والرمال فتبدو كائنات موحشة، مخيفة، تقف على رؤوسهم الطيور الجارحة، الصور تتري أمامه فيصاب بالهلع والرعب، يقوم ويغلق عليه الباب، يجلس في ركن بجوار الجدار، يحاول بكل قوة أن يبعد الصور عن ذاكرته المتعبة، يفرك في رأسه ووجهه لكي يمسحها؛ يجلطها، ولكن دون جدوي، فالطيور السوداء الجارحة تصرخ بأصوات قبيحة، يقوم ويدور في الحجرة لا يعرف ماذا يفعل، هل يخرج من الحجرة، لكي يواجه الأفاعي والحيات الذين يتأمرون عليه، الذين يحاصرونه، فتح الباب وخرج متعرقاٍ ذاهلاٍ، ينظر هنا وهناك لم يجد أحدا. دخل غرفة الجلوس وجد زوجته نائمة وحدها بملابس خفيفة، فأخذ يضرب فيها بجنون حتى كاد يقتلها، ولولا انفلاتها منه وجريها الى الشارع لكانت في عداد الأموات، وعندما ذهب لإحضارها رفضت وعندما ضغط عليها أبوها أخذت تصرخ وتلطم على وجهها، حتى رضخ الأب لها وعاد الزوج بدونها، تسرب الأولاد الثلاثة بعد ذلك ولم يعد معه في البيت إلا إبراهيم، ثم جاءت أمه لتعيش معه، وفي اليوم الأول ظلت طوال الليل تنام وتصحو تتوسل له لكي يذهب الى الطبيب وهو يرفض ثم أخذ يشد في شعره "أنا مش هاروح للدكتور الجزار ده" قالت خلاص بيقولوا فيه دكتور في أشمون كويس تروح، قال:

أه أروح، في الصباح ذهب إبراهيم وأمه معه لأشمون وسار الأمر طبيعيا حتى ركبا المعدية وعندما سارت شعر بذعر رهيب وراء الأمواج سوداء تتدفق وتضرب في المعدية فتؤرجحها بقوة حتى تكاد تقلبها، جرى وأمسك بإحدى الأعمدة الحديدة المثبتة على جوانب المعدية، كان متعرقا ويقبض على العمود بقوة ويضغط على أسنانه في رعب، من في المركب أخذوا يبتسمون، ويدارون وجوههم ويضحكون، وعندما رأته أمه جرت ناحيته وقالت له:

مالك، مالك يا بنى؟ قالتها في صوت متحشرج، ما انتش شايفة، المعدية ستغرق، استغربت أمه وقالت: لا متخافش، المعدية أمان. أخذ ينظر في هلع إليها: أنتِ جبتيني من هنا ليه؟ قالت له مفيش طريق تاني، وظل هكذا حتى رست المعدية فخرج يجري حتى ابتعد عنها يجلس على حافة أرض مزروعة بالترمس، ورفض الذهاب معها وأخذ يردد مفيش فايدة، مفيش فايدة، أنا معدتش قادر أسيطر على تصرفاتي، أنا مش عارف أعمل إيه؟ ومين اللى ورا كل ده، أنا مكتوب لي بسحر حتى الموت ولن أنجو منه أبدا مهما فعلتوا سيبوني أمشى لوحدي بعيد عنكم، ثم تركهم وأخذ يسير بسرعة، وأمه وإبراهيم يجري وراءه وتحاول أمه التشبث به ولكن لم تستطع، فأخذت تلاحقه وتلهث ويكاد قلبها يتوقف، ولكنها مستمرة، "عشان خاطر أمك، ارجع، أمك هتموت" وأخذت تلاحقه بكلمات عاطفية وتوسلات وعندما وقف أمامه إبراهيم وقال: إنتَ رايح فين؟ بصوت يشبه الصرخة، أخذ يردد ابعد عني ياله، ابعد يله بقولك، وعندما لم يبتعد أخذ يضرب فيه بقوة ثور، ويرفسه من على الأرض ويرميه ويضربه بالشلاليت وأمه تصوت، حتى أنهك فتركه، وجلس على الأرض واضعاً يده على خده، الأم ذهبت الى إبراهيم وطلبت منه أن يعود للبيت، كفاية عليك، كفاية عليك كده يا حبيبي، سيب الغم لأصحابه، تتكلم ودموعها تسيل من عينيها، رفض في بداية الأمر ومع إلحاحها وتوسلها عاد للبيت، وهو عندما رأى دموعها استسلم وذهب معها، حتى وصل دخل للطبيب وهو أيضا أعطاه جلسه كهرباء شديدة، عندما خرج كان يترنح ويتخبط في الحائط ويصطدم بالكرسي ،فجرت إليه ووضعت كتفها تحت باطه وحاولت أن تجلسه ولكنه لم يرد ،بل اندفع تجاه السلم ولأن الدرابزين كان قصير فكاد يسقط من عليه لولا ستر الله وصريخها وتشبثها بالجلابية، ثم جلست على السلم جواره وأخذت تبكي، وهو يطبطب عليها ويقول" معلش معلش، ثم بدا يفيق" فأخذ يأخذ نفسه بعمق وبدا يرى العالم كما لم يره منذ فترة طويلة ،استند عليها ونزل درج السلم، وعندما خرج من بوابة العمارة، رأي عربة فول فتذكر أنه جائع ولم يكن يتناول إلا النذر اليسر من الطعام حتى انخفض وزنه بدرجة رهيبة، أخذ يأكل بنهم وعندما انتهى شرب عصير قصب ثم ركب سيارة وعاد مبتسما هادئا كطفل صغير.

(١١)

كان وزنه يزداد عندما يكون في مرحلة العلاج والإفاقة، يأكل بشراهة حتى بدأ يشعر بدوران وأسنانه بدأت تسقط، قال للدكتور ذلك فطلب منه أن يقوم بعمل تحليل وكانت النتيجة سكر في الدم، وقام إبراهيم بعمل قرار علاج على نفقة الدولة ،وصرف له العلاج بعد دوخة في أروقة وزارة الصحة، حتى لم يعد في البيت مليم، وكان لإبراهيم مبلغ باقي حساب لدي شخص "رزل" ومن عائلة كبيرة في البلدة وداخ في المطالبة دون جدوي، وعندما عرف الأب ذهب إليه مباشرة في بيته، ودخل عليه دون أن يلقي السلام فدخل الرعب في قلبه وقال له:

فين باقي حساب إبراهيم، لم يستطع الرد، لقد كانت هيئته بلحيته وتجهمه وغضبه مخيفة، لذلك أخرج الرجل المبلغ المتبقي من جيبه وعد لها لفلوس وناوله له دون أن يفتح فاه، أخذها، وخرج من البيت دون أن يلقي السلام. ولأن إبراهيم يعمل فقد ترك لجدته السفر مع أبيه في الجلسات وفي صرف العلاج، ومتابعه مواعيد العلاج، وهو انهمك في عمله لكي يوفر مالا لهدم البيت وإعادة بنائه، والتفكير في الزواج بعد أن وصل عمره لسن ٢٨عاما، وإن كان الأفق مظلما بالنسبة له بسبب مرض الأب بمرض نفسي يشين صاحبه في القرى والبيت القديم الذي لا يمكن أن ترضى أي بنت بالزواج فيه ،فلم تعد أي بنت تقبل بالزواج إلا بمن يملك شقة منفصلة عن الأسرة، لذلك كان يبخل على نفسه، ويعمل بشكل متواصل ثم فوجئ بأبيه يقوم بخطبة فتاة لا يعرفها، صدم وكاد يجن ورفض رفضاً تاما واضطر الأب للاعتذار ثم توقف عن تناول العلاج النفسي تماما وكان يشعر أن هذا المرض الماكر لن يتسلل له مرة ثانية، وطبعا عندما توقف عن أخذ العلاج بدأ يستعيد قوته البدنية واشترى جاموسة وبدأ يذهب به للغيط وسرعان ما نشبت المشاكل بينه وبين جيرانه خاصة أن الجار هو عمه ولا أحد يعرف لماذا كان يضمر داخله كراهية تجاهه، وتجاه زوجة عمه حتى وصل به الأمر أن سب عمه وجرى وراءه

بالعصا العوجاء الذي يستند عليها، كل يوم هناك مشكلة وجلسات وصلح ثم خناقة، على الحد، الري، كان نشطاً، دوارا لا يتوقف، حتى ذهب في يوم للغيط بعد الظهيرة فوجد الجاموسة راكدة وتموت استغرب فلم يكن بها أي شيء عندما تركها، تجمع الجيران يواسونه وكل يدلي برأي بخصوص المرض حتى تقدم عجوز خبير بأمراض البهائم وانتزع شعر من جسمها فقام وقال: الجاموسة مسمومة، الله يعوضك خير.

لم يعد مهتما بالحضور، ولا بالجاموسة، ولا بالبيت، كان عقلة يدور ويرسم سيناريوهات بشخوص قاموا بجريمتهم، اتصلوا بجرار شد الجاموسة ورماها في مقلب نفايات البلدة، انفصل عن الواقع وبدأ تتنازعه رغبتان، الانتقام وتحطيم أعدائه جميعاً في وقت واحد، والاختفاء من البلدة والعالم كله، حتى لم يعد قادرا على الاحتمال، فقد قامت أمه بالضغط عليه لكي يأخذ الدواء وهو يرفض، حتى وقف في صالة البيت وأخذ يصرخ، أنا عايز أموت، عايز أموت سيبوني في حالي ثم شق الجلابية للمرة الثانية، لم تجد أمه فائدة سوى تركه وهي تعلم أنه لن يمر وقت حتى يعود المرض له أقوى وأكثر توحشا، وفي يوم لم يعد للبيت فأخذوا يبحثون عليه فوجدوه في الغيط وقد اشترى طوبا، وأخذ يبني هو غرفة له بعد أن رفض كل البنائين أن يقوموا ببناء البيت الذي يريد وقد نجح في بناء البيت غرفة وسقفها بالخشب والطين وكان ينقصها شيء بسيط وهو الباب فقد نسي أو الناس تصورت أنه نسي ولكن الحق أنه من سد الباب وفتح منفذ في السقف ويتم غلقه بباب حديد وكانت نكته للبلد لكي تضحك وتتسلي.

إبراهيم أيضا كان على حافة الجنون، كان يشعر أن كل العالم ضده ولا منفذ ضوء فقط دوران الأيام عليه بدون أي تغيير لذلك عندما عرض عليه صديق له التوسط لخطبة أخت زوجته وافق بدون ترد وتقدم لها فعلاً ولكن تم رفض طلبه فصدم وهو الذي وافق فقط لأن الموافقة جاءت من طرفهم، اتهم نفسه بالسذاجة وقلة الخبرة وأن الحقراء يتلاعبون به، ولكن

لم يكن في يده شيء لذلك فكر في ترك البلد "تتحرق على اللي فيها "ويذهب لأي بلد ثانية، واستخرج جواز سفر، وأخذ يبحث محموماً عن أي مكان حتى وجد فيزا للسعودية للعمل في مزرعة لتسمين المواشي، ولم يعلم أحد بموعد سفره حتى تم تحديد موعد السفر خلال ثلاثة أيام، وفي اليوم الأخير لم تكن له رغبة لمقابلة أبيه، ولكن قلبه لم يطاوعه، فذهب ليراه وقلبه يفيض حنانة وحبة وعندما وصل للغيط وجده يحش برسيم، سلم عليه وقال له يابا أنا مسافر الوقت للسعودية وجاي أودعك، ويفاجئه أبوه برفع الشرشرة عليه ولولا تحركه في الوقت المناسب لكانت الشرشرة اخترقت قلبه، جرى فتبعه جرى وراءه حتى تعب "فأخذ يردد " والله يا ابن الكلب لأقطع خبرك" توقف ابراهيم بجوار حقل ذرة وأخذ يبكي وهو يقول: أكرهك من كل قلبي، يارب تموت، يارب تموت عشان أرتاح. .

الحرائق

ذهبت للمقهى فوجدت المحاسب هناك، ولأنه الوحيد الذي أعرفه سلمت وجلست، في البداية صدمتني رائحته الكريهة، كان نتنا، بسبب عدم استحمامه، قلت لماذا لا تتزوج؟ فنادى بصوت جهوري، يا ست حسنيه يا ست حسنة، فجاءت فقال: إحنا بندور بقالنا قد إيه على عروسة، قالت كتير. فرد : ولا واحدة رضيت، شيء مش معقول، قالها وهو حانق، أنا طول عمر النساء بتترمي عليه كده وأنا أتبغدد عليهم جاء اليوم اللي أنا أترفض ومن مين؟ من حثالة! لكن الدنيا كده غدارة، ثم همس تصدق، أنا باستخدام العادة السرية وكأني مراهق، ما تشوف لي واحدة عندكم في البلد، قلت طيب مش لما أشوف لنفسي الأول، نظر إليّ مندهشا وقال: إنت لسه ما اتجوزتش، قلت أه قال والله ما أنا مصدق خالص، قلت سيبك مني، حكايتك ايه؟

قال: لي حكاية عجيبة لو كتبت بالابر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر

قلت: قول يا عم جابر

عندما كنت نائماً نوماً عميقاً في الباص المتجه لقرية النهر الأبيض على غير عادتي ،فلي طبيعة قلقة بالفطرة، وروحي الشكاكة تجعل كل حواسي منتبهة، متحفزةٍ توقعا لكارثة، أو مصيبة استغربت كيف واتتني الجرأة للاستسلام للنوم، نوماً عميقاً بلا أحلام أو كوابيس، وكأنه سبات موت، وعندما تنبهت ودار عقلي يستعيد وضعي وما جرى لمصيري، اجتاحتني موجة عرق، لم يفلح تكييف الباص في تجفيفه، ظللت مغمض العينان أردد، خاسر .. خاسر .كيف أغفو في لحظة استثنائية من حياتي؟ أنا الذي عشت حياتي، وعيني وسط رأسي، أعرف مصلحتي جيدا، وأعرف قدراتي لذلك استرحت لكوني نكرة، أو هكذا أعطي انطباعاً للبشر الذين يدورون في دوائري أو أدور في دوائرهم، لا فارق، لكل وجه منظور تطل منه على البشر والحياة ؛لذلك اخترت الدوران في دوائر صغيرة ولكنها آمنة دوائر أعرف أصطاد فيها، الصيد ليس تعبيرا

مناسباً، ولكن ممكن أن يكون أمتصهم، أنا كائن أسفنجي وأعرف جيدا الشخص المناسب القابل للامتصاص وأتمتع بامتصاصه، البعض يمتعض من سلوكي ويرونه نقيصة، هؤلاء بالنسبة لي البيئة المناسبة للاستحواذ، فهذا المترفع الأبله لا يستطيع أبدا أن يجاريني، أنا أفوز دائما، لا أستنكف شيئا أبدا ولا داخلي يتأثر، روحي تكون صافية محلقة عندما أزحف كدودة للحصول على ما أريد في النهاية، أنا لا أعرف بالضبط ما الذي سأجنيه من احترام العالم لي وأنا أعاني الحرمان، أنا لا أعرف في حياتي سوى هذه الحياة، وليس لدي سبب لأوجل رغباتي وأحلامي وأفراحي لشيء مجهول، إلا في حالة واحدة، أن يعود جدي من تعفنه وتفسخه إلى الحياة الدنيا ويقول: حفيدي العزيز، انتبه، اعمل لأخرتك وهي الجوهر هناك جنة ترابها زعفران واللون لون الزعفران والريح ريح المسك وفضاؤها نورٌ يَتَلألأُ وقصوٌر مشِيدٌة من ذهب وريحانةٌ تَهْتزُّ وينابيع ماء متفجرة ونهرٌ مطَّردٌ باللبن أو الخمر أو العسل وثَمَرةٌ نضِيْجَةٌ ويلبسون من سندس واستبرق ،وحسناءُ جميلةٌ، بها ملذات ومتع خيالية، ساعتها سأزهد في هذه الملذات التي لا تساوي "تعريفة" وأخرج إلى الجبل معتكف انتظارا للجائزة الكبرى، ولكن إلى هذا اليوم لن أتراجع أبدا عن اتخاذ كل الوسائل المتاحة للوصول لأهدافي، مع أن أهدافي ليست كبيرة فقط لو أحصيتها لتضحك وتسخر مني ،ولكن هذه طبيعتي، أحب كنز المال وأحب الطعام بشكل شره والملابس وكل هذا أحصل عليه بطريقة أو بأخرى مجاناً . إن لدي معوقات داخلية تحول دون الوصول لآمال كبيرة ومصير عظيم، أنا أريد أن أضرب مثل قبل الاسترسال في السرد، في يوم ذهبت أنا وزوجتي _ ونحن زير وغطاؤه_ إلى حفلة عيد ميلاد ابنة مدير الشركة التي أعمل بها وعندما افتتح البوفيه أكلنا بشكل عادي ثم أخرجنا أكياسا بلاستيكية، وغرفنا من كل المشتهي من الحلويات غالية الثمن والشكولاتة وعبأنا الكيس ووضعته الهانم في الحقيبة، زميل خائب الرجاء مال على وقال : أنت بشع، ابتسمت بأريحية، وتجاهلته " الحياة مش بروفة[1] " أيها المخبولون، لذلك عشت سعيدا بجد سواء في طفولتي أو في شبابي ما عدا فترة بسيطة عندما توفى والدي وأنا في الجامعة .

(١) عنوان ديوان للشاعر مجدي الجابري

في الفترة الأخيرة أخذت قرارات مخيبة لآمالي، مالي أنا وصراع الحيتان القذر ورجال المافيا. ــ من أنت يا بن الزنا فاكر نفسك مين ؟ فريد شوقى ! كائنات خبيثة، لا تتورع عن قطع رقبة اللى جايبينك بدم بارد.

كان ممكن تستقيل مثلاً وبخبراتك كمحاسب كبير في شركة كبيرة لا يوجد في ملفه ما يشين، أن تجد مؤسسة أخري، أو أرفض القرار وتحمل العقاب، لن تكون خسارة بحجم ما أنت فيه، عرص، عرص. لمجرد تخيلات، وأوهام لأسباب غامضة تماما تخوض صراع _مانتش قده خالص_، طول عمرك عرص، معندكش مشكلة أنك تعرص على أختك أو مراتك لو وقعت في ضيق، إيه اللي حصل لك؟ اتخبلت، ارجع وراء.

عندما علمت بخبر المأمورية أصبت برعب، ولكن مع مرور الوقت تغير حالي من اليأس والقنوط إلى الفرح والرغبة في المنازلة، شعرت أني أستطيع أن أتحدي العالم، وليس فقط شوية أوغاد سفلة، من أين جاءتك هذه الثقة ؟ أين ذكاؤك ودهاؤك، لذلك سقط سريعا في أول اختبار .

تحسست الحقيبة المعبأة بالمال وجدتها كما هي، كنت متأكدا أن المال اختفى والحقيبة فارغة، الغريب إنني لم اشعر بالعار من الخسارة ،ولا الحسرة من شماتة الأعداء، فقط رعب من حياة السجن الذي لم يكن أبدا ضمن مفردات حياتي، لذلك اجتاحتني رغبة عميقة للموت، الموت الاستثنائي الموت في محيط هائج بالأمواج، يسقط جسدي كهبة، عطية للبحر مستسلما للموج ليضرب فيّه بقسوة، يرميني على الصخور ويفتت عظامي، يجعلني أشلاءً، كنت يائسا حد العدم وبي رغبة لجلدي، أريد أن أُصفَع في ميدان عام، أضرَب بقسوة، أن أكون في وضع ذليل، مزدر محتقر كنفاية، كنت أشعر أنني أستحق الشيء وضده .

(٢)

عندما فتحت عيني بحذر وجدت الباص يقف على جانب الطريق والفضاء الخارجي صحراء ممتدة، فتحت الزجاج هب هواء حار فأغلقته لا يوجد "صريخ ابن يومين "صمت مريب، تلفت فوجدت الرجل الجالس بجواري مذبوحاً، صرخت، وأنا أرتعش هلعاً ورعباً فقد كان منحوراً مجزوزا بشكل وحشي، والدم مازال ينز من الحلق ببطء وبشكل متقطع، وينزل خطوط على ملابسه التي تبللت بالدماء، ورأسه مسنود على كتفه ومسند الكرسي وعلى وجهه ظل ابتسامة واسترخاء، كأنه يدخن على ضفة نهر بجوار زوجته الفاتنة، وأولاده يبنون بيوتا من الرمال، وبجواره تنك مياه معدنية، قمت ووقفت على الكرسي وقفزت في الممر، نظرت على الركاب كان حالهم مثل الرجل الذي جواري، منحورين، مخضبين بالدماء ، جريت أتخبط في جثث ملقاة، ورؤوس مقطوعة، ووجوه مشوه، وعيون مفقوءة، وأوتاد في مؤخرات، وأوشم شيطانية مطبوعة، وبطون مبقورة ومرمية في الممر، ودماء متناثرة على الجوانب والزجاج عرايا، ثم وجدتني في نهاية الباص. ألتفت عائدا أقاوم السقوط وعيني غائبة أقفز متخطيا الجثثً، مسعوراً، حتى وصلت لمقدمة الباص فوجدت السائق مذبوحا وبدون رأس، ويده على المقود، نزلت أجري صارخاً، فاصطدمت بكرة صلبه، تدحرجت أمامي وقد سقطت على وجهي فوجدتني وجهاً لوجه مع رأس السائق وقد ضاعت ملامحها من الدماء والرمل، تركتها، أجري في الصحراء المجدبة، هاربا أبكي حظي العاثر، ومصيري القاتم، وأن حياتي القادمة لن تكون سوى تقلب في الجحيم، خلعت القميص وعصرته ولا أعرف إلى أين أنا ذاهب أجري لاهثاً، مقتولاً من التعب، هربا من عقاب لا قبل لي به، عن جرائم لم أرتكبها، جريمتي الوحيدة أنني حي، أني أتنفس من هواء الله، إنه مد في عمري وفي رقبتي أكثر من ثلاثين روح، ومن يكون

ارتكب هذه الجريمة غيري؟ توقفت وقلبي يكاد يتوقف/ وأخذت أهتف ماذا فعلت يا رب لكي تعاقبني بهذا الشكل القاسي؟

تلفت حولي لم أجد أحدا فقط أنا في صحراء الله الحارقة بدون طعام، أو ماء توقفت فتهدل جسدي وقد خارت قواي، فتركت نفسي لكي أسقط على وجهي من التعب، أغرس رأسي في الرمال لا مباليا بما يحدث لي، أو العالم حتى جنا الليل فاستغرقت في النومٍ سرعان ما تخطفتني الكوابيس، والأحلام الشريرة ،التي تداهمني كشظايا، كبرق خاطف، ولكنه واضح تماماً، راسخ في ذهني ووعيي، وتعمقت داخلي، تعرضت خلالها لآلاف الميتات البشعة التي أعرفها, والمبتكرة، ألاف طرق التعذيب والتنكيل وبطريقه سادية مرعبة وآلات حديثة ابتكرها عقل مشوه، تتحكم بي وتجعلني في حالة جنون. كيماويات تتسرب لجسمي من خلال حقن تحت الجلد تظهر لي العالم جحيما، والراحة الأبدية هي النعيم، انفجرت رأسي آلاف المرات وتمزق جسدي ملايين المرات حتى مات كل شيء داخلي، ولم أعد أشعر بشيء ، أصبحت الصور تتدفق داخلي وكأنها تحدث لأحد غيري أو من خلال شريط سينمائي رديء لتثير الخيال، لم أفق منه إلا في شقشقة الفجر تلفت حولي لم أجد لا شجرة ، لا طير لا عشب فقط مساحة واسعة من الرمل الناعم وهواء بارد .

تمددت على الرمل ونظرت للسماء الصافية وأشعة الشمس تتدفق في الكون شعرت بالصفاء الذهني مما جعلني أتذكر أنني لم أصلى منذ أمس حيث أخر صلاة كانت الفجر ،حيث ظللت أبتهل إلى الله أن يوفقني في مهمتي ويقيني أولاد الحرام، ولكن لم يفعل لأسباب لا يدركها عقلي القاصر، لعل كل هذا في مصلحتي؟ كيف لا يكون من مصلحتي، وأنا الناجي الوحيد في مجزرة بشرية مروعة، تهللت بالبشر ونويت صلاة الفجر وبعد ذلك ربنا ينور بصيرتي لما فيه الصالح، خلعت حذائي وسحبت الشراب الملتصق بقدمي كانت رجلى متسلخة من احتكاك الرمل والشراب ملتصق بالدم الجاف، أخذت أنزع الجورب بهدوء حتى خلعته،

وقمت تيممت وصليت ركعتين شكرا لله وعندما انتهيت من صلاة الفجر ، نظرت إلى السماء ودعوة الله أن يشملني برحمته وهو أرحم الراحمين. جسمي مهدود وأريد أن أنام أفكر في هدوء، أحلل الأحداث وقد تنازعني تفسيران للحدث، إما أن عناية الله حمتني في هذا العالم القذر وبالتالي فمظلته ستظل ترفرف فوقى إلى الأبد، أو دائرة أمنية من سلسلة الدوائر المحيطة بالسلطة هي من تحميني، أو إنها تركتني لسبب ما زلت حتى الآن أجهله وإن كنت أعلم أنها ليست في حاجة لمؤامرة بهذه الوحشية، فانا أضعف من جناح بعوضة ويستطيعون ببساطة عمل ما يحلو لهم، بالطريقة الذي يريدونها فكل البلد تحولت لمستعمرة أمنية غريبة الشكل وعنكبوتية، لا حرمة فيها لمال، أو جسد، أو حياة، عندما توصلت إلى ذلك الاستنتاج تهللت بالفرح ووثقت من النجاة، أخذت أصرخ من الفرح، ثم نظرت حولي فوجدتني في قلب صحراء لا أعرف إلى أين أذهب، أتلفت وجدتني نقطة في متاهة فسقطت على الأرض، وانخرطت في البكاء يائسٍا من الدنيا موقنا بالهلاك عطشاً وجوعا تحت وطأة حرارة حارقة، معقول يحدث لي هذا؟ شيء لا يمكن تصديقه، أكيد أنا في كابوس وبالتأكيد سأصحو وأعود لحياتي العادية، الصحراء والضوء وحرارة الجو التي لا تطاق لا تترك لي فرصة لخداع ذاتي فهذا واقع، لست في حلم ولكنه علم قاسي مدمر للروح. أنظر للبراح المصمت ثم أخذت أدور في دوائر حتى تفتق ذهني عن فكرة قد تمد عمري حتى أفكر في طريقة لاستكمال حياتي, وهي حفر بئر اسطواني وانزل فيه وأضع فوقه القميص والبنطلون كمظلة ولكن يجب في البداية أن أحصل على عصي طويلة حتى افرش عليهم النباتات الصحراوية النادرة وملابسي وفعلا أخذت أوسع من الدائرة الذي أبحث فيها حتى وجدت نبات عاقول جاف بفروعه الكثيرة الشوكية فأخذت أحفر حولها ولكي أتقي شوكها الإبري، جمعت أكثر من شجرة ثم كومتها بجوار المنطقة الذي توقفت عندها، ثم استمريت في البحث حتى وجدت شجر شبيط خلعت شجرة وجدتها بلا فائدة بسبب قصر طولها :

ولكن كانت المفاجأة الحقيقية لي هو وجود نبات العشار وهذه نبته طولها يزيد عن المتر ففرحت بها فرحا شديدا واعتبرتها هدية ربانية، أخذت أقطع الشجر حتى لم تعد شجرة واحدة، حملتها ووصلت للمركز، كانت الشمس بدت ترتفع وحرارتها تزيد ولكنها مازالت محتملة فخلعت البنطلون والقميص وظللت بالسليب وبدأت في الحفر بسرعة قبل أن تزيد درجة الحرارة وتقضي عليّ، بدأت أوسع الحفرة ثم أضيقها حتى تكون اسطوانية وثم بعد ذلك أتحكم بها، أخذت أحفر وعندما تعمق الحفر بدت التربة رطبة، سحبت البنطلون وربطه من عند القدم واستخدمته كمقطف وأخذت انزح الرمل حتى أصبحت الحفرة بطول رأسي فقررت أن أوسع فيها من العمق لأن العصيان طولها متر ولن أستطيع التوسع الرأسي أكثر من ذلك ظللت أحفر وأوسع من كل الجوانب وأقذف الرمل بحذر حتى لا يسقط عليّ، أو يحدث انهيار في الجدار وعندما انتهيت شعرت أن هذه الفكرة ستقيني الشمس، فزادت حماستي للتوسع في الحفر حتى أستطيع أن أمدد قدمي، وعندما انتهيت سحبت أعواد نبات العشار وأخذت أرص فيها وأرمي العاقول فوقه حتى ظللت البئر وكنت وقتها في غاية الإنهاك فتكومت بجوار الجدار وتسلل لجسمي برودة الرمل المحببة فمددت جسمي على شكل قوس سرعان ما استغرقت في نوم بلا أحلام، أو كوابيس.

نوم ميت حتى قمت مغمورا بالعرق لدرجة أنني عندما قمت وجدت رسم جسدي مبلل على الرمل، ويغطيني الغبار، رأسي مصدع وجسمي ثقيل غير قادر على الحركة فعدت لنوم جنيني أفكر فيه ماذا أفعل ؟ وكيف أخطط لحياة مستقبلية لا أعرف كم ستستمر ؟وكيف أحمي نفسي من الأخطار؟ ثم ضحكت من المفارقة، أنا الذي عشت حياتي أبحث عن من يحميني في هذه الحياة بعد أن قاربت على الخمسين أفكر كيف أحمي نفسي؟ أخذ عقلي يدور بسرعة مجنونة في أحلام يقظة يرتفع فيها نجمي للعلا ثم يخسف بى الأرض حتى أصبت بالقرف من كل هذه العبث الذي أعيشه لذلك رميت كل ذلك وراء ظهري وفي ذهني فكرة

واحدة باقية واحدة أن حياتي وأن ميلادا جديدا قادما سأعيشه حلوا أو مرا لن يفرق كثير .عندما انكسرت حدة الشمس خرجت من الحفرة هواء رقيق يتدفق أشعرني بألفة وبثت داخلي فرحا ومحبة للحياة ، أخذت أتجول في المكان باحثا عن أثار قدمي فلم أجدها لم أكن قلقاً فانا أعرف الاتجاه الذي جئت منه فمهما بعدت أو انحرفت سأصل في النهاية للطريق العام، عدت وسحبت القميص والبنطلون ونفضتهما من الرمل العالق بهم ولبستهم وسرت بحماس حتى وصلت للطريق وللمفاجأة وجدت السيارة كما هي ولا يوجد أحد بجوارها، هل هذه طريق مهجورة ؟ ولكن الطريق مسفلت حديثا ويبدوا وكأنه طريق دولي، هذا جنون وأخذت أضرب في رأسي، كيف تحدث مجزرة مثل هذه ولا أحد يبالى بها من السلطة المركزية، مع أن السلطة طوال تاريخها، تنظر دائما إلى عملية القتل بهسترية وتقمع أي قوة تستخدم السلاح ليس حماية للمجتمع ولكن خوفاً على دعائمها من الاختراق والانتهاك الجماعي، أو الفردي، يبدو أن هناك تغير مخرب يضرب البلدة بقوة، اقتربت من الباص وجدت رأس السائق وعليها كومة من الذباب، تجاوزتها ودخلت الباص وجدت الجثث متفسخة والديدان تنهش بها ورائحتها نتنة، دخلت مباشر نحو الكرسي الذي كنت أجلس عليه وجدت الحقيبة التي تحتوي على ثلاثة ملايين وسبعمائة ألف موجودة كما هي، سحبتها ونزلت أجري من الباص وابتعدت وفتحت الحقيبة وجدت الفلوس مرصوصة تلمع في ضوء الشمس الغارب، أغلقتها ونظرت للباص وقد قررت العمل ، دخلته مرة ثانية ثم فتشت كل ملابس القتلى وحصلت على الأموال والأشياء الثمينة ثم حملت رأس السائق بيدي ورميتها في قلب الباص وتركت المكان بعد أن أشعلت النار فيه وصعدت فوق التل، أتَأمّــل الحريق وهو يلتهم الباص والدخان الأسود القاتم يتدفق ثم انفجر ونتج عنه تناثر جثث على الطريق وبدأت رائحة اللحم البشري تنتشر في الجو، ظللت واقفاً أنظر يمينا ويسارا لعلى أجد شخصاً، أو دابة، أو طيرا، ولكن دون جدوى، بدأت النار تستعر وهي تأكل الجثث والدخان يقل، وروحي بدت تخبو.

سرت على جانب الطريق تحيطني جبال ضخام متأهب للهروب في الصحراء تحسبا لرؤية سيارة عادية، أو شرطة، ولكن مع استمراري في السير دون وجود أحد، وسقوط الشمس وحلول الظلام، بدأت أصاب بإحباط وقد أنهكت من التعب، والجوع، والعطش، فأصبحت لا مباليا، أسير متطوحا على الأسفلت أجرجر الحقيبة التي كان لها وللصدفة عجل فسهلت على حملها، القمر يعلو في السماء لينير الطريق، والهواء بدأ يزداد قوته شيئاً فشيئا فيحمل الرمل ويضرب في وجهي وعيني، جلست في الطريق مقرفصا أضع يدي على عيني حماية لها من الغبار، عندما تعبت قمت وصعدت فوق الجبل الذي يحيط الطريق، كان الهواء شديدا وأقل حرارة وسطح الجبل صلب فوضعت الحقيبة وجعلتها مخدة نمت في وضع رحمي وتركت الريح تصفر وظللت هكذا حتى شروق الشمس عليّ ، كان ريقي جافا، حطبا فعلياً وداخلني يقين أنني سأموت قبل أن أصل للعمران، كانت ضخامة الجبال بعقمها وجفافها يصيبني بالمرارة، ليس لأنني سأموت ولكن فقط لأنني عطشان، أريد أن أروي ريقي، ليس حسنا، ولا ممتعا إن يموت الإنسان وهو يتعذب من الجوع والعطش بالعكس كان لدي اطمئنان تجاه فكرة الموت، أنا الهلوع تجاه فكرة سلب روحي، لم أجد شيئا يستحق أن أفعله، لم أفكر لا في عقاب، أو ثواب، أو شيء، وظهر لي الموت فعلا عاديا جدا لا يستحق أبدا كل هذه الدراما، الطقوس وهذه الأناشيد الجنائزية الحارة، ويومها لم أتذكر حتى أن لي زوجة، وأطفالاً سأفتقدهم، كانوا بالنسبة لي مجرد نقاط صغيرة جدا، في مجرة تبعد عني ملايين السنوات الضوئية، لم أتذكر أبداً حياتي السابقة كجزء من وعي مألوف ورحمي _أقسم بالله _ عندما أحاول في لحظات وهذه نادر جدا، ليس لأنني أفتقد شيئاً، ولكن مجرد تسلية لوقت فارغ، تذكر حياتي السابقة، لا تسعفني ذاكرتي سوى بنتف لا تذكر وهذه النتف لا أشعر بالمطلق أنها تخصني، كانت مشاعري تجاهها منعدمة لا بالسلب، أو بالإيجاب، مجرد حياة، حياة عادية لشخص آخر غيري، حتى بعد ذلك عندما استطعت الحصول على ذاكرتي من خلال ملفي في الشركة

وصوري في مختلف حياتي الدراسية، والمهنية، والزوجية وفرشتهم أمامي لم أحس تجاه هذا الشخص ولا هذا الاسم: طارق محمود عبد الفضيل، أي علاقة من أي نوع، لا الملامح النفسية ولا الملامح الجسمانية، بالعكس كنت عندما أنظر لهذه الصور أصاب بهستيريا من الضحك والمرارة، كنت أرى هذا الشخص وكأنه ممثل في فيلم لا أكثر، ثم بعد ذلك دفنت الصور في نار الراكية وعشت حياتي. لقد ولدت من رحم بوتقة محنة وموت وعذاب، تحت اسم "هيثم الحوت"، لقد تخلق كائنا حرا يفعل ما يريد بدون خوف لذلك لم تعد تهمني هذه الحياة ولا المدى الذي أعيشه فلو عشت ساعات قادمة فقط فأنا في رضا تام.

زحفت على مؤخرتي من فوق الجبل إلى أن اسْتَوَيْتَ على الطريق وأخذت أجرجر رجلي لعل وعسى ألتقط قطرة ماء، أبل بها ريقي، انظر لارتفاع قرص الشمس وازدياد درجة الحرارة بشكل جنوني، حتى بان لي ما يشبه شيئا على جانب الطريق، أخذت أجري فوق الإسفلت الذي بدأ يلين تحت سطوة شمس حارقة فبان لي خص، فتحت الحقيبة وأخرجت المسدس الذي حصلت عليه من راكب مقتول وهو محشو ب ١٢ طلقة ودسسته بين اللحم والبنطلون واقتربت حتى رأوني فنظروا إلى مندهشين، دخلت التكعيبة وجدت شاباً وسيماً، ينظر في استغراب

- واقع من جبل يا حاج

حاولت أن أبتسم ولكن لم أستطع، حاولت أن أطلب ماء ولكني لم أقدر على إخراج الكلام، وعندما رأيت ثلاجة كوكاكولا، فتحت الباب وتناولت الزجاجة وأنا أرتعش، زجاجة فانتا برتقال مشبرة وجدت صعوبة في فتحها فقام الشاب يجري

-عن إذنك يا حاج، وفتحها بطريقة محترفة جعلها الغطاء يطرقع وناولها ليّ

رفعتها على فمي ولم أتركها إلا فارغة، سرت في الحياة وبدأت جفوني تنفرج لترى جمعا من العمال جالسين يتناولون الشاي، جلست على كرسي فترك الشاب الذي فتح لي زجاجة الفانتا جلس بجواري، كانت عناقيد العنب المتدلية من التكعيبة على وشك سريان الحلاوة بها..

- إيه يا عم اللي خلك تمشي في طريق الهلاك دهذ واحد كُبره زيك، وباين عليه مش وش بهدلة، يمشي في طريق خطر زي ده اللي يمر منه يا ميت، يا مولود من جديد .

ـ قضاء ربنا.

- هو الواحد ينام ويدي مؤخرته للشمس ويقول دي قسمة الرحمن إيه يا عم الحاج " ولا ترموا بأنفسكم في التهلكة"

تدخل رجل أسمر وجهه مربع فمه خال من الأسنان يرتدي جلابية وسخة وبجواره ثلاث بطاريات

-ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين"

-لم يلتفت إليه وواصل الكلام في حماس الموضوع طول قوي وباين مش باين له أخر وكل يوم نسمع في نشر الأخبار، إن تم قتل مجموعة من الإرهابيين، ونشرة أخبار من قناة ثانية تذيع أنه تم استهداف مركبة، أو مدرعة، أو كمين، وتم قتل عشرات الضباط والعساكر، ساحة حرب يا خال لا نعرف عنها شيء.

- الحكومة بتعمل الصالح يا أستاذ

- وأنا قلت غير كده يا عم سعد

- لا أنت ابن خالي، وراجل متعلم وتعرف الصح من الغلط

- ابن خالك، طيب

ومال على هامساً، مخبر ابن وسخة

- ست حسنية شيشة

سرعان ما جاءت بالشيشة والشاب وضع قدم على الأخر وأخذ يقرقر.

ملت عليه وقلت له أنا جعان

- أنا عايز أشرب، وآكل

أعتدل واستدار تجاه الغرفة ونادى بصوت جهوري ولكنه رقيق: ست حسنيه، يا حسنيه، خرجت امرأة نحيفة، سمراء وملامحها لطيفة، ولها ابتسامة آسرة تكشف عن أسنان بيضاء متساوية، وتبدو طيبة. كانت فوق الثلاثين تقريبا.

-الراجل عايز يأكل ويشرب ويرتاح

أشارت على عينيها ودخلت الغرفة ثم نادت عليّ قمت وسحبت الشاب معي ولكنه رفض، دخلت وراءها، كانت غرفة لطيفة مبنية بالطوب اللبن وبها شباك يتدفق منه الهواء الرطب، طلبت منها أن تأتي بماء لكي أغسل وجهي، فأحضرت طستا وإبريقا وصبت الماء على رأسي فشهقت من البرودة فضحكت ضحكة صافية، ثم ناولتني فوطة جففت بها وجهي وجلست على الحصيرة المجدولة من البردي واضعاً رأسي بين يدي ثم بدأت أتقيأ سائلاً أصفر مر، جاءت على أثره الست قمر نظرت، ثم عادت مرة ثانية وفي يديها قطعة قماش وكوب وماء رشت على القيء وأخذت تمسح فيه بقوة حتى نظفته تماماً ثم أحضرت لي ليمونة مقسومة نصفين فعصرتها تحت ضرسي وتقدمت لتناول الطعام كان الطعام شهيا بيض بالزبد البلدي وجبن قريش وبطاطس مقلية وسلطة وعيش أبيض شامي ومخلل وزجاجة مياه وزجاجة سفن باردة، أخذت أكل بنهم وكلما تقدمت في الأكل كلما أحسست أن الحياة تعود إلى وأن كائنا

مات فعلاً وكائنا نولد داخليا، انتهيت من الأكل فدخلت على بكوب شاي، تركته جواري وقلت لها هل تسمحي لي بالنوم هنا لمدة ساعة؟ وافقت بهز رأسها فطلبت مخدة لكي أنام عليها فجات لي بواحدة، فتمددت وانتزعت المسدس وتركته جواري واستغرقت في النوم وعندما أفقت كان المساء قد حل، خرجت وأنا أشعر إنني ظللت طوال عمري أبحث عن روحي الحقيقة ثم وجدتها أخيراً لذلك كنت منتشياً فعلا، فخرجت فلم أجد أحدا إلا الشاب وهو يتحدث مع قمر وعندما رأوني، قامت قمر فجلست مكانها وأخذ الشاب ينتقل من حكاية لأخرى عن نفسه وقد عرفت منه أن أباه كان رجلاً عصامياً بني نفسه بنفسه من تجارة الحبوب وقد كوّن ثروة جعلت الأسرة تعيش في رغد وحياة سعيدة لدرجة أن أباه – وهو في الصف الثاني الإعدادي – اشترى له جهازا محمولاً بثلاثة آلاف جنيه، وقد قام ببيع البيت القديم واشترى قيراط أرض بني عليه بيت بالخرسانة المسلحة وقد تكلف البيت تكاليف باهظة وفي يوم مرض الأب ثم وجدنا بعد التحاليل والإشاعات، أنه مريض بعدة أمراض مهلكة، الكبد والسكر الضغط الخ كانت الحقنة ب ١٠٠٠ جنية وكان يأخذ حقنة بالمساء وحقنة بالصباح أضافه لعلب برشام كانت يتم جلبها للخارج بواسطة صديق كان يعمل بالمطار، وظلا على ذلك الحال حتى أخر مليم في البيت وانتقل إلى جوار ربه، الغريب أن الدكتور الذي كان يعالج الأب عندما قابله الابن بالصدفة قال له : أن والدك كان لا آمل إطلاقا في شفائه، وسلم عليه وتركة مصدوما، من تبجح الطبيب، وهو الذي كرر مراراً وتكرارا أن فرصة الشفاء تقارب إل ٧٠٪ لماذا جعلنا نعيش في وهم الشفاء واستنزفنا مالياً، كان يقف تائها في الميدان، كل شيء ضباب لا يرى شيئا، يتخبط في المارة ولا يعتذر لأحد ويتلقى شتائم ولا يبالى، الغريب أنه لم يلمح في نبرة الطبيب أي نوع من تأنيب الضمير، أو الشعور بالحرج، بالعكس يبدو سعيدا وذا صحة عفية ووجهه يبك بالدم، واثقاً من نفسه، المحزن فعلا أنه لن تأتي له الفرصة إلى الأبد من الانتقام من هذا الوحش العفن، مهما ابتكر من خطط ووسائل يجدها في النهاية عديمة الجدوى وخيالية

يستحيل تحقيقها ثم وجد نفسه مرميا على الأسفلت يتدحرج وحوله تجمع الناس فقد اصطدم بسيارة عندما حاول السائق الدفاع عن نفسه وجده يكرر أنا اللي غلطان، أنا اللي غلطان، وقام وسار على الرصيف ولدية رغبة أن يبكي.

كان الوقت في الثانوية العامة وقد قرر أن يهجر التعليم، ويعمل لكي يعول الأسرة ولكن تاجر الحبوب الذي كان يشتري منه الأب عرف بالحال، فقرر أن يدفع مبلغاً محترماً شهرياً حتى يتخرج الابن، استمر الأمر ثلاث شهور ثم تأخر الراتب، ٦ أشهر ثم بعد اتصالات مع العمال تم إرسال ثلاثة أشهر وبعد شهر تم إرسال شهران ثم تم نسياننا، وكان من الصعب الاتصال بالحاج، لذلك كنا نصبر ونستلف من الجيران، والأصدقاء، والبقال حتى تصل دفعه فنوزعها على الدائنين ونبدأ من جديد، والمصيبة الجديدة أن المقاول الذي قام بالبيت أصبح له دفعات متأخرة وأرسل لي إنذارا بالدفع عن طريق المحامي، ذهبت إليه مع الخال لعل وعسى أن يتنازل عن جزء أو يتم تأجيل الدفع لفترة، ولكن الرجل قابلهم بصلف واستعلاء ورفض رفضاً باتا أن يؤجل الدفع أو يتنازل عن مليم مع أن المقاول كسب من وراءنا خاصة في الدور الأرضي آلاف ورغم ذلك لم يقدر الظروف، المهم كان مع أمي فرع ذهب ورثته من المرحومة جدتي فباعته وسددت الأقساط المتأخرة، وعندما انتهيت من الكلية، وليتني ما نجحت ولا تفوقت انقطع الراتب الذي كان يرسله الحاج وبدأت رحلة العذاب على أصوله يا أستاذ، البحث على عمل في مجال تخصصي، دخت وعندما وجدت عملا كان الراتب لا يكفيني سجائر وزحفت على بطني من أجل أن يرفع صاحب المكتب راتبي حتى يوفر لي الكفاف ولكنه رفض وعندما لم أجد فائدة، ذهبت مع صديق للريس حسان ليتوسط لي للعمل في مزرعة اللواء سامي وعندما سألته لماذا لم يذهب اليوم قال إنه ذهب بالفعل للمزرعة ولكن ترك العمل وعاد بعد ان طلب منه الريس اللي ماسك المزرعة أن يغسل البهائم وينظف الزريبة.

(٣)

تواصلُ الأشياءُ دورتَها، الليل يعقبه نهار السماء صافية، غدا ملبدة بالغيوم، الشمس محرقة، غدا تنكسر حدتها، القمر مكتمل يغمر الكون بضوء صافٍ شفاف غدا يشحب، اليوم ريح محملة بالغبار ودرجة الرطوبة عالية، غدا يسقط المطر ،ويكون خلالها الجو صحواً، الأشجار تنبت البذرة سرعان ما تنمو شجرة لها فروع وأوراق وثمار ناضجة ثم تسقط وتتحلل أو تتحول لعصارة في بدن، أشياء تموت وأشياء تخرج من رحم العدم إلى العدم.

لذلك لم أيأس من موت أحد أو هلاك شيء، أو غياب شخص، ولم أضجر من ظواهر الطبيعة، وهذا لا يعني أنني متبلد الإحساس فحرارة الجو الشديدة، والصقيع والريح المحملة بالأتربة والرطوبة ترهقني وتضايقني. مقصدي أنني أتفهم ، فلكل دورة تنتهي وكل غدا يموت، وفي تقلبنا، حياتنا وموتنا الطبيعي، لكن أتوجس خيفة من البشر هذا الكائن المفطور على الشر، الإيذاء، مجرد غفلة وتجد نفسك واقعا في شرك ومخالب حيوان مفترس ناشبة أظافرها في لحمك، لذلك عشت حياتي في عزلة لا أسمح لأحد باقتحام حياتي ولكن من الممكن أن أقتحم حياة الآخرين ،أحصل على ما أريد وأعود لوكري مرة ثانية دون أن أسمح لأحد بمعرفة شيء عني فطالما لا يعرف أحد عنك شيئا، فأنت في مأمن ولكن لو انفتحت على الآخريين ستكون ملعبا لهم، المشكلة الوحيدة والتي لا أعرف لها حلا هى الجبن ،ففي البيت، الشارع، الشركة, الكل يعلم أنني جبان رعديد، وأخاف من خيالي وأن هذا الخوف مدمر لحياتي ونقطة ضعفي الأساسية التي تحول بيني وبين طموحي الاستحواذي، بمعنى أنني مهما كانت المغريات والرغبات ، أتراجع فورا عندما أرى الشر من الطرف الأخر، جسمي يرتعش من نظرات العنف فما بال لو حاول أحدهم أن يعتدي على لذلك أترك ما في يدي مباشرة، وأنسحب عندما أرى الشر ولولا هذه النقطة كنت فعلت الأفاعيل لكن هكذا الدنيا" الرخمة "تعطي الشجاعة لمن لا

يعرف أن يستغلها، لذلك أصبت بالهلع عندما تم تكليفي من قبل مدير الشركة بمأمورية لدفع مرتبات الموظفين القائمين على مشروع سياحي متكامل يتضمن فندقاً ومنتجعاً فاخراً فئة خمس نجوم مكوناً من قسمين، يتضمن القسم الأول مئة جناحٍ أما القسم الثاني، فيتضمن أربعين جناحاً وشاليه ومنزلاً فاخراً تقع على امتداد شاطئ النهر في قرية النهر الأبيض، وشققاً فندقية، وفيللاً فاخرة، وقرية للتخييم، ومسرحاً مفتوحاً، ومتحفاً، ومسجداً، ومركزاً تعليمياً، ومرفأً للسفن، ومطاراً، وعدداً من المتاجر ومجمعاً ترفيهي قاعة مؤتمرات، ملاعب جولف، مطاعم.

لم أستطع الكلام، عجزت حتى عن الحركة والمدير يدخن وينظر إلىّ في ملل ثم أخرج الشيك من الدرج ورماه لي بقرف على المكتب، وقفت أتأمل الشيك وكأنه لغم حتى صرخ المدير في وجهي فالتقطت " الشيك" وهرولت خارجا من المكتب غائباً عن الوعي، دخلت المكتب وجدت الموظفين ينظرون إلى في اِزدِراء، لا أعرف لماذا ؟ مع أنني لم أؤذِ أحد، أو أغتاب، أو أدس عليهم لدي رؤسائي مع أن هؤلاء الأوغاد جبناء مثلى بالضبط ولكن لديهم القدرة على إخفاء هذا الضعف تحت قناع صلب فارغ ، يخفي خورهم ولكني أنا المفضوح الوحيد في الشركة لذلك أفقد احترامهم حتى أن المدير سلب مني حقي في الترقي وصعد صديقه ورفيق سهرات الرقص والتهتك، ورغم ذلك لم أشتكِ بالعكس" قلت بركة يا جامع" لقد أزال عني هم ثقيل ،فمالي أنا ومسئولية مدير إدارة الحسابات، مالي أنا ومسئولية حفنة من الموظفين الأوغاد سفلة القوم، يجب أن تظل تصارع وتناكف وتظلم وتدس طوال اليوم حتى وأنت نائم يجب أن تفكر في ما الذي من المكن أن يدسوه لي لكي يورطوني في كارثة تنتهي بي إلى السجن وتشريدي الخ الخ ، يغوروا في ستين ألف داهية أولاد الحرام، هيء هيء هيء، لو سمعني أولادي وأنا أقبح بالكلام لسقطوا مغشيا عليهم فأنا مواطن صالح أمام أولادي لا يخرج من فمي العيب أبدا، أرشدهم إلى صالح الأعمال، والخوف من الله، والحمد في السراء، والضراء، والرضا بالمقسوم، وفي

النهاية أكلف بمهمة خطرة قد تكلفني حياتي. الموضوع كبير فعلاً، وهناك مؤامرة واضحة، لا تحتاج لذكاء، فلماذا أنا بالذات يسند له هذه المهمة؟ والكل يعرف أنني دقيق ولا مليم يهدر مني ومأمون تماما، كما قلت : أنا يا جماعة جبان رعديد، لذلك لن أختلس أبدا أموالا تعرضني للمسألة القانونية، أكيد مؤامرة، يتآمر على الشراميط أولاد الأوساخ، هذه المؤامرة الغرض منها سرقة الفلوس متورط فيها المدير مع شركاء له، من؟ لا أعرف. لن أذهب حتى لو رفدت ؟ ما الذي أكسبه من كارثة مثل هذه ؟ لا شيء. السجن، أو الموت، لذلك ليس أمامي حل سوى أن أرمي الشيك للمدير وأترك الشركة جريا، وعدم العودة لمدة شهر، وليتم قبول الوضع وخصم مبلغ من مرتبي، أو تسوية معاش مبكراً، والبحث من جديد عن عمل. وليكن ما يكون، وليكن ما يكون، مسكت الشيك بقوة ،وعدت لمكتب المدير وهممت بدفع الباب، ولكن تراجعت، كنت في حالة خور رهيبة، جعلتني أتعرق بشكل زاد من اضطرابي، فأنا أفرز عرقاً رهيباً، أعتقد أنه بسبب الطاقة الرهيبة داخلي، والذي تجعل جسدي ملتهباً فعندما أجلس جوار زميل في الباص_ قبل أن أشتري سيارة – أجده يقوم من جواري متقززا من سخونة جسدي، وطراوته والعرق الذي يبلل ملابسي، ويطلق رائحة ليست طيبة، رغم استخدامي لعطور غالية الثمن. زوجتي في بداية حياتنا الزوجة كانت تطلب مني أن أخذ دش في بداية الممارسة الفعلية، وعندما أثيرها يصبح العوم في عرقي متعة ما بعدها متعة وتصرخ من اللذة، مبسوطة، مبسوطة خالص، أنا طايرة في السما، وإن كنت بعد ذلك قمت بتركيب تكييف، أراحني من العرق وقرفه.

في الشركة كانوا ينادونني بالمهندس العرقان ،والمدير كان ينظر لي والعرق يسيل منيّ ويقول: المفروض يركبون لك خرطوم عند نهاية سلسلة ظهرك، يروون الحديقة، ومدخل الشركة، والشارع المقابل للشركة بالعرق، ثم يضحك ضحكة سمجة، ويتركني مبللا غير قادر

على الرد، أبادله ابتسامة، أدعو الله أن لا تكون لزجة. وفي عيد ميلادي يقوم كل الموظفين بإهدائي مناديل ورقية من كل شكل ولون.

لدي مشكلة أخرى حاولت بكل الطرق تخطيها ولكن فشلت وهو أن صوتي يخرج ناعماً وممطوطا وهذا يسبب التباس لدى كثيرا من الرجال والنساء أيضاً ويظنوني مخنثا، وهذا بعيد عن الحقيقية، لأعرف لماذا الناس يضعون مواصفات خاطئة للشذوذ مثل، الشكل وحركات اليد وطول الشعر والكلام، أنا أعرف كثير جداً بل معظم الشواذ لديهم وجه غير متناسق بل كثير منهم يصل لدرجة القبح، سأحكي لكم حكاية: كنت في يوم في موقع عمل للشركة حيث تقوم بإنشاء مجموعة من العمارات لصالح رجل أعمال بارز في مدينة نصر قبل أن تزدحم بهذا الشكل وفي يوم أخطأت ودخلت عمارة من العمارات الست وكانت منتهية التشطيبات وعندما تنبهت ، تنبهت أيضاً معدتي ورغبت في طرد فضلات غير مرغوب فيها، دخلت الحمام سمعت صوت فتحت الباب وجدت رجلا جنوبيا طول بعرض وشارب كما يقولون_ يقف عليه الصقر _ يضع يده على قاعدة الحمام ومؤخرته مرتفعة ورجل فوقه يهتز ويطلق أصوات شبقه ولا أنثى شرموطة محرومة لسنوات، أغلقت الباب وعدت مخضوضاً أرتعش رعباً، وركبت سيارتي وعدت للبيت بسرعة رهيبة وأنا أتوقع أن هذا الفحل الأضبش سيتربص بي ويقتلني أو على الأقل يعمل لي عاهة مستديمة، لذلك ظللت أكثر من أسبوع أراوغ، لكي لا أذهب لمنطقة العمل، حتى اكتشفت بالصدفة أنه ترك العمل من يومها وعاد إلى بلدته مرة ثانية. أنا كامل الرجولة، بالعكس أن شاطر في ممارسة الجنس تماماً، نعم! فممارسة الجنس حرفة، تستطيع أن تتقنها لو قربت مثلى من المرأة وتعرفت عليها، وعلى أفكارها، وأحلامها ونقط الضعف والقوة داخلها، لا يعني أنك تمتلك قضيباً جيداً يعني أنك ذكر حقيقي يمتع المرأة, تذوبها، وتصل بها للذروة_ البعض يبحث عن مناطق تثير المرأة، وهو لا يعلم أن أي جزء من جسد المرأة صالح لإثارتها، كل جزء تمسه يد رجل حقيقي يشعل فيها نار الرغبة، ولكن عليك في

البداية أن تقبض بقوة على رأس المرأة، على ذاكرتها، عن جوعها وهوسها، همساً بكلام ناعم، تقبيح بالكلام الجنسي، بشتمها بأوسخ الألفاظ، أضرم فيها النار بذكر أعضاء أمها، أختها عمتها خالتها، اضربها على مؤخراتها وأنت تشخر_ اضربها واغتصبها بقوة فكلما اغتصبتها ازدادت تبعية لك ، هناك أسطورة تقول أن أنليل نفي للعالم الأخر لأنه اغتصب الآلهة نفليل ولكن لأن نفليل مازوخية وتعشق من يغتصبها، فقد ذهبت وراء أنليل، وولدت أمامه نانا القمر ليصبح ضوءا ينير له الكون في منفاه، هكذا المرأة كلما تعرضت للسحق والإذلال والعنف المادي والرمزي تخرج أجمل ما فيها، أنها لؤلؤة لا تستخرج لؤلؤ إلا تحت الألم والعذاب، لماذا نحرمها إذا من العذاب، من الجلد والقهر وكل بطريقته.

وكلما كان جسم الرجل طريا دون ترهل يلذ المرأة ويجعلها نشوانة، كما أن معظم النساء من خبرتي تفرح بكون الرجل سلبيا في العلاقة، أي اجعل المرأة تمارس الجنس كفاعل، أنا أفعل ذلك بل استمتع أكثر، وهذا يسحرها أيضاً ،فالمرأة بطبيعتها لديها عقدة نقص قاتلة، تجاه الرجل فبمجرد أن تتيح لها لحظات ذكوره تبتهج، وتتصور نفسها فارسة، بئس الأفكار والأحلام الصغيرة، كعب أخيل المرأة، أن تشعرها بضعفك بانكسارك، بهوانك، فالمرأة كائن عفن يعيش في مستنقع صنعته لنفسها، وكلما وجدت أنيسا من جنس أخر يغوص معها في الوحل تبتهج لذلك كل أمراه تقترب مني أسلب رجولتي وأرميها في حجرها، وهي تقفز وتتنطط كالقردة، أسلب منها ما أريد بعد ذلك ،فلتعش وهمها ولكني أقف على أرض صلبة، فالرجولة ليست في هذه المظاهر الخادعة، ولكن في القدرة على السلب، فالرجل الحقيقي منذ الإنسان البدائي هو الذي يسلب أكبر كمية من الأشياء المادية والرمزية تحت سيطرته، فعندما يصطاد الرجل غزالة قيمتها الحقيقية ليست في المباهاة، فالغزال كائن رقيق وهش وصيده ليس بطولة، ولكن قيمة الغزالة في ضخ طاقة داخل الجسد يستطع من خلالها الرجل أن يمارس دورة الطبيعي، في حماية ممتلكاته ولأن المرأة تجلس بطبيعتها في البيت ككل الزواحف فتتصور

بعقلها القاصر أن الرجل اصطاد الغزالة للغندورة، هههههه فعلاً كائن عجيب والله يحتاج لإعادة تأهيل سأستفيد منها في الحدود القصوى سأجعلها تبذل أقصى جهد لإمتاعي، تنسى ذاتها، لذتها وتفكر في لذتي رغباتي .

الذي يسحقني حقيقة هي من داخلها ذكورة أصيلة، السحاقية بالفطرة هذه الوسخة هي التي بالفعل خارج سيطرتي بالعكس أقف أمامها حائرا غير قادر على التعامل معها، فهي مربكة، لذلك أبعد عنها تماما. لأنها عنيفة لا تعرف الرحمة وداخلها قوة تدميرية هائلة لا تستطيع أن تعيش في مناخ مسالم بالعكس هي تصطادك وتتلاعب بك وتدخلك في معارك وهمية لتسحقك.

الحقيقة إن لي تاريخا مجيدا مع الجنس غير معلن، فقد كنت زئر نساء في شبابي خاصة مرحلة الجامعة فقد تقلبت بين لحوم نساء متنوعة تقريبا من معظم الجنسيات وقد حدث ذلك بالصدفة البحتة ، فقد مات أبي وأنا في سنتي الأولى في الجامعة وكانت ضربة قاسية لي ، فالمعاش لن يكفي كل هذه الأفواه الذي ترضع منه لذلك كان نصيبي محدودا لا يكفي لنهاية الشهر ،لذلك كنت أسير في شوارع وسط البلد أبحث عن عمل غير شاق لذلك تردت على محلات الملابس النسائية، أو محلات التحف والأنتيكات، وعندما أتعب أجلس على قهوة، أشرب الشاي وأذاكر دروسي ثم أعود وفي يوم وجدت النادل يقترب مني وهو يبتسم ابتسامة بشوشة، عكس عادته تماماً فأنا بالنسبة له زبون "عرة" لا فائدة منه لذلك كان العمال يعاملونني أسوأ معاملة دون أن أتذمر، أو أي شيء ولكن كانت السعادة تغمرني وأنا أخرج ثمن الشاي وأنا مغادر وأحاسب وأنا أرى وجوههم المزيج المعتاد من القرف والاحتقار والحسرة، أفخر فعلاً باننني لم أعط بقشيشا أبداً لنادل، هو يعمل ويقبض من صاحب المقهى، وأنا أدفع ثمن الشاي، المصريون لن يتقدموا أبدا بهذا الطريقة السيئة في التعامل، أخرج علبة السجائر وناولني واحدة.

كيف حال الباشا وغمز بعينه، هرشت في لحيتي النابتة وأنا متحير من هذه الغمزة ماذا يرد مني الوسخ، هل يتصورني شاذاً ؟ الحقيقية غمرني عرق فالواحد راجل مفيش كلام والكلام ده صادم، هززت رأسي يعني إيه ؟

- أشار لسيدة تجلس في ركن داخل المقهى وقال: اللبوة معجبة بيك، عايزة لا مؤاخذه تعمل معاك الصح

-ضحكت وقلت له: الصح الصح .

- أي وربنا المعبود.

نظرت إليها كانت تبدو في الخمسين، ولكن مازالت تحتفظ بجمال متناسق لكن لم تكن جذابة،كانت تلبس بلوزة برتقالية خفيفة ويظهر مساحات كبيرة من جسمها ورغم ذلك كانت غير مثيرة، تبدو قوية، ابتسمت لي عندما أطلت النظر إليها فظهر صف أسنان وكأنه لحصان تبادلت معها الابتسام ثم قمت وانتقلت الى الترابيزة التي تجلس عليها فقالت :

- أهلاً وسهلاً بعربية مكسرة فقلت I speak good English-

تحدثنا فترة طويلة عن الحياة في مصر ومدى صعوبتها وهي كانت ترى عكس ذلك تماما وترى أن مصر بلد غاية في الجمال ،فالأسعار رخيصة والشعب لطيف وجميل وودود والشرطة تقوم بعمل جيد الخ وأن حكيت لها عن حلمي في الخروج من هذه البلد، ثم ذهبنا معها لشقتها وعملنا الصح وظللت معها فترة طويلة وعرفتني على صديقاتها وازدهرت أحوالي بشكل جيد وانتقلت لعدة شقق بعد ذلك حتى قابلت سيدة أعمال مصرية، كانت أيضاً كبيرة في السن وظللت معها لفترة طويلة كانت تدفع جيدا ولكن تحت شروطها، يعني لي مصروف شهري ولي مطلق الحرية في عمل ما أريد ولكن عندما تطلبني، أكون جاهزا لها. انتهيت من الدراسة وتوسطت لدى شركة مقاولات كبرى للعمل كمهندس إنشاءات .

(٤)

عدت للبيت وبي هموم العالم، أخذت دشا وقلت أجد السلوى، أو باباً للنجاة عند زوجتي خاصة أنها أكثر خبرة وجسارة في هذه الحياة، فهي من تذهب للسوق ،وتفاصل مع الباعة وتشتري ملابس الولدين والسجاد من الوكالة وتتعامل مع مدارس الأولاد وتتصرف لا أعرف كيف؟ في توفير أنبوبة البوتاجاز، لذلك بالتأكيد ستجد طريقا آمنا لهذه المهمة وعندما أخبرتها بتفاصيل ما جرى لي ضحكت من خوري وهلعي وأخذت تعذب فيّ من خلال رسم سيناريو متخيل ينتهي برصاصة في قلبي مباشرة، أو تهشيم رأسي ببلطة، أو قطع زوري بسكين، وكلما حاولت إسكاتها تزيد ضحكاتها فجراً وفحشاً.

-هيقطعوك حتت هيشتتوا شملك، هيقصوا ودانك وتمشي في الشارع من غير ودان. أخذت تتفنن في تعذيبي، بوصف تفصيلي لطرق قتل بشعة حدثت في الواقع، أو شاهدت أحداثها من خلال السينما ، زوجتي مخبولة بمشاهدة الأفلام الأجنبية وحاولت استمالتي من خلال حكي أحداث الأفلام المشوقة، وكلما حاولت استرضائها وجلست أمام التليفزيون أشاهد فيلم معها أغفو بعد دقائق وكأن هذه الأفلام تبث حبوب منومة ورغم رعبي من هذه السيناريوهات الكارثية إلا إن داخلي كان متلذذا بكل هذه الدماء، هذه البشاعة هزتني، أثارتني بعمق مدهش، حتى أنني كنت أمثل الفزع بإتقان كي تستمر، وأنا في بوتقتي السرية أرفع القناع عن رأسي وجسدي المحطم وأضعه على عدو من أعدائي، كل من أذاني ودمر حياتي وحولني لكائن مرتجف منطوٍ بداية من جاري السافل ،أنهكني ضربا حتى تبولت على نفسي عندما أمسكني في بلكونة شقته الكائنة بالدور الثاني عندما سقطت الكرة وهي عادة ما تسقط، وكل مرة من قذف الكرة، يصعد من خلال مواسير الصرف ويحضرها خاصة أن الجار لا يفتح البلكونة أبدا, ولكن حظي العاثر جعله يفتح البلكونة لحظة مد يدي لالتقاط الكرة أمسك وقعت يا شاطر.

وضربني علقه ظللت أذكرها طوال حياتي، خاصة أنها مرتبطة بيوم ميلادي، ولم أستطع أن أقول ذلك لأبي خوفا عليه وحتى لا أورطه في مشاكل خاصة إن أبي رجل مسالم وطيب، ولا يحب الدخول في مشاكل مع العوام، وكثير ما يقول لى، خليك في حالك، تعيش مستور، هتضرب كف تنضرب، يبقى ليه الخناقة من الأول؟ ونصائح أبي دائما ما تكون في الصميم لذلك تتبعت خطوة، بل تفوقت عليه بقوة احتمالي وصلابتي، وصبري من أجل الحصول على ما أريد، ثم هناك جاري الكلح الذي يظل في البلكونة بالسليب والفانلة، يدخن طوال الليل ويتلصص علينا، هذا القذر الوسخ يريد إغواء زوجتي ويتصور نفسه أحق بها مني باعتباري بلف وطامبة لا لي في الكير ولا في النفير، لكن أنا أثق بزوجتي ثقة عمياء وأعرف أنها لن تخونني أبداً لأنها تقول لي كل شيء وهى من قالت لي بالفعل كل ما يقوله لها هذا العيي أثناء ركوب الأتوبيس ذهابا وعودة للعمل أو مرورها من أمام العمارة، أو عندما يجدها في السوبر ماركت ، كان من الممكن أن أواجه هذا الحقير، ولكن فضلت أن أترك هذه المهمة لزوجتي. بل كنت أطلب منها أن تقول له كلاماً محدداً أظل أرتب فيه طوال الليل، كلام يفتت الصخر، وقد كان يختفي عدة أيام بعد أن تعطيه زوجتي الدش السليم ثم يعود مرة ثانية يقعي ككلب عجوز ينظر في بلادة، أما زملاء العمل فليس لهم مني غير تحزيمهم بالديناميت وتفجيرهم. يبدو أنني سرحت وأصبحت ردود فعلى غير كافية لاستكمال حديثها لذلك توقفت عن الكلام, زوجتي كئيبة ولم أرها تضحك منشرحة القلب تفيض بالفرح والسرور مثل اليوم، لذلك هربت منها إلى الحمام ، أول مرة أتعرض لموقف كهذا فقد عشت حياتي في الظل أتجنب أي شي من الممكن أن يؤثر على مصيري، أو طموحي الهستيري في الحياة أطول فترة ممكن، أن أظل أحيا في هذه الحياة حتى لا يعود أحد يعرفني، أو أعرف أحدا، الحياة تستحق أن تعاش حتى لو لم يبقَ في النبي ادم حي سوى عين وشتات ذاكرة، على الأقل أحسن من المجهول، لذلك أحافظ على صحتي من خلال كشف دوري على كل أجزاء جسدي, أكل صحي، وأمارس الرياضة

يومياً، ولا أشغل نفسي بمعارك تافهة، أو أتورط في مناقشات عامة، أو اهتمامات بالسينما، أو الأغاني. فقط إنسان يعيش في الحياة، أحافظ على الصلوات الخمس، أهتم بمتابعة دروس الأولاد، أهتم بنظافة نفسي وأولادي، أو الشقة التي أسكنها في مدينة العمال لا أختلط بأحد، أو أسمح لأحد بزيارتي لذلك حياتي موزعة بين عملي كمحاسب في شركة مقاولات عملاقة، والرياضة، والنوم. ورغم تحسن أحوالي المادية التي تسمح لي بالسكن في حي راق لكني رفضت تماماً، لماذا؟ وزوجتي تكاد تجن من تصرفي الأحمق برأيها الذي يجعلني أتمسك بمنطقة تعج بالفوضى والعنف وأرفض أن أكون ضمن الطبقة الراقية، حيث الأماكن المفتوحة، والحدائق، والتعليم الجيد، والقرب من دوائر السلطة حيث يد السلطة كائن رحمي يحمي السعادة والحرية، كما تتاح لنا نسج علاقات اجتماعية، مع علية القوم.

-أنا أرى علية القوم في الشركة وهم يحتقرونني ولا يريدون أن يقيموا معي علاقة اجتماعية مهما حاولت.

زوجتي, لديها رغبات متوحشة في التملك، وسعار تجاه كل الأدوات الاستهلاكية المنتجة حديثاً خاصة المستورد، كلبية نهمة تجاه الأكل والجنس شيء لا يطاق، أنا لي قانوني الخاص وهي تريد أن تستنفد حياتي، تزن، تزن، تزن، على ولا تمل أبدا لكي تحقق رغباتها ولكن رغم جسارتها في مواجه الحياة فكل آمالها تتحطم على صخرة عنادي الصامت ولا الأبدية التي تقربها يوما بعد يوم إلى الجنون، لو كان المجال العام مفتوحا لكانت سياسية لها شأن رفيع ،وتقدمت الصفوف_ لا تعرف رأيي ذلك ولكن أصره في قلبي _ هي قائدة بالفطرة فهي كفاءة، واجتماعية بشكل مذهل، ولها قدرة على جذب أي بشر تقابلهم وتجعلهم يحبونها، لا أعرف كيف؟ ولكنها موهوبة في نسج دوائر اجتماعية مختلفة من أرقى الناس وأحطهم فهي تألفهم بسرعة وتضبط مزاجها على مزاجهم دون أن تستلب بل قد تقول رأي ضد الجموع، وخلال المناقشة يغيرون رأيهم محاباة. لها، داخلها شيء كويس، أو أن تربيتها كانت حسنة، ولكن

هل تستطيع العمل في هذا المناخ الكابوسي، طبعا واحدة مخبولة مثلها لديها نزاهة من نوع ما، رغم أن بها لؤم يجعلها لا يستطيع أن يخدعها أو يسيطر عليها رغم أنها عندما أحكي أو أكذب في شيء تقول آه آه لا أعرف أن كانت تصدقني أو تأخذني على قد عقلي ولكن للحق هي أمينة من نوع رفيع لا تقبل أبدا الطرق الملتوية، أو التزلف والنفاق لذلك سيكون مصيرها مظلما، هي لا تعرف هذا الرأي ولا تعرف قدراتها ولو فكرت أمامها بصوت عالٍ لصعقت فهي تراني مغفلا أحمق لا يفهم في الناس، أو الحياة وقد يكون هذا صحيحا ولكن الجبن الغريزي داخلي يجعلني افتح عيني على أخرهما، لفهم سلوك البشر، كي أتقي شرهم وخبثهم وعنفهم، ولأن بها سذاجة، أو لأنها لا تتاح لها معرفة كيف تدار السلطة تتصور أن الأمور جيدة ،وأن الوزراء والمسئولين في بلادي يمارسون عملهم بنزاهة، ولكن أنا أعرف من خلال عملي في شركة المقاولات كيف تدار وزارة الإسكان؟ يا بوي ملف كريه من الفساد والإفساد، متورط فيها كل الطبقة السياسية ورجال الأعمال، وأنا دوري في الموضوع ؟ أنا لا شيء، أنا لا أوقع على ورقة واحدة بها مجرد شبهه من بعيد للفساد، لذلك يتم إسناد أخس وأحقر الأعمال، وأنا لا أشكو! وماذا لو اشتكيت ؟ سيتم تدميري وتدمير مستقبل أولادي، أنا أعوم على شاطئ البحر ولا أنظر لمن يعوم في العمق، هو أنا أهبل أضيع نفسي ؟ أنا دائما في الأمان؟ كم من مغامر تم التضحية به لصالح كبار رجال السلطة ورجال الأعمال، ويشرف الآن في سجن طره، صحيح أنه مسجون مميز ولكن السجن سجن، مفيش كلام, كم من الأفاقين المتسولين ارتفع نجمهم في السماء وأصبحوا ملياردیرات. هذه بلدة لا قانون لها حتى ألعاب القمار لها قوانين تستطيع أن تكشفها وتمارس لعبتك وأنت مطمئن نسبياً، أما هذه. أبدا، كل شيء يبدأ وينتهي بالصدفة، ترتفع، تسقط، تثري، تعيش تحت خط الفقر، يتم التنكيل بك، تنتشل من الجحيم وتقذف في نعيم لا عين رأت ولا أذن سمعت, أنت ونصيبك ، زوجتي جميلة ويحسدني عليها رجال المنطقة وهي كانت تتصور أن جمالها قادر على أن يدير الأمر لدفتها ولكن هذا لم يحدث، لأن الجنس

بالنسبة لي شيء هامشي، فأنا أمارس الجنس مع زوجتي مرة في الأسبوع ، أحيانا أختلق مشكلة لكي يمر أسبوع أخر بدون ممارسة، أخذا بنصيحة أبي بخصوص العلاقة الجنسية " الدور اللي يفوتك أحسن من اللي يصيبك "وقد رفضت رفضا باتاً، رغم إلحاح زوجتي بالنوم معها على سرير واحد، وأنا رأسي وألف مركوب ما أغير من عاداتي، فمن المخبول الذي ينام جوار آلة امتصاص حيوية الجسم، وقد كان فرغم أني لين وأتجنب المشاكل مع أي إنسان ولكن أجدني في مواقف معينة غاية في التصلب والعناد، مثل طفل مدلل مهما يحدث له يظل متشبثا بلعبته مهما حاول الوالدان بشتى الطرق أخذها منه لأي سبب، أنا هذا الرجل.

فرضت أيام محددة للممارسة الجنسية ،لا أحيد عنها أبدا وإذا مر اليوم لأي سبب لن يستبدل بيوم آخر وقد شكتني لأختي وترجتني أختي بعد أن قدمت لي تبريرات عن حاجات المرأة لأشياء تتجاوز الحاجة الجنسية، مثل الحنان والتعاطف، ولمسات عاطفية بسيطة ولكنها مهمة لدى المرأة مثل أن تضع رأسها على كتفك أو تمسك يدها، تشعر بالأمان بالفعل, كلام غير مقنع بالمرة، لأن المرأة عموما أنانية وتريد أن يظل الذكر يدور حولها كالدبور، وطلباتها لا تنتهي ولو استجبت لها، انتظر بعد ذلك سلسلة من الطلبات التي تستنزف البدن والعقل، أنا استغربت أن أختي تقف معها ضدي ،وهى التي كانت تدس سمومها من الكلام ضدها وتسخر منها وكنت أستمتع بذلك وهي تقلد طريقة كلامها ومط رقبتها وهز رأسها، ههه أختي دي مجنونة وشقاوتها عسل والأقرب لقلبي، ولكن بعد الزواج استطاعت زوجتي أن تضمها إلى صفها وتتبنى أفكارها وتقف معها عمال على بطال، لكن ليس معي ،فلم تخلق امرأة أبدا مهما كانت قوتها وجبروتها لتهزني، أو تنال مني لسبب بسيط إنني لست في احتياج لها، فالمرأة بالنسبة لي مجرد وسيلة لإفراغ الطاقة فقط وإنجاب الأولاد غير ذلك لا شيء لذلك عندما غضبت وتركت البيت وذهبت لبيت والدها، سعدت لإتاحتها الفرصة لي لتعرف من أنا؟ كان ابني ماهر عنده تسعة أشهر في ذلك الوقت، لذلك استمريت في

حياتي العادية كما هي مسكت الشقة ومسحتها وجعلتها مثل البرلنت ووضعت الملابس المتسخة في الغسالة التي تركتهم الهانم، ونظفت الحمام المنتن، ومسحت الحوائط ونفضت الشبابيك وغسلت المطبخ حتى بدا يلمع، وعملت كوب شاي لنفسي وجلست أتفرج على برنامج عالم البحار، حيث أحب رؤية هذه الكائنات الهشة المدهشة، وأنا في غاية السلام الروحي ماذا أخذنا من العالم، سوى الاضطراب والقلق واستهلاك الصحة، هى كانت تتصور أنى سأذهب إليها في أول يوم، أو حتى بعد كام يوم بحجة رؤية ماهر على الأقل، ولكن لم أفعل، ماذا سيحدث له؟ وظلت. أتذكر ذلك تسعا وعشرين يوماً ثم دق الجرس، فتحت وجدت أختي تتقدم وهى ورائها تحمل ماهر، حملت الطفل منها ودخلت ثم أخذت أختي تنهرني بل سبتني ونعتتني بمتبلد العواطف على وزن مطرب العواطف وزوجتي في المطبخ تعد العصير وأنا ملتزم الصمت، وماذا أقول ، أي كلام إهدار للطاقة، لن أعودها على الأخذ من تتعود على الأخذ لن تفكر أبدا في العطاء، هذا ما تعلمته مبكرا من الحياة فلقد نشأت يتيما وربتني زوجة أبي وأخواتي البنات الست، وثلاث من زوجة أبي لذلك كلما ضعفت وأعطيت واحدة من أخواتي شيئا؛ أجد جيشا وراءها يريدون مثلها وأكثر ويبدأ الغضب وكل واحدة تفكر في عقابي بطريقتها وأظل شهورا تحت مقصلة التعذيب، لذلك دربت نفسي على إفساد أشيائي على أن أعطيها لسافلة من السفلة، وكلما زدت تقطيرا أجد تدليلاً وعطايا من كل نوع وكلما كبرت ازددت سطوة، وغلبة؛ خاصة أنني وسيم لي عينان خضراوان ووجه أبيض مشرب بحمرة وشعر يميل للذهبي وصوتي يخرج بطريقة محببة لدي النساء وأتفنن بابتكار كلمات جميلة لهن خاصة أن لي أسلوبا منمقا وقد كنت أحصل في التعبير على الدرجات النهائية في سنواتى الدراسية وأنا من كان يكتب الخطابات الغرامية ورسول للغرام بين الطلبة والطالبات في مقابل مبلغ مالي، فكنت أظل طوال الليل أبتكر صورا تدمي القلب لوعة وشوقا، وأنا من يتفنن في خلق استعارة مكنية تهز قلوب العذارى، وقد عرضت بعض هذه الدرر على أصدقاء نعمات من يسمون شعراء

وهم أبعد ما يكون عن الشعر، هم أفسال، فقاعات لا قيمة لها، أجيال مغيبة لا تعرف قيمة المنفلوطي ولا على أحمد باكثير، ولا شاعر النيل حافظ إبراهيم، ولا أمير الشعراء أحمد شوقي، لذلك ليس غريباً على أن أسجل كل يوم ما حدث ويحدث لي في حياتي اليومية في أجندات مقدمة كهدية من الشركة مسلسلة سنة بسنة.

كنت مثل رجل يقف على بحيرة ويقطع خبزا ويرميه للبط الذي يتلقفه فرحاً، كنت دمية حقيقية حتى أن إخوتي خرموا لي أُذني ووضعوا لي حلقا، وكانوا يسرحون شعري كالبنات ويضعون لي الفيونكات ويطلون شفاهي في المناسبات وعندما راني أبي أخذ يضحك، يرحمه الله كان مأذون الحي وهو رجل متسامح يقرض الشعر وله قصائد منشورة في المناسبات الدينية والوطنية في مجلة الأزهر وكان معروفا بخفة دمه وكان يحفّظ القرآن لأبناء الأسر الثرية مقابل مبلغ شهري لذلك كنا نعيش في رغد وقد تزوجت أخوتي واحدة وراء الآخرة.

المرة الثانية الذي كادت أن تجن منيّ حدث بعد عدة شهور اختلقت مشكلة معي وثارت وقامت بتكسير المطبخ كانت في حالة هياج رهيبة وأنا ملتزم الصمت كالعادة خائف أن تمد يدها عليّ، أو تقذفني بأي شيء لذلك كنت منتبها، لكي أهرب وقت الضيق، ثم حملت ابني وبعض الملابس لها وله في حقيبة وقبل أن تذهب، نظرت لي ووجهها يتقلب على كل الألوان من الحقد والمرارة والكراهية :

-وحياة أبويا لا تندم، محمد أخويا منتظر إشارة مني، أو من أبويا وأشارت لي بعلامة الذبح .

اتنظر وكأن نحلة غرست شوكتها في عيني .

- بتهددديني خلاص نتقابل في القسم، وابن عمتي بيشتغل صول وهيحميني .

-ابن عمتك ده بيحتقرك

-عرفتِ منين ؟

أغلقت الباب وراءها وتركتنا للهواجس، والظنون وتصورت أخاها البغل اللي عامل زي النمر المتوحش يدخل على البيت ويضربني فأصبت بالذعر، نظرت من الشباك عليها كي ألحق بها وأطيب خاطرها بكلمتين؛ فوجدتها تركب (تاكسيا)، فكرت في تدبير مكان لأنام فيه بعيدا عن الشقة، لا تعرفه حتى تهدأ ثم أرسل لها أختي، الوقت أمامي طويل؛ فأخوها موجود الآن في المنصورة يزور أسرة زوجته ولن يعود إلا نهاية الأسبوع، ولكن ماذا لو عاد لسبب لا أعرفه، أصبت بقشعريرة رعب مما جعلني أجمع ما تيسر لي من ملابس، وأضعها في حقيبة سفر حصلت عليها من الشركة، وخرجت من البيت أجري على درج السلم، حتى نزلت للشارع ودخلت الجراج، وركبت سيارتي واندفعت في الشوارع، لا أعرف أين أذهب؟ ولماذا ورطت نفسي في هذا الفخ الرهيب؟ أخذت أدور في الشوارع أفتش في ذاكرتي عن صديق رجل ،لم أجد فكل أصدقائي من النساء، ولكن معظمهن متزوج ولا يوجد أحد يمكن اللجوء إليه، إلا نعمات وهي تعيش وحيدة في المهندسين، وقد كنت معتادا على الذهاب إليها مع زوجتي وأحياناً وحدي وكانت تطبخ في ذلك اليوم كميات هائلة من اللحوم والخضار، وكنا عندما ننتهي، أضع اللحوم والخضار في أكياس وأخذها معي، فانا أكره جداً أن يتم إهدار شيء، يمكن أن نستفيد منه، وهى كانت تشجعني على ذلك، طبعاً زوجتي كادت تصعق من تصرفي وتراني بشعا، ولكن هذا لا يؤثر على نفسيتي، أو كرامتي فما الجميل في ترك طعام يمكن أن يكفينا لمدة أسبوع ليرمى في الزبالة ثم أن طبيعتها أن تطبخ كل يوم، وبكميات كبيرة للضيوف الذين يتقاطرون عليها يومياً، أو تنادي البواب لكي يأخذ الطعام وقد تزوجتْ لفترة قصيرة وطُلِّقت، ولم تنجب أطفالاً ولم تجد رغبة لديها في الزواج مرة ثانية وانشغلت بالفنون من شعر وموسيقى وزيارة المتاحف ومعارض الفنون التشكيلية ونوادي السينما، وعقدت صداقات مع الفنانين والروائيين والشعراء، وتحضر ندوات وتدعم البعض مالياً وعقدت ندوة شهرية، كما أنها تتميز بالرقة ودماثة الخلق . ركنت السيارة وصعدت إليها حيث استقبلتنا كالعادة بود

وابتسامة جميلة، جلست نتكلم حول العمل والحياة ثم حكيت لها ما جرى وطلبت منها أن أبيت عندها ثم أتصرف في مكان أخر، استغربتْ من تصرف مها وكانت مندهشة أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة خاصة – أنك– تقصدني، مثال للرقة والذوق والتعامل المثالي مع المرأة، لم تمانع أن أنام على الكرسي الذي يتحول إلى سرير في الصالون، وتركتنا ودخلت ،وفي الصباح قمت مبكراً كالعادة دخلت المطبخ، وحضرت الإفطار وعندما استيقظت انزعجت جداً من أنني قمت بإعداد الطعام، ولكن لم أبالِ بانزعاجها، رغم أنها أخبرتني أنها فعلا لا تفطر وتكتفي بقطع صغيرة من الكرواسون، قلت لها :

الأكل شهي ويفتح النفس، كان هناك بيض بالزبد البلدي وعسل نحل وجبنه رومي وطحينة ومربي فيتراك، ضحكت ضحكة آثرة وقالت :

صعب بالنسبة لي. فترجيتها أن تنتظرني لكي أذهب معها للشركة وقد كان، هي لا تبالى بالناس وهذا حسن، وعندما انتهي موعد العمل عدت معها وصممت على إعداد الطعام وفي الليل ذهبت معها لزيارة معرض لفنان عربي مهتم بالخطوط، أخذت أنظر على الخطوط الملعبكة، والذي يتلقى الفنان بسببها مديح الزائرين ومنهم نعمات، وشربت عصائر وكولا وانتظرت تقديم كيك، ولكن لم يحدث وعند انتهاء السهرة .عدنا إلى البيت في ساعة متأخرة وظللنا نتحدث حتى آذان الفجر، ونمنا في ذلك اليوم، ولم نستيقظ إلا بعد الظهر ثم أخذنا _ بعد الإفطار _ نحكي عن العمل والشركة، وقد تم تعيينها لكفاءتها ودور خفي للسيدة أمها، التي كانت تتمتع بنفوذ؛ بسبب نشاطها الاجتماعي وثروتها الصغيرة الذي ورثتها من أبيها، حيث دخلت قطعة الأرض ضمن كردون المدينة، وباعت القطعة بمليون وتسعمائة وخمسين ألفا، وكانت عضواً فاعلاً في نادي الليونز وصديقة لزوجات كبار الشخصيات السياسية والمالية، وقد طلبت الطلاق من زوجها بعد أن استحالت العشرة بينهما، حيث كان العقيد سابقاً والموظف الكبير بوزارة الثقافة زير نساء مجرم، واستطاع إقامة شبكة من العلاقات النسائية

مهولة وقيل_ وان ظل الأمر في إطار الشائعات والتكهنات_ أن الباشا يتاجر في الرقيق الأبيض وأشهر مورد للحم الأبيض لأبناء الطبقات الثرية التي طفت على سطح الحياة المالية والسياسية وعقد صداقات مع نجوم الفن والرياضة، وفاز بعضوية مجلس الإدارة لنادي رياضي عريق وأخذ يظهر في التليفزيون باعتباره مثقفا مخضرما، وله باع طويل في أصول الحداثة، وما بعد الحداثة، وقد رفض رفضاً باتاً مسألة الطلاق وقد كان منزعجاً أشد الانزعاج وقد ذكرها بالليالي الجميلة والعشرة والسهرات الفانتازيا المروعة ولكنها أبت ؛فأخذ يراوغ ويهرب إلى أن عرضت عليه مبلغاً مالياً كبيراً فوافق؛ وهذا السلوك مستغرب بالطبع من رجل (جينتلمان) ومن أسرة عريقة أيضا، وقد ترك البيت دون أن يأخذ ملابسه ؛سرعان ما تزوج مطربة متوسطة الشهرة، والموهبة واستطاع بدهائه وعلاقاته أن يجعلها تغني في كل المناسبات الوطنية، والمسرحيات الغنائية، التي تقام على مسارح الدولة، ولم يكن يرى ابنته إلا صدفة، لذلك نشأت "نعمات" في عزلة، مما جعلها تكن كراهية دفينة للمال عموما، والطبقات الأرستقراطية الجديدة، الطفيلية الذى كونت ثرواتها من خلال نهب المال المنظم، أو استغلال النفوذ.

وعندما غادر مدير الشركة بعد أن تم التمديد له للحدود القصوى ووصل الأمر ليتبول على نفسه أثناء الاجتماعات. وجاء رئيس جديد للشركة أزاح كل المحسوبين على الرئيس السابق من أماكنهم إلى أماكن هامشية، أو بدون عمل حقيقي، وكانت هي من ضمن هؤلاء، تذهب كل يوم تقضي وقتها في قراءة الجرائد، أو في قراءة رواية وعند انتهاء العمل تعود مرة ثانية للبيت، لم تكن ممرورة، أو تعسة من هذا التهميش، بل تقبلت الأمر بهدوء وأريحية مما جعلها الزملاء الجدد المهيمنين على الشركة يعاملونها باحترام، وفي اليوم الثالث ذهبنا للعمل وعندما عدت معها، بدت صامتة وأحسست أن هناك تغيرا، ولكني لم أبال وأخذت أشكو لها الأمراض التي أعاني منها، والتي تجعل حياتي جحيما نظرت لي مستنكرة: إنت صحتك حلوة جدا، ليه بتقول كده ؟ صمتُّ ولم أستطع الرد وفي الليل طلبت مني بشكل مباشر أن

تتدخل لحل المشكلة بيني وبين زوجتي، ولكنني رفضت بشدة، فقالت: خلاص يجب أن تعود لشقتك، كانت متجهمة، وتخرج منها الكلمات متوترة، وجدتني أنخرط في البكاء ودموعي تهطل غزيرة، وأخذت أشرح لها كم الأخطار التي من الممكن أن تحدث من شقيق زوجتي المتوحش ،وإنه ممكن أن يقتلني، أو يعمل لي عاهة مستديمة ويكسر أسناني، صمتتْ فترة وقالت لي خلاص : مفيش مشكلة بس إنت خليك في حالك وأنا في حالي، لا تتبعني، أنا أعيش حياتي بطريقة معينة، وروتين معين ،مسحت دموعي وقلت :

شور اللي تشوفيه، وظللت أتجنب مقابلتها في نفس اليوم، ثم انتهزت خلو الثلاجة من الضروريات وجلست وكتبت قائمة بالطلبات وقدمتها لها، فنظرت فيها وقالت: خلاص هشوف الموضوع ده. استنكرت الأمر وقلت لها أنا اللي هجيب الطلبات قالت: خلاص أتفضل وناولتني القائمة، وقفت لتعطيني الفلوس فلم تكن منتبهة حتى نبهتها لقيمة المشتريات، فدخلت الغرفة وأحضرت الفلوس وناولتها لى، ذهبت للتسوق ثم عدت وغسلت الثلاجة،وأفرغت البضاعة في الثلاجة, أو أقوم بغسل الملابس في الغسالة الفول أوتوماتك وقد رفضت في بداية الأمر ولكنها استجابت بعد ذلك، فأنا صبور في المناقشة جداً، ولى طول بال يجعل الطرف الأخر يرضخ لمنطقي حتى لو ظللت شهورا لا أيأس وعندما كان الجيران يروننني في البلكونة يظنون أنني تزوجتها، أو رواد الندوة، أو أصدقاءها الذين يتقاطرون على شقتها المدهشة، وهذا كان يريحني جدا ويجعلني أكثر ثقة، وحب لهذه الدنيا وكنت أتمنى أن أظل كما أنا، فكنت أقوم بكل شيء يريحها، حتى لا تجد مبررا للضيق، أو التفكير في الاستغناء عني، فكنت أختار لها الملابس، أقترح لها نوع العطور المناسب، الحقائب، تسريحة الشعر، الحلاق المناسب لقص شعرها، بل أنني كنت أشاركها القراءة، وأدعم رأيها أثناء، الندوة كنت أتابعها كظلها رغم تنهداتها غير المريحة، أو تهجمها غير المبرر وإحراجي في مواقف أنا أدعمها فيها، وظللت حتى وجدتها في يوم تدخل على وفي يديها زوجتي . صدمت وجلست

صامتاً أفكر في هذه المصيبة، لم أجد حلاً مطلقاً؛ فجلست دون أن أشارك في الحديث عما جرى ولم أبال بهجوم زوجتي أو انحياز نعمات غير المبرر، كنت أشعر بالغم من خيانة نعمات، وتسليمي لزوجتي بهذا الشكل الوقح والغادر ،وفي النهاية رفضت الذهاب بحجة الخوف من أخيها، ولكنها أقسمت لي أنها بالفعل لم تقل شيئا لأخيها المشغول حالياً بإنهاء أوراقه للسفر لدبي للعمل هناك، وعندما لم أتزحزح من مكاني صرخت فيّ نعمات :

إنت كابوس. وأقسمت إن لم أخرج مع زوجتي لتحضر البواب لإلقائي خارج الشقة، ذعرت بجد، كانت شرسة ومتنمرة بشكل لم أرها بالمطلق هكذا. عدت للبيت وجدت الشقة زبالة فعلا كوم ملابس، والحشرات في المطبخ أرضية الحمام عفنة : غير ممكن أعرف أعيش في شقة بالنتانة دي، دخلت عليها غرفة النوم وجدتها ترتدي قميص نوم وتضع ماكياجا كاملا، تركتها نائمة في وضع خليع وشغلت الغسالة، ولم أنمْ إلا بعد الفجر؛ حيث انتهيت من الغسيل ومسح الأرضيات وتنظيف المطبخ، وكوم الأطباق والشوك والأكواب، زوجتي لا تحب الأعمال المنزلية وتعتبرها عقابا، ولكن في عمليات البيع والشراء، والتعامل مع الإدارات الحكومية، العمال والصنايعية "بيرفكت"، وأنا أتفهم ذلك لذلك أترك لها المعاملات والمستخلصات المادية والإدارية وأساعدها في شؤون المنزل.

ثم دخلت البلكونة، فوجدت قصاري الزهور، ونباتات الظل جافة تماما، ذهبت إلى المطبخ وسحبت (جركن) مخصص لري الأشجار والزهور، وعندما انتهيت جلست في البلكونة وحدي أفكر في مصيبتي السوداء، أقلب في كل الاحتمالات، في الفرضيات، في خطط تخرجني من هذا المأزق دون أن أخسر شيئا، هذا التحدي، الذي فُرِض عليّ، لأول مرة جعل داخلي يغلي وأشعر برغبة حقيقية في قبول التحدي، في دخول المعركة بكل قوة، أنا الخامل البائس جائتني الفرصة للعب مع الكبار، دخلت مكتبي وأخرجت أجندة وأخذت أخطط بالمسطرة والقلم تخطيطا أوليا لخط السير، والمسافة، والإمكانات المتاحة، وخطوط المواصلات المؤدية

للقرية والمناطق الخطرة، المرشحة لتكون مسرحاً للعمليات والخطط والخطط البديلة حتى برقت في ذهني خطة شيطانية وتتلخص في خدعة بسيطة. كيف؟ هناك خطة للسطو للحصول على الحقيبة بالفلوس من (س)وشركائه، وهم على دراية بكل شيء يخص الهدف، العنصر الإنساني – سير العملية، طريقة إيقاف السيارة، مصير العنصر البشري، تصريف الأموال – وهناك أخر يقف عارياً تماماً أمام عملية غامضة؛ لذلك كان عمل (ص) الوحيد أن يربك الكل من خلال تغيير خط السير، فالكل يعلم جيدا أن (ص) سيصل للقرية من خلال خط سير محدد سلفاً من خلال سيارة الشركة بجوار الحارس، وسيتم مراقبة خط السير من خلال مراقبة حاذقة من عنصر محترف، وفي منطقة محدده يقوم العنصر لنقل عين بالوقوف بالسيارة أمام سيارة الشركة ،وفي هذه الحالة تقوم العناصر الأخرى المشاركة بإحاطة السيارة ، وقتل كل من فيها والحصول على الحقيبة، عملية نظيفة فعلاً، ولكن(ص) له خطة مختلفة وهي أن يركب في البداية سيارة الشركة بشكل عادي، عندما يحصل على الفلوس من البنك ويتركهم ،حتى يطمئنوا لسير خطتهم ثم في لحظة، أحددها مناسبة قد تكون بالقرب من موقف باص عام ؛أنزل بالحقيبة بأي حجة، وأهرب من السائق والحارس والعنصر الأمني المدرب ربما يكون مأمونا من شركة الأمن الذي تقوم بحراسة الشركة وممتلكاتها، حتى أذوب منهم، فالطبيعي في تلك الحالة أن تصل مكالمتان للمدير واحدة من العنصر المراقب ،وهو يلهث غيظاً وكمدا والحارس (المدهول على نفسه) والذي فوجي بسلوك غير متوقع من (ص) المغبون، المدير عندما ينصت للمكالمة بالتأكيد سيتحطم من هول المصيبة الذي وقع فيها، يمطرهم بالشتائم السخام على رؤوس أولاد العاهرة الفشلة أمام موظف خائب الرجاء، ثم يتناول سماعة التليفون؛ ويتصل بشركائه الأوغاد ليبلغهم بفشل العملية، ويطلب منهم العودة سريعا للبحث عن الموظف الهارب، يكون ساعتها (ص) في تنفيذ الخطة الثانية وهي الركوب من موقف عادي في باص عام متجهاً لقرية النهر الأبيض.

عندما وصلت لهذه الفكرة العبقرية كنت في ذروة الفرح والدهشة لاكتشافي أن في داخلي إمكانات غير مستغله، وأن هناك شخصا أخرَ مغمورا قويا مغامراً يُجاهد للخروج ، وظللت أتخيل وجه المدير وهو يكتشف كم كان شخصا بليدا وتافها وعقيم الخيال، وأن شخصا مثلي استطاع أن يضع داخل مؤخرة مديره وتدا، أما زوجتي فقد كانت فرصتي لأتشفي فيها عندما يتم اختطافها وتعذيبها كطريقة للضغط علىّ هههههههه للضغط علىّ أنا..

(٥)

أخذت أخطط في الأيام التالية لبناء قصر في الصحراء، قصر ضخم به غرف داخل غرف داخل غرف بحيث يحقق لي الأمان، كانت روحي تتوق للأمان بعد كل هذه التجارب العنيفة التي تعرضت لها وقد أصبح حلمي مركزا في بناء هذا القصر ،وحمايته بـ "البودي جارد" المسلحين، رغم أن داخلي يشعر عكس ذلك تماماً وأن خططي سيتم تهديدها والتنكيل بي، ولكن سأظل أحلم فداخل روحي يوجد شاعر، وظيفته الحلم، أتحرك في الصحراء ،أحاول اختيار مكان مناسب، وأضيع الوقت كي أتعرف على ضابط القسم والمحليات والعربان المسلحين، والبلطجية، حتى أجد طريقة للعيش في هذا المكان، في البداية أخذت أجلس فترة طويلة مع الست حسنية، وأرمي لها سؤالا كل فترة فتظل تحكي، عنهم فترة طويلة ثم تتوقف فترة طويلة وتقول: أوع تقول لحد، أنا بحكي معاك عشان باين عليك راجل طيب، وزي أخويا .

أنا محظوظ فمجرد هبوطي لمكان أجد جيشا من النساء حولي يدافعن عني ويحموننني ويقضين مصالحي، من استند على النساء لن يضام أبدا.

في كل يوم أعدُ ست حسنية بالمال الوفير القادم، حتى زادت ديوني بشكل أخجلني أن أطلب المزيد، وأظل جائعًا حتى ترسل لي ساندويتشَ فول أو طعمية أو بطاطس . وكوب شاي، وأظل جالسا أتأمل العمال وحواراتهم، رواد المقهى، الأثرياء الجدد وحواراتهم السخيفة، التي تدور حول البرشام والحشيش والبانجو، ولا شيء آخر، داخلي رغبة حارقة لحصدهم بالرصاص فهم مجرد أوغاد لن يفتقدهم العالم، هؤلاء سبب البلاء يجب خصيهم وتقليل هذا الكم المرعب من الأفواه الشريرة المعطلة يجب غلقها، كيف أي حكومة أيا كانت

تستطيع أن تقيم مشاريع تنموية في ظل هذه الزيادات الرهيبة في عدد السكان، (مفيش فائدة، مفيش فائدة).

مر على وجودي في هذا المكان عام كامل لا تعرف عني أسرتي شيئا، مفقود، وأنا نفسي اعتبرت نفسي مفقودا، وحاولت أن أصنع شخصية جديدة أشكلها كيفما أريد، لذلك طلبت من حسنية أن تدبر لي لقاءً مع واحد من العربان المسيطرين على الأراضي هنا، وقد حققت لي طلبي خلال مدة بسيطة ،وذهبت للقصر لمقابلته، واتفقت معه على شراء ٥٠ فدانا، واتفقنا على المبلغ المحدد، أُحضِرُ فيه المال ويسلم لي قطعة الأرض المستهدفة، وقد كانت قطعة أرض رائعة بحدود النيل وتم تقسيم القطعة الى عدة قطع مزروعة بالرمان والعنب والتين والمانجو، والجوافة، وهناك قطعة أرض للخضروات وبيت قديم فكرت في بناء القصر على أنقاضه بعد ذلك، ولكن كيف أستخرج المال، كيف أستخرج المال، وماذا لو تتبع خطوي العرب، وحاصروني بالرصاص ،ماذا أفعل أنا في هذه الحالة؟ بالطبع سأسلم الحقيبة وبعدها سأنتحر، أحسنت أني قلت له أني أنتظر المال يأتي لي من القاهرة حيث بعت قطعة أرض بمبلغ في المدينة ورثتها زوجتي عن أبيها، وأنها سترسلها مع أخيها نهاية الأسبوع، وظللت أنتظر، أبيت في الصحراء أو في العشة، وفي يوم استعرت عجلة من عامل وذهبت لإحضار الحقيبة، أخذت أسير بالعجلة بسرعة رهيبة ساعدني على ذلك خلو الطريق من المرور كالعادة، والأسفلت الحديث وعندما اقتربت من المكان الموجود فيه الحقيبة وجدت مركبة جيش محترقة وجثث لعساكر ملقاة في الطريق، حاولت إيقاف العجلة ولكن لم تكن هناك فرامل، صعقت وأخذت أجرجر رجلي على الأسفلت المنزلق حتى توقفت، فنزلت من على العجلة وأدرتها فسقط على وجهي والعجلة فوقي، قمت مذعورا، وقد تجلط قدمي وكوعي، سحبت العجلة وأخذت أسير ،وأنا أعرج حتى سمعت صوت سيارة عسكرية وطائرة فوقي، فرميت العجلة وخلعت القميص الذي تهرأ من كثرة الغسيل واللبس والبنطلون ووقفت رافعا يدي في انتظارهم،

حتى توقفت المركبة ونزل منها الجند وقد أحاطوني مشهرين في وجهي البنادق الآلية، وقد غام كل شيء حتى أنني لم أعد أري أمامي سوي بقع سوداء مختلطة، بنثار نور وتشوش ذهني ويئست من الحياة وقلت هذه هي النهاية المحتومة لأخرق، كانت الحياة في كف يده فتركها تتسرب منه، ثم فجأة سقطتُ على الأرض بفعل (شلوت) عنيف ثم توالت (الشلاليت) وتم جرجرتي فتمزقت الفانلة ،وأصبحت عاريا فتم جرجرتي من شعري ثم تم قذفي في المركبة، ولم أستطع القيام فقام جندي ورفعني من تحت باطي ثم قيد يدي خلف ظهري وعصب عيني، مع أنني لم أكن في احتياج لذلك ،فلم أكن أرى وقد نز دم من عيني فقلت، عوضني يا رب عوض الصابرين ثم أجهشت بالبكاء وقلت وحق الله أنني لبريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، فضحك عسكري وقال ذب، فقلت ذئب، ذئب فعاجلني بضربة أفقدتني التركيز وقد أغمى على ولا أعرف بعد ذلك ما حدث لي ولكن عندما أفقت وجدتني في سجن يقال له "العزوني" وقد فقأت عيني اليسرى، لذلك لم يتم تعذيبي، أو التحقيق معي بل تركت في سجن ضيق به ٢٥ سجينا، في محافظة الاسماعلية وهو مكون من ثلاثة أدوار ،وهو سجن حربي ملحق بالجيش الثاني الميداني داخل منطقة عسكرية، ومخصص لسجن ضباط ومجندي القوات المسلحة والمتهمين وفق القانون العسكري ،وكان هذا السجن متخصصا بتعذيب المساجين بشكل بالغ القسوة .ويعتبر الاحتجاز في هذا السجن غير قانوني للمدنيين، وفقا لقانون تنظيم السجون المصرية، واحتشد بهذا السجن كل الفئات والأماكن فلسطينيين، وأهل سيناء، ومن أفريقيا، السودان وجيبوتي وكينيا وجنوب افريقيا، ومن كل محافظات مصر آلاف وحالات اختفاء قسري تتم في هذا السجن ، نظراً لعدم خضوعه لأي رقابة قضائية أو تنفيذية مدنية مما يجعل المحتجزين فيه معرضين لكل أنواع الإيذاء البدني والنفسي ومختلف ضروب المعاملة القاسية واللاإنسانية، انزويت في ركن أنعى فيه حالي وأولول على مستقبلي الذي ضاع وشخصيتي التي تدهورت بشكل كارثي، وعيني التي فقئت وتشوه منظري وأصبحت أنا الوسيم الجذاب، الى

الأعور، وأنا في هذه الحالة وجدت جنديا أسود الوجه، لحيم، غليظ الرقبة، كثيف شعر الرأس والصدر، ينادي على اسمى، صعقت وأخذت أندب حظي التعس وسرت وراءه أجرجر قدمي، وأنا أحاول ترتيب أي كلام عاقل لوجودي في هذا المكان في هذا التوقيت بالذات، وعندما وصلت دفعني الجندي بقدمه في ظهري فسقط أمام مكتب فخم، يجلس عليه قائد عسكري أنيق، فقمت ووقفت منكسرا مطأطأ الرأس، ذليلا حتى سألني

- الاسم والعنوان :

أجبت بالاسم والعنوان،

- ما علاقتك بالإرهابيين وما الدور المنوط بالقيام به ؟

-انفجرت في البكاء بصوت عالٍ وقلت: أنا شاعر يا بيه، أنا شاعر يا بيه، تناثرت قهقهات مرتفعة بصوت عالٍ، انزعجت وتلفتت فوجدت مجموعة من الضباط متنوعي الرتب يجلسون على كراسي وثيرة، ويضربون أقدامهم في الأرض، عندما انخفض صوت الضحك، قام ضابط منهم وهو يصدر منه ما يشبه الشخير، أنا شاعر يا فندي، أنا شاعر يا فندي، فعاد الضحك مرة ثانية، ولم يتوقف إلا بعد أن أخرجوني وظللت نصف ساعة في الخارج ،ثم دخلت ولم يكن هناك أحد من السادة الضباط

-قلت أنا مهندس .

-ابتسم في رضا وأريحية وقال: إنت شاعر صحيح

-وربنا شاعر يا بيه ونشرت في جريدة" أخبار الأدب" وأخذت جائزة أدباء مصر في الاقاليم وأصدرت ديوان "براح المحبة" عن هيئة قصور الثقافة وعندي ديوان في البيت، شفت شاعر يا بيه قاتل قبل كده، أنا بحب مصر يا بية، تحيا مصر، تحيا مصر تحيا مصر

-أنا مصدقك لكن أشرح لنا أسباب وجودك في هذا المكان في هذا التوقيت؟

وأخذت أحكي له حكايتي من البدء حتى المنتهي، وأسقط ،فقط أنني أخذت الحقيبة وقلت في عقل بالي أن بهذه الحقيبة المحشورة بالمال أستطيع أن أخرج من هذه البلدة وأعيش في منتجع بقية حياتي أتمتع فيه بكل ما أردته في هذه الحياة، والذي قمت بقمعه نتيجة خوفي ورغبتي المرعبة في كنز المال، فقط ستكون المغامرة الأخيرة لصعودي للصحراء في قلب الصراع في قلب النار إما مت وترُكت جثتي نهباً للغربان، وإما الفوز في هذه الدنيا الفانية، وعندما انتهى التحقيق معي ،تم نقلي للحجز مع المعتقلين من الجماعات الإسلامية ،ورغم توددي لهم والانخراط في كل نشاطهم وعبادتهم من صلاة رغم أنني لم أصلِ منذ طفولتي، فرغم أن أبي مأذون إلا أنه لم يرغمنا على الصلاة ترك لنا الحرية، مع أنني كنت أتمنى في يوم أن يرغمني على الصلاة، وأقرأ معهم الأوراد والقرآن الكريم، ونتحدث في السنة النبوية، دون جدوي، فطلبت من العسكري أن ينقلني لمكان آخر ولكن لم يستجب لي .

مر الشتاء ودخل الصيف وتحول السجن إلى موقد، خاصة في ظل هذا العدد الكبير من المساجين وهذه الحرارة، كما كانت الغالبية الكاسحة من المُحتجزين تتعرض للتعذيب البدني العنيف ،وغيره من ضروب المعاملة السيئة دون أن يكون هناك رادع أو آلية بل تم شرعنة القتل والحرق والسحل والتعذيب بكافة أنواعه ،وإهدار الكرامة كوسائل تصل بها إلى استقرار النظام الأمني وتثبيت أركان الدولة القمعية التي اتخذت من الأعمال الإرهابية ذريعة لقمع المواطنين فباتت كل الانتهاكات المُنهجة والعنف الفج ضد المساجين مُبررًا ومُباحًا، كنت مستثنىً ورغم ذلك مرعوبا، من أن يتم تغيير رأيهم، أو أقوم بخطأ ما، أو يشق حلقي مسجون سياسي فأنا في المعتقل الطرف الضعيف، لذلك لم أكن أنام، وألتزم الطاعة داخل السجن، متى ينتهي كل ذلك؟

كما أنني رأيت بعيني تعرضهم البشع للضرب المبرح والتعذيب لمحاولة انتزاع اعترافات، أو لمجرد أهواء شخصية لدى ضباط الشرطة للانتقام منهم على خلفية معارضتهم

للسلطة، وذلك بخلاف حالات وفاة لمعتقلين آخرين لديهم أمراض كالقلب والسرطان، وأمراض أخرى خطيرة، وسط إهمال طبي ورفض إدارات السجون علاجهم، وكان يحكي من المعتقلين سواء في الزنزانة أو في الساعات القليلة التي نخرج فيها لحوش السجن أو الصلاة عن تتنوع أشكال حفلات التعذيب، والإكراه على الاعتراف بتهمة ملفقة. للتعليق كالذبيحة، الرأس لأسفل والقدمان لأعلى معلقتين في حبل، ويبدأ الصعق بالعصى الكهربائية في كل كامل الجسد بخاصة الأعضاء التناسلية (الذكر – الخصيتين – الثديين)، أو بربط سلك في جسد المعتقل، حيث يتم توصيله بجهاز كهربائي وصعق الجسد، والضرب بالعصي وأسلاك الكهرباء. عصر الخصيتين باليد بشدة، وقرص الثديين كذلك، كل أشكال الصلب، فرد الذراع الأيمن وربطه في باب حديدي كبير (مشبك) أو على تصميم خشبي يُعرف (بالعروسة)، وكذلك الحال مع الذراع الأيسر، وربط القدمين مع فتحهما بشدة وإبعادهما عن بعضهما، أو ربط اليدين مقيدتين من الخلف في باب حديدي، أو ربطهما مقيدتين لأعلى، ثم الصعق بالصدمات الكهربائية والضرب بالعصي وأسلاك الكهرباء، التمدد على الأرض مقيد اليدين من الخلف، وكذلك القدمين والتعذيب والصعق بالكهرباء في كل أنحاء الجسد، التمدد على مرتبة مبللة بالماء ومتصلة بجهاز كهربائي، يجلس شخص مقيد اليدين من الخلف، وكذلك القدمين، ويجلس شخص بكرسي بين كتفي، وشخص آخر بكرسي بين قدميِّ المقيدتين، والسبب في ذلك شدة الكهرباء التي تقفز بالإنسان إلى الأعلى أثناء التعذيب، الضرب بكف اليد اليمنى واليسرى على الوجه، وكذلك الضرب بقبضة اليدين، كذلك بات التعذيب بالكهرباء للأعضاء التناسلية أصبح منهجيا داخل أروقة سجون الأمن الوطني في مصر، حيث يتم توصيل أسلاك كهربائية بأعضاء المعتقل التناسلية، وصعقه مرارا حتى يغشى عليه، ويستخدم الضباط أوضاع تعذيب متفرقة وشديدة الوحشية، كالكسر المتعمد للأطراف مع ترك المعتقل دون تجبير أو علاج ، كإطفاء السجائر في أجساد المعتقلين، والجلد والشبح، كما أنّ الإهانة النفسية كانت حاضرة بقوة في مناهج التعذيب

حيث يجبر المعتقل أحيانًا على امتثال وضعيات" حيوانية "كالكلب والدودة، ويؤمر قهرًا أن يُعامل ككلب نابح ويخطو مثله لكي يعتق نفسه من حصة التعذيب اليومية. وكنت أتساءل هل الافكار والمبادئ التي تم اعتقالهم بسببها تستحق أن يتعرض الإنسان لكل هذا التعذيب، للموت، هل بعد خروج المعتقل من السجن إن خرج فعلاً سيكون إنسانا طبيعيا حرا سويا يعود مجددا ليساهم في بناء فكرة أم أنه سيخرج معوقاً يجب أن يتنحى حتى لا يكون عائقا لاستمرارية الفكرة وتجددها، الحياة معقدة بشكل فظيع ولا نعرف ماذا نفعل وما هو الصحيح وما هو الخطأ، كان المسجونون راديكاليين بشكل أزعجني كنت أريد أن يكونوا أكثر سماحة وودا معي، كنت أريد تغيير أفكارهم ، ولكن وكأنهم يعاندوني بشكل شخصي، كان داخلي متعاطفا معهم، ولكن تهميشهم لي جعلني أمقتهم وأضمر حقدا دفيناً لهم ، كنت منبوذاً في المكان لا أحد يريد يتحدث معي أو يشاركني الطعام، نظراتهم القميئة تشى بكوني مخبرا وأنا لست كذلك، أنا فقط أستعطف الحراس وأداهنهم لكي أتقي شرهم حتى لا يتم تعذيبي، وأنا لو طلبوا مني أن أعمل عجين الفلاحة لن أتأخر، ما المفيد أني أعمل لي كرامة وشهامة وأتعلق كالذبيحة ويتم ضربي بالكرباج كعبيد الجاهلية، وفي يوم وقف زعيم المجموعة وهو له حضور مبهر وصوت جهوري مسيطر وأخذ يخطب في المجموعة وأنا جالس في ركن السجن أنظر في بلادة إليهم، ورغم ذلك لم أكن أسمع شيئا؛ كنت في مكان أخر أحلم فيه بلذائذ لم أعشها ورفاهية مليونير وحيد وليذهب العالم للجحيم، أنا روحي معلقة بنفسي ولا أريد أخر في حياتي، انتهت علاقتي بالعالم وأنا فرد مزدهر بحالي، حتى خرمت أذني كلمة الختام من الشيخ وهو يقول والله يا إخوان لو كل المصريين قاموا على قلب رجل واحد متماسك، وصلوا صلاة الفجر حاضرا؛ لسقط حكم الجاهلين وعبده الشيطان وعادت الحضارة الإسلامية قوية عفيه تغزو العالم وتجعلهم مطايا للمسلمين، نحن مقصرون يا أخوان في حق الله، لقد أغوتنا الدنيا وانجرفنا في الخطيئة. قلت في نفسي : المشكلة في اللغة أكيد

- لم أعد أحتمل من الغضب والغل الذي داخلي فقمت وقلت بصوتٍ عالٍ رغم أنني حاولت أن أسيطر عليه لكي لا يكون مستفزا ورغم ذلك كانت يدي ترتعش وأتهته من التوتر، وقلت الصلاة والصوم والزكاة والحج حق الله ،ولا ينكرها سوى كافر ولكن بناء الأمم وتسييس أمور الناس لن يكون بالصلاة والصوم والاعتكاف ولكن بالعمل والعلم، والعقل، الله لا يبالي بالمغفلين والبلهاء، هؤلاء ليس مكانهم الطبيعي بيننا ولكن مكانهم الطبيعي، هو مصحة للأمراض العقلية ولذلك لو أنا ولي الامر لن أسجنكم أو أعذبكم ولكن سأخلي جزيرة وأضعكم فيها وأعالجكم حتى تكونوا منتجين، أنتم عبء، عبء على الإسلام السياسي، عبء على الدولة المدنية عبء على البشرية، أنتم مجرد نفايات لن تفلحوا في شيء أبدا، في الحرب العالمية الثانية مات ستون مليون إنسانٍ من خلق الله ولم يتدخل الله لأنهم بلهاء أشرار، تركهم يدفعون ثمن الجشع والتمركز حول الذات، في أفريقيا يموت ملايين من المجاعة والحروب القبلية، والعنصرية والدكتاتورية بسبب الجهل وعدم احترام حرية البشر، الله لا يثمن سوى الذي يفعل العقل والحرية أما غير ذلك فلهم أنسهم والشيطان، ثم جلست، مرة ثانية وأنا منتش من القدرات التي خرجت مني دون أن أعرف أنني أمتلكها، لم يتكلم أحد ،عادوا مرة ثانية للروتين اليومي المعتاد، ثم بعد فترة انفلت منهم عقلة الأصبع، وقد كان معتقلا قصير القامة جدا ليقترب من الأقزام، ولحيته تنزل لصدره وهو نشط وفكه ولم أعمل له حسابا ، بالعكس كان الوحيد الذي يتبادل معي النكت والحكايات القصيرة وقال: يا أخ، أخطاء البشر نتسامح معها أما كلي القدرة فنموت دونه وضرب أصابعه القصيرة في عيني فشعرت بأن عيني ضربت شررا ظننت أني عميت فأخذت أصرخ.

- أنا عميت أنا أعمى يا أولاد الكلب يا أشرار

وأخذت أصرخ وأنا أنال الضرب المبرح في كل جسمي وكأن أيادي ظلت تضرب في حتى فتح السجن وجرجرني العساكر وأنا ضائع في غيبوبة لا أرى بعيني الأخرى وعندما أفقت

من الغيبوبة ووجدت عيني مغطاة بالشاش ،بكيت حالي وقد ضاعت أمالي في الحياة ولم يعد لي سوى أن أعود مرة ثانية لبيت الأسرة وتذكرت أبنائي وزوجتي، وقلت في النهاية هم أهلي ولن يخذلوني وسيرعونني في سنواتي القادمة، وأخذت أستعيد صورة زوجتي داخلي، أراهم بعين المخيلة حتى تألفت مع حياتي القادمة، ووضعي الذي عشت بالضبط بل إنني عدت لأحب زوجتي وأبنائي وعندما دخل الطبيب عاودت البكاء على حالي ،وأنا استعطف الطبيب أن يجري لي عملية على حساب الدولة كي أرى مرة ثانية، وأن يسمح لي بالمكوث في المستشفى وعدم العودة للسجن، نهرني الطبيب وقال لي: اخرس خالص مش عايز عويل النساء المقرف ده ، العين سليمة لم تمس، أظافر الرجل انحرفت قليلا فنجت العين والشاش لأن جرح الأظافر كان محيطا بالعين والجروح عميقة، وقد خيطنا حول العين عدة غرز وبعد فترة سنزيل الشاش والخيط وتعود لتبصر، تهللت بالفرح وأنا أقول للطبيب إيدك أبوسها، وأخذت أدعي له حتى نهرني المرض وقال : اسكت يا كافر الطبيب مشي .

- حاضر

والتزمت الصمت ثم تذكرت كلمة كافر التي خرجت من الحارس، وعرفت وقلت من أفهم الجاهل الغبي أني كافر، ثم تجاهلت الأمر وقلت أكيد ما قلته سيصل لأمراء السجن، وستتغير المعاملة للأفضل ،وقد يخرجوني بسرعة غير متوقعة، انتعشت آمالي، وأنا أنتظر العودة للسجن بعد أن أحل الغرز، وفعلاً عدت للحبس مرة ثانية وقد تم استقبالي أسوأ استقبال، وقد أدخلوني غرفة حبس انفرادي وتم تعذيبي على فترات حتى قلت أني هالك لاشك عندي وظللت على هذا الحال حتى أصبت بانهيار عصبي شديد، وأخذت أصرخ صراخاً متواصلاً وتم ترحيلي لمستشفى أمراض عقلية وظللت فيها عاماً كاملاً ،ثم أخذت إفراج وأنا أعرج بسبب التعذيب وشاب شعري وزادت أعوام عمري أكثر من عشرين عاما، وضاع بهائي

وشبابي، وأصبحت كهلا مسكينا، لا يعرف ماذا يفعل في هذه الدنيا التي ضاقت بي وضقت بها .

– بخصوص انتهاكات السجون الواردة في الفصل الاخير، استفدت من تقارير المنظمات الحقوقية، العربية والدولية التي تتابع حالات التعذيب في مصر

السيرة الذاتية

- عبد النبي فرج
- جمهورية مصر العربية

للكاتب عدد من القصص والروايات ايضا المطبوعة :

- جسد في ظل (قصص)
- طفولة ضائعة رواية
- الحروب الأخيرة للعبيد رواية
- ريح فبراير رواية
- مزرعة الجنرالات رواية
- سجن مفتوح رواية
- بار مزدحم بالحمقى - قصص
- يد بيضاء مشعة
- الفصول الأربعة قصص قصيرة
- بئر يوسف قصص قصيرة
- بقعة مظلمة من العالم قصص قصيرة
- بندقية صالح قصص قصيرة